أصول العقائد
في الإسلام

تأليف
السيد مجتبى الموسوي اللاري

الجزء الرابع

تعريب
محمد هادي اليوسفي الغروي

أصول العقائد
في الإسلام

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

أصول العقائد

في الإسلام

تأليف
السيد مجتبى الموسوي اللاري

الجزء الرابع

تعريب
محمد هادي اليوسفي الغروي

موسوی لاری، مجتبی، ۱۹۳۶ -
اصول العقائد فی الاسلام (الامامة) /تألیف مجتبی الموسوی اللاری، تعریب محمد هادی اليوسفی الغروی.-قم: مرکز نشر الثقافة الاسلامیة فی العالم ۲۰۰۷.
۴ج
ISBN: 978-964-5817-33-4
مندرجات: ج.۱. التوحید. - ج.۲.النبوة. - ج.۳. المعاد. - ج.۴. الامامة.
۱. اسلام - عقاید. ۲. خداشناسی. ۳. نبوت. ۴.معاد. ۵.امامت.
الف. یوسفی غروی، محمد هادی، ۱۳۲۷ - ، مترجم. ب.عنوان.
BP۲۱۱/۵/م۸الف۶ ۲۹۷/۴۱۷۲

اصول العقائد فی الاسلام - ج٤

(الامامة)

المؤلف : السید مجتبی الموسوی اللاری
تعریب : الشیخ محمد هادی اليوسفی الغروی
الناشر : مرکز نشر الثقافة الاسلامیة فی العالم - قم
الطبعة السابعة : ۲۰۰۷ - ۱۴۲۸
المطبعة : الهادی - قم
الکمیة : ۲۰۰۰ نسخة
ISBN : 978-964-5817-33-4

مرکز نشر الثقافة الاسلامیة فی العالم

Sayyed Mojtaba Musavi Lari
Foundation of Islamic C.P.W.
21 Entezam St., Qom, I.R. Iran
Tel: [0251] 6605408 - 6609550
Fax: [0251] 6602335
Website: www.musavilari.org

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

قارئي العزيز :

حينما نبحث نحن حول مسألة الإمامة والولاية ، لا ينبغي أن نتصور أن طرح هذا الموضوع على طاولة البحث ممّا يجرّ إلى ظهور الخلاف والجدال بين الشيعة والسنة ؛ فإنّا إذا صرفنا النظر عن الجانب السياسي للقضية وطرحناها للبحث في إطار مسألة علمية ، فإنها إنما تؤدّي إلى عمق أكثر في التعرّف على شيعة علي والأئمة من ولده (عليهم السلام) ، وهذا التعمّق في معرفة الشيعة إنما يساعد على زوال الشقاق وعودة اللحمة بين الأشقاء المسلمين .

إنّ البحث العلميّ إنما هو سمة لتحرر الفكر وسعة النظر . وإنّ أهل السنة ـ وهم على مذاهب مختلفة ـ يبحثون في مسائلهم المختلف فيها فيما بينهم من دون أن يجرح ذلك من أخوّتهم شيئاً ، ومن دون أن يتكدّر صفوهم . حقاً لو كان الاتّحاد لا يتيسّر مع الكشف عن واقع الحقائق ، فإنه لا يتحقق

بالكتمان على المسائل والحقائق التاريخية ، بل إنّ إعادة النظر في الحقائق التاريخية بعمق ودقة ممّا يـوجب انفتاح الفكـر . فلا إشكـال في أن يحتفظ الفريقان اللذان يشكّلان بمجموعهما الأمة الإسلامية ـ بنظرياتهمـا المختلفة ومع ذلك يتبادلان حثّ الخطى نحو الوحدة الإسلامية الكبرى التي يعتـزّ بها الإسلام وأهله ، ويذلّ بها الكفر والنفـاق وأهله ، ويجد بهـا دين الله مكانـه اللائق به في هذا العالم .

إنّنا اليوم ، وأمام محاولات بثّ التفرقة واختلاق الاختلافات ، بحاجة إلى يقـظة تامـة ، ومعرفـة أكثر بحقـائق الإسلام وواقعيـة الحكـومـة في القـرآن الكريم ، في ظل بحوث حرّة وبـطريقة علميّة، وإلاّ فإن التعصّب والجمـود الفكـري أمام المنـطق الحق ،لايؤدّيان إلاّ إلى انسداد بـاب العلم وجمـود التبادل الثقافي والعلمي ، وهذا ما لا يُحمد عقباه قطعاً .

ومما يؤسف له حقاً هو أنّه على الـرغم من اعتقاد عـامة المسلمين بـأن رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) لم يعرّف أبا بكر ولا الخليفتين من بعده بعنوان الخلافة ،ولم يأت في القرآن الكريم ولا السنّة شيء بخصوص خلافتهم ، ومع أنّ خلافة أبي بكـر كانت من الحـوادث التاريخيـة ، ويحقّ لكل مسلم أن يبدي رأيه بالنسبة إلى هذه المسألة حسب رؤيته الخاصـة . . مع ذلك لا يسمح إخوانـنا أهل السنـة لأيّ مسلم في البحث والكلام بشـأن مدى صحة خلافته ، ويمنعون المسلمين عن الوقوف هذا الموقف مع موافقة الكتاب والسنة لذلك . ومن هنا لنا أن نقول : إن موقف إخواننا أهـل السنة بالنسبة لمسألة الخلافة إنما هو موقف عاطفي ، ومن البديهي أنه لو استولت العاطفة على فكر البشر لانقلبت الموازين تماماً رأساً على عقب .

إن الـوحدة الإسـلامية لا تستلزم غضّ الـطرف عن بيان الحقـائق العلمية والدينية ؛ إنّما الذي يجب أن لا يكون إنّما هـو إثارة العـواطف والأحاسيس المتقابلة ، والقيام بأعمال تؤجّج نيران الحقد والعداوة والبغضاء ، بين الإخوة الأشقّاء .

أما البحث العلمي فإنه لا علاقة له بـالعواطف والأحـاسيس ، وإنما هـو يخاطب منطق العقول والألباب . إنّ الدفاع عن وجهـة النظر ، وحتى إيـراد الإشكال على سائر مذاهب الدين الواحد ، ودعوة أتباعها إلى التحقيق والفكر فيها ، كل ذلك مع رعاية أصل الأخوّة الإسلامية ، والاحتـرام المتبادل ، لا يتنافى مع الوحدة الإسلامية بأي وجه من الوجوه أبداً؛ إلاّ أنه لا ينبغي لذلك البحث العلميّ الدّيني العقائديّ أن يبعدنا عن فكرة الائتلاف بين أبناء الأمة الإسلامية قط .

مجتبى الموسوي اللاّري

الأَصْلُ الرَّابِعُ

الإِمَامَةُ

مقام الإمامة في الإسلام

إن الإمام بالنسبة إلى الأمة رجل مقتدى يفيد من يقودهم مما أوتي من قوة في الفكر والرؤية ، فيتأسّون به في سلوكه وسيرته في الحياة ، ويطيعون أمره .

إن للإمامة مفهوماً واسعاً يشمل القيادة الفكرية والزعامة السياسية معاً ، وإن الإمام ـ بعد وفاة النبي وصيانة لمنجزاته واستمراراً لقيادته ـ كان مكلفاً بتعليم الناس الثقافة القرآنية والحقائق الدينية والتعاليم الاجتماعية ، وأن يقودهم من جميع الجهات والجوانب والأبعاد

إن هذه الزعامة والقيادة في صورتها الصحيحة والواقعية ليست سوى تحقيق للأهداف وتنفيذ للرسالة الإسلامية . تلك الرسالة التي أسسها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فحقق بها أمة ذات رسالة ودستور للحياة .

وقد تطلق الإمامة والقيادة على مفهوم ضيق محدود ، فيقصد بالقائد الإمام من يتعهد بإدارة دفة الأمور الاجتماعية والسياسية فحسب ، فيحصر سمة الإمامة على نفسه في هذه الحدود .

أما إذا امتزج الاستعداد الإنساني الذاتي بالرسالة الدينية ، فتمحورت

المرجعية الفكرية والزعامة السياسية في شخص واحد في قيادة المجتمع الإسلامي ، واستفاد من تمكين الله له في الأرض في سبيل تبليغ قوانين الشريعة والأطروحة السماويّة على جميع الأصعدة ، وقام بإجرائها وتنفيذها ، واستطاع أن يصون الشخصية الإسلامية والكرامة الإنسانية من السقوط والانحطاط. فهذا الإنسان الفذ هو الإمام الواقعي حقاً؛ بيده أزمة أمور الدين والدنيا جميعاً .

وبكلمة : فإن الإمام شخصية قيادية توحيدية إلهية ، وإن عمله بين الله وعباده بتنفيذ أوامر دين الله العبادية والأخلاقية والاجتماعية ، لهو نموذج كامل للإنسانية وعطاء شامل ، وهو الذي بإمكانه أن يقود حركة الناس نحو الكمال الإنساني ، ولهذا يجب على العباد المؤمنين إطاعة أوامره ، والاقتداء به في كل الأمور ، إذ هو النموذج الناطق لتربية الفرد والمجتمع الإنساني الكامل بصورة عامة ، والذي سيرته في حياته نموذج للتربية الفاضلة للفرد الإسلامي بصورة خاصة

إن أكثر علماء أهل السنة زعموا أن الإمامة والخلافة لا تختلفان في معناهما في شيء ، فهما لغتان مترادفتان لمعنى واحد هو عبارة عن المسؤولية الكبرى الاجتماعية والدينية التي تفوض إليه من قبل الأمة ، فهو ينال المقام ولا يهتمّ باختيارهم وانتخابهم له لذلك ، بمعنى أن الخليفة يتكفل بحل المشاكل الدينية ، وبالقدرة العسكرية يحرس حدود البلاد والأمن العام . وعلى هذا فالإمام زعيم عادي وحاكم اجتماعي يعمل على تطبيق العدالة الاجتماعية وحفظ أمن البلاد فقط ، وإنما يُختار لذلك . .

وشروط الزعامة هنا إنما هي الدراية واللياقة الشخصية للحكومة ، لكي يقوم الحاكم بمجازاة الخاطئين والفاسدين بتنفيذ الحدود الإلهية بحقهم ، وليضرب على أيدي المعتدين على حقوق الآخرين ، ويكف بأس المتنفذين الطغاة العتاة الذين لا يتقيدون بقيد ، ومن جانب آخر يقوم بحراسة حدود البلاد الإسلامية أمام كل اعتداء وذلك بإعداد التجهيزات العسكرية والجيش

القوي ، وإذا لم يتيسر بسط دعوة التوحيد عن طريق التبليغ والإرشاد ، وذلك بصدّ عناصر الكفر والجهالة عن كفرهم بقيامه بمواجهتهم ، وبمكافحة كافة أنواع الشرك والفساد بالكفاح المسلّح والجهاد .

وبهذه الرؤية فلو لم يكن لهذا القائد الحاكم استعداد علمي بالأحكام الإلهية ، بل كان هو أيضاً أحياناً يتعدى حدود التقوى ويتلوث بلوث الآثام ، فلا إشكال في ذلك ! . .

وفي الحقيقة ـ يقولون ـ كلّ من كان بإمكانه أن يتعهد الأمور التي كان يقوم بها النبي كان له أن يمتلك عنوان الخلافة بعده، وعلى هذا فلو تسلّط على المجتمع الإسلامي جبار ظالم عن طريق القدرة والقوة العسكرية ، وسحق حقوق الخلق وإراقة دمائهم، أو تعهد بخلافة النبي رجل سياسي متقلب يحكم الناس بهذه الخصائص الأخلاقية والروحية ، فيشطب بذلك على مسيرة العدالة والحق ، فلا إشكال في ذلك ! بل تجب طاعته وتحرم مخالفته ! .

وبهذه الرؤية نرى أحد كبار علماء أهل السنة يقول في باب ذكر ما يوجب خلع الإمام وسقوط فرض طاعته ما ملخصه : « قال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: « لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه وبغصب الأموال وضرب الأبشار وتناول النفوس المحترمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود »[1] .

في هذا الجو السائد على جهاز الخلافة ، حيث لا يحس الخليفة بأية مسؤولية أمام المجتمع الإسلامي حسب رؤيته الدينية ، كيف يمكن للمصلحين أن يراقبوا أعمال القادة الفاسدين ويتخذوا المواقف اللازمة ، ويعدلوا التحريفية الطارئة ؟ أفهل يترك الجهاز الحاكم سلوكه المنحرف بالوعظ والإرشاد ؟ ! .

---

(١) التمهيد للقاضي الباقلاني : ١٨٦ ط القاهرة ١٣٦٦هـ

بل نقول : إن الله تعالى لو كان يريد أن يتعهد مصير الأمة المسلمة قادة طغاة عتاة غير متّقين ، إذن فلماذا بعث الأنبياء والمرسلين ، وأنزل عليهم وحيه أحكامه ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ ﴾ ؟ ! . وهل الأحرار المضحون أنفسهم ثائرين على الحكام الظالمين قد خالفوا في ذلك إرادة الله رب العالمين ؟ ! كتب أحد الأخوة المحققين ـ من السنة ـ الدكتور عبد العزيز الدوري يقول ما فحواه :

« حين استقرار حكومة الخلافة لم تكف هذه النظرية السياسية لأهل السنة مستندة على القرآن والحديث فحسب ، بل على تقبل هذا الأصل : وهو تفسير القرآن وتوجيه الحديث على وفق الحوادث المستجدة الطارئة . ولهذا فلقد كان لكل جيل تقريباً أثر في نظرية الخلافة ، لأنها كانت تتشكّل بأشكال مختلفة حسب اختلاف الحوادث وتنسجم معها . والنموذج الواضح لهذا الأمر هو « القاضي أبو الحسن الماوردي » قاضي القضاة ، الذي كان أمر الخليفة مطمح نظره في كتابته للمسائل التي عرضها في كتابه « الأحكام السلطانية » وذلك في أوطأ أدوار الخلافة ، فكان يسعى جاهداً ليعمل عقله في تطبيق آراء الفقهاء السابقين على الوضع الحاضر والحوادث التي كانت تجري في عهده ، وكان كل جهده الابتعاد عن كل اجتهاد حرّ جديد ، وهو يقول : « يجوز إمامة غير اللائق مع وجود القائد اللائق ، ولو اختير للأمر من لا يليق فلا يجوز عزله لوجود الأفضل اللائق » .

وهو إنما يقبل بهذا الأصل ويتبعه ليوجّه عليه حكومة كثير من الخلفاء غير اللائقين ، ولعله كان يريد أن يخطّىء بهذا نظرية الشيعة في الخلافة والإمامة . وهكذا نرى أن هذا البحث الكلامي العقائدي الذي عرضه هنا في كتابه إنما هو لتوجيه الوقائع السياسية الجارية يومئذ ، وأنه لم يكن له أي هدف في الحقيقة سوى أن يوجه ما وقع باسم « الإجماع »[1] .

(١) النظم الإسلامية ـ ١ : ٧٢ ـ ٨٤ .

أجل ؛ هذه المباني الفكرية لأولئك الـذين يرون أنفسهم أتبـاع سنة الرسول وحفظة الدين والشريعة، ويرون سائر المفكرين المسلمين والمصلحين الاجتماعيين أتباع أئمة العدل وحجج الله وهداة الخلق، يرونهم رافضين لسنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

لو كان يحق لأولئك الأمراء البعداء عن روح الإسلام المتعدين حدود الله أن يفعلوا ما يشاؤون ، في حين لا يحق لأبنـاء الأمة الإسلامية أن يدخلوا مع النظام الحاكم في كفاح مسلح لإعـادة الخلافة إلى مستقر الحق، بل لا يجوز لهم أن يخالفوا أوامرهم ، فعلى الإسلام السلام ! .

أفهل هذا من الوفاء لشريعة المصطفى في الوجدان الديني الإسلامي ؟ أليست نتيجـة هذا الأسلوب من الفكـر الاعتـراف بـالحق المـطلق لجميـع الجبارين في طول التاريخ ؟ ! .

أما عند الشيعة الإمامية فإن الإمامـة ولاية إلهية ينصب لها الله من يشاء من عباده ، كما يهب النبوة لأولئك العظماء من بني الإنسان بفارق : أن النبي هو باني هذه الرسالة الدينية ، وإنمـا يؤدي الإمام دور الحـراسة لهـذا الدين الإلهي ، وعلى النـاس أن يستلهموا منـه القيم المعنويـة والروحيـة لجميـع جوانب حياتهم المعنوية والمادية .

إننا نشعر بضرورة وجود شخصية لائقة عالمة بالعلم الإلهي ، معصومة عن المعاصي والآثام ، يقوم صاحبها بعد رسـول الله برعـاية استمـرار سيرة مؤسس هذه الشريعة ؛ ويراقب حـوادث الحيـاة واعياً للمخاطـر الناشئـة من عناصر الانحراف الاجتماعي ، يستطيع أن يعـرّف النـاس بمعـارف الإسـلام على كـل الأصعدة ، كي تبقى القـوانين الإلهية مستمـرة في إطارهـا السليم ويبقى مشعل الحق والعدل مشعاً نيراً دائماً .

إن الإمامة والخلافة كـل لا يتجزأ كمـا لا تنفصل إمـامة الـرسول عن نبوته ، فإن الإسلام بمعنويته والإسلام بسياستـه شطران يشكـلان مجموعـة

واحدة باسم الإسلام، وإن كان قد تفكك أحدهما عن الآخر في مسيرة تاريخ الإسلام فانفصل الجانب السياسي منه عن الجانب الروحي والمعنوي .

إن لم يكن من يترأس الأمة الإسلامية رجلاً لائقاً عادلاً متقياً منزّهاً عن الرذائل الأخلاقية ، كي تكون سيرته وسلوكه أسوة للناس ، بل كان هو متعدياً حدود القانون ، متجاوزاً أصول العدل ، لم يكن المجتمع ليتقبل أصول العدل ، ولا يتربى الفرد فيه على الفضل والتقوى ، ولا يمكن للحكومة الإسلامية أن تعمل في سبيل هدفها السامي ، وهو أن توجه الناس إلى المبدأ الأعلى ، وأن توفر البيئة المساعدة لتربية القيم المعنوية الفاضلة وتطبيق أحكام الوحي الإلهي . وإن السيرة العملية والأخلاقية للحاكم ، والدور الذي تؤديه الحكومة من حيث التأثير في المجتمع لهي من القوة وعمق النفوذ بحيث يراها أمير المؤمنين (عليه السلام) أقوى من أثر الأب في تربية أسرته ، فيقول : « الناس بملوكهم أشبه منهم بآبائهم »[١] .

فبما أن هناك علاقة خاصة بين أهداف الحكومة ومواصفات القائد الحاكم ، فإن الوصول إلى هذه الأهداف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود زعيم قد تبلورت فيه جميع المميزات الخاصة والتامة للإنسان الكامل .

أضف إلى ذلك: أن الأمة في حركتها إلى الكمال تحتاج إلى زعيم ما، وهي حاجة فطرية طبيعية؛ فكما أن الإسلام قد وفّر للبشر كل ما يحتاجونه من حاجات فردية واجتماعية مادية ومعنوية في أحكامه الكاملة ، كذلك عليه أن يكون قد استجاب لهذه الحاجة الطبيعية أي الزعامة بصورة منسجمة مع الفطرة الإنسانية .

إن الخالق الذي ـ من أجل كمال كل مخلوق ـ وفّر له الوسائل الضرورية وغيرها ، كي يعبر من حدود النقص والضعف إلى منازل الكمال، كيف يمكن أن يستثني من ذلك الإنسان الذي وفر له كل حاجاته الطبيعية فلا يوفر

---

(١) البحار : ج ١٧ ص ١٢٩ .

له العامل المهم لرقيه المعنوي والروحي ؟ !

أفهل بالإمكان أن نقول بأن الله الذي لم يترك أي شيء من مستلزمات التكامل المادي والجسدي للبشر دون أن يهبه إياه ، قد حرمه من أن يوفر له العامل المهم الذي له الدور الأساسي في رقيه الروحي ،وأنه بخل أن يجود عليه بهذه النعمة ؟ ! .

إن أمة الإسلام بعد وفاة رسول الله لم تكن بذلك المستوى من الرقي الفكري والثقافي الإسلامي الذي تتمكن معه من الاستمرار في تطورها التكاملي ، إلا في ظلال وصاية الرسول. وإن البرنامج الذي طرحه الإسلام لرشد الإنسان ونموه وتعاليه ، ما لم يندمج ببرنامج الإمامة الإلهية فإنه سيبقى برنامجاً ناقصاً بل جامداً لا روح فيه ، وسوف لا يتمكن من أن يؤدي دوراً قيماً في تحرير الإنسان وتنمية طاقاته .

بل إن النصوص الإسلامية تصرح بأنه إذا أخذ أصل الإمامة من بين أصول الدين الإسلامي فإنه يعني فقدان الروح الأصلي لجميع أحكام الإسلام التكاملية ، وذلك بدوره يعني عدم تحقق المجتمع التوحيدي التكاملي في الإسلام ، وأنه سيصبح إسلاماً بلا روح ! .

إن رسول الإسلام يقول :

« من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية »[1] .

وذلك أن الناس في الجاهلية كانوا مشركين بلا توحيد ولا نبوة ، إن هذا التعبير القوي علامة على مدى الاهتمام الذي كان للرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بمسألة الإمامة ، حتى أنه يرى أن الإنسان إن لم يجعل حياته الروحية تحت غطاء ولي كامل ، فإنه بمثابة من قضى حياته في دور الجاهلية ومات فيها .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٩٦ .

الرسول ومستقبل الإسلام

إن النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله) كان خبيراً بأن الأمة بعد وفاته سوف تفقد محور وحدتها وتسقط في خضمّ أمواج الاختلاف والتشتت .

إن المجتمع الإسلامي الجديد يومذاك كان متشكلاً من المهاجرين بما فيهم بنو هاشم وأمية وقبائل عدي وتميم ، والأنصار من الأوس والخزرج ، وبوفاة شخصية رسول الله ثارت نيران الفتن في الرؤوس ، وكان كثير منهم لا يفكرون فيما يصلح للإسلام بل في سبيل الحصول على زعامة المسلمين وتبديل القيادة الإلهية بحكومة مركزية قوية مقتدرة ، وإن الأماني والآمال والاتجاهات المختلفة لم تدع بينهم رباطاً دينياً أصيلاً وقوياً ، وقد نوّه بذلك رسول الله لأصحابه فقال :

« افترقت أمة موسى على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي هذه على ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة ناجية ، وسائر الفرق في النار »[١] .

إن أقوى الصدمات التي أصابت اتّحاد المسلمين بعد وفاة رسول الإسلام وبذرت فيهم بذور التفرقة ، لهي ختلاف أنظارهم حول الحاكم

(١) باب الفتن من سنن ابن ماجة القزويني .

الإسلامي ، الذي جرّ إلى إثارة نيران الحروب والصراع والفتن فيهم ، وشق عصاهم ، وفرّق صفوفهم .

حقاً لو كان النبيّ لم يفكر في علاج هذا الدّاء الموحش الذي كان يتنبّأ به ، ولم يدبّر لوقاية الأمة من آثار الفراغ الكبير الذي يصيبهم بفقدهم القائد الأول ، والمخاطر التي بإمكانها أن تصيب المجتمع الإسلامي بعده ، فيترك الساحة بدون أي تدبير لمصيرها ، ألم يكن هو قد خلق لها تلك المشاكل الكبرى الناتجة من إهمال مسؤولية الحكومة وإدارة الأمور ؟! بينما كانت مخاطر المستقبل مما يتنبّأ بها حتى من دون أية علاقة بالوحي والغيب ؟ .

كيف لنا أن نصدّق بأن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) الذي لم يترك أية نقطة من رسالته لم يبيّنها لهم ، لم يكن ملتفتاً إلى مسيرة الإسلام في المستقبل وضرورة حراسة موضع الحق فيه ، بل ضرورة حفظ كيان الدين ، وموجودية الأمة ، فيدع مسؤولية صيانة الرسالة إلى أحوال المستقبل وما تدبّره لها يد التقدير ؟! .

الذين يقولون إن النبيّ لم يصوّر لأمته أيّة صورة عن شكل الحكم بعده ، وإنه التزم السكوت في ذلك ، وإنه ترك أمّته بعده بلا تكليف في ذلك ، هؤلاء كيف يجرؤون على نسبة هذه المسامحة والسكوت في غير موضعه إلى ساحة من كان يمثّل العقل الأوّل في البشر ؟! ولا سيما بعد التوّجه إلى أن وفاته لم تقع فجأة ، بل كان هو (صلى الله عليه وآله) يخبر عن ذلك بقوله : « يوشك أن أدعى فأجيب » بل أعلن للناس ذلك في حجة الوداع ، وأنه سوف لا يراهم في موسم الحج القابل .

إن الإسلام ، ذلك الغرس الناشىء الذي كان أمامه إلى أن يثمر درب طويل ، والذي تعهّد حامل لوائه باجتثاث أصول الجاهلية وتطهير ما ترسّب منها في زوايا أفكار الناس وعقولهم وأرواحهم ، كان هذا الإسلام مهدّداً من جانبين : من الداخل من ناحية المنافقين الذين كانوا متغلغلين في كل مركز وناحية تحت لواء الإسلام وفي صفوف المسلمين ، وقد تكررت منهم

المؤامرات لقتل النبيّ ، حتى أنه في السنة التاسعة للهجرة حينما كان عازماً على المسير إلى حرب تبوك خاف إغشاشهم في المدينة ، فعيّن علياً (عليه السلام) خليفة له فيها تفادياً لأية حادثة غير مرضية . . وكذلك كان الإسلام مهدّداً من الخارج أي من قبل الامبراطوريّتين يومذاك : الروماان وإيران ، وكان يخاف أن تهجم إحدى هاتين القوتين على مركز الإسلام .

من البديهي أنه مع هذه الأوضاع الشاذّة والحسّاسة للغاية، كان على النبيّ أن يجعل مسؤولية صيانة الرسالة والأمة على شخص أو أشخاص يستطيعون ذلك، فيقومون بتثبيت هذه الدعوة ويدفعون عنها كل خطر .

إن الخليفة الأول أحسّ بالمسؤولية عن مستقبل الحكومة الإسلامية والفراغ الناتج من غيابه ، فلم يدع الأمة بحالها ، بل أوصى ـ وهو مريض ـ إلى الناس يقول :

« هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله إلى المؤمنين والمسلمين : سلام عليكم ؛ فإني أحمد إليكم الله ، أما بعد ، فإني قد استعملت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . وإنّي ما ألوتكم نصحاً والسلام »[1] .

وعلى هذا فإنه كان يرى تعيين الخليفة بعده من حقه حيث ألزمهم بطاعته .

وكذلك أدرك الخليفة الثاني ضرورة سرعة اتخاذ القرار بعد ضربته فأمر بتشكيل الشورى من ستة أشخاص ؛ وهذا يعني أنه لم يكن يرى للمسلمين في تعيين الخليفة حقاً ولذلك حدّد الشورى في ستة أشخاص .

وأما أمير المؤمنين علي (عليه السلام) فإنه رضي بالأمر الواقع خوف فتنة الناس وعودتهم جاهلية .

ومع هذا فكيف غضّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) الطرف عن هكذا مسألة حساسّة للغاية ، والخطر العميق المحدق بالرسالة ، والناس

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ١٣٦ ط نجف .

قريبو عهد بالجاهلية ، ولم يتقدم إلى المسلمين بأطروحة لسلامة الأمة من تلك الأخطار المرتقبة بعد وفاته ؟! حقاً ليس بإمكاننا أن نجد أي توجيه أو تفسير نتقبله لاتّخاذه هذا الموقف السلبيّ ، ولعدم اهتمام رسول الإسلام بهذا الأمر ، ولا نستطيع أن نتصوّر أنه لم يكن يعتني بأمر الدعوة بعده ولم يكن يهتم بما يجري عليها بعد وفاته ! .

بل إن رسول الله كان ـ وهو في فراش الموت وآلام الأسقام تؤلمه بشدّة ـ يفكر في الرسالة والأمة قلقاً على مستقبلهما ، بل كان هذا هو كل ما يشغل باله آنذاك . وفي تلك اللحظات الحسّاسة التي كان كل الحاضرين ـ ومنهم عمر بن الخطاب ـ يغطّون في حالة من البُهت والاضطراب العميق ، قال : « إيتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لن تضلوا به بعدي أبداً »[1] .

إن محاولة النبيّ (صلى الله عليه وآله) هذه، والتي اتفق الفريقان على نقلها، وصحتها، لهي خير شاهد على أن رسول الله في اللحظات الأخيرة من حياته كان يُحس بالمسؤولية عن مستقبل الإسلام، وأنه كان يفكّر في الأخطار بعد وفاته ، وأنه لحفظ أمته من الانحراف ووقاية لها من الانحطاط حاول أن يريها الدّرب للمستقبل ، إذ كان هو أكثر البشر فهماً . وأعمقهم إدراكاً .

وهنا ينبغي الالتفات إلى مسألة الوصاية والخلافة في الأديان والشرائع السابقة ، فالرسل جميعاً وكثير من الأنبياء كانوا يختارون لأنفسهم أوصياء من بعدهم . وحيث يقضي القرآن الكريم بعدم تغيير سنة الله في خلقه ، كان على رسول الإسلام ـ وهو من المرسلين ـ أن يعمل بهذه السنّة الإلهية ، فيعرّف الأمة بوصيّه وخليفته من بعده ، وكذلك كان . فإنّه بأمر ربّه وبمقتضى رسالته واستمراراً لها اختار خليفته ووصيّه وعيّن تكليف أمته من بعده ، وإن هذه العقيدة بالوصاية لهي من صلب كتاب الله وصميم أحكام الإسلام ، ولا سيما بالنظر إلى ما يتّسم به من الكمال والتمام .

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٤٦ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ٢٤٢ وصحيح البخاري ج ١ ص ٢٢ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٣٦ .

البيان الرسمي للرسول بزعامة علي (ع)

إن مصلحة الإسلام والأمة كانت تقتضي أن يلي رعاية نهضة الإسلام بعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) وخلوّ الساحة من القائد الكبير ، قائد آخر في قمة التقوى والعلم ، استمراراً للنهضة الإسلامية وصيانة للرسالة من الانحراف ورجوع القهقرى إلى سنن الجاهلية وأخلاقها ، ولتحكيم مباني النظام الاجتماعي والسياسي على أساس الإسلام أكثر فأكثر .

وذلك أنّ ترك أمر القيادة إلى أمة جديدة العهد بالتحرر من قيود الجاهلية ، بل لم تكن جميع جذور تلك الدور ورواسبه قد أمّحت من صفحات أرواحها وقلوبها ، ما كان ليؤدي إلى الحفاظ على الأهداف الكبرى لصاحب الرسالة ، ولم يكن ليصون الرسالة من خطر العوامل السلبية عليها .

وعلى هذا ، فإن السبيل الوحيد للحصول على تلك الأهداف هو أن يلي أزمّة الأمور شخصية عالمة بمعارف الرسالة ، حاملة للعلوم الدينية ، ذات إيمان نورانيّ ، بعيدة عن الخطأ بل وحتى النسيان ، تماماً كما كان صاحب الرسالة ، فإن المجتمع الإسلامي ذلك اليوم كان بحاجة ماسة إلى هكذا قائد ، يتابع عملية التربية الإنسانية بكل دقة وإمعان ، ويتمكن من حلّ كل مشكل يعرض للشريعة على عهد زعامته عليها وعلى الأمة .

وإنّ الشواهد التاريخية ترينا أن رسول الله قد حلّ هذه المشكلة في

عودته من حجة الوداع ، في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام ، بتعيين وصيّه وخليفته من بعده بأمر ربّ العالمين ، وبيّن للناس بذلك سبيل استمرار نهضته ، وطريق الحقّ والخير والسعادة للأمة المسلمة .

ففي السنة العاشرة من هجرته ، وهي آخر سنة من عمره الشريف ، صمّم الرسول الكريم على أن يشارك بنفسه في ذلك الاجتماع الكبير للحج في مكة المكرمة . وقد سبب إعلان هذا الخبر في أن يشارك أكبر عدد ممكن من المسلمين من مختلف النقاط القريبة والبعيدة ، بل يحاولوا المشاركة معه من المدينة ، لينالوا بذلك فخر السفر مع الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ويتعلموا مناسكهم مباشرة منه ، ويؤدوا هذه الفريضة الإسلامية الكبرى بمحضره الشريف .

وانطلقت هذه القافلة الكبرى من المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين مع نبيّهم رسول الله من المدينة المنوّرة إلى مكة المكرمة ، وشهدت مكة في تلك الأيام أكبر مظهر للشعائر الإسلامية كان يشارك فيها ألوف المسلمين كأمواج البحار حول قائدهم الكبير . وكان رسول الله مستبشراً بما كان يراه من نتائج جهوده المضنية في هذا اليوم العظيم .

وبعد أن أنهوا فريضة الحج ذلك العام ، والتي سميت « حجة الوداع » ودّع الرسول بيت الله الحرام عائداً إلى المدينة المنورة ، ومعه ذلك الجمع العظيم من الحجّاج الذين اختلف المؤرخون في تقديرهم من تسعين ألفاً إلى مئة وعشرين ألفاً . وانطلقت القافلة الكبرى مخلّفة وراءها عدّة وديان حتى انتهت إلى صحراء جرداء قاحلة ، فيها غدير كان يسمى « غدير خم » . وإذا بأمين الوحي ينزل على رسول الله ويأمره بالتوقف في هذا المكان ، وكذلك أمر الرسول القافلة وأصحابها ، وانتظر كي يصل المتأخرون منهم .

وكان هذا التوقف المفاجيء ، في تلك الأرض الملتهبة وشمس الظهيرة المحرقة ، مما تعجب منه المسافرون المتعبون ، والذين كان قد أخذ منهم الحرّ كل مأخذ . . ولم يمر كبير وقت حتى انتشر الخبر بتلاوة رسول الله

عن مليك الوحي ذلك الأمر الصريح الإلهي بتعيين الوصي والخليفة وإبلاغ ذلك إلى المسلمين :

﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾[1] .

إن الدقة في مضمون الآية تبلغ بنا إلى أن : إبلاغ هذا الأمر الإلهي من الأهمية والعظمة على مستوى لو كان الرسول يخاف الناس في تبليغه إياهم كان كأنه قد امتنع عن أداء رسالته بالمرّة ، في حين أنه لو بلّغ هذا الأمر الإلهي إلى الأمة فكأنما يكمل بذلك رسالته .

في هذه الآية أبلغ الله لرسوله أهميّة هذا الأمر ، وضمن له حفظه وحراسته أمام مخاطر إبلاغه ذلك .

وبعد سبعين يوماً من هذا اليوم توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلم يكن متبقّياً من عمره الشريف بعد هذا اليوم سوى سبعين يوماً تقريباً ، وعلى هذا فإنه كان قد بلّغ إلى الناس في طول ثلاثة وعشرين عاماً من رسالته ما تلقاه من مبدأ الوحي لهدايتهم وسعادتهم ، إذن فهنا الآية تشير إلى موضوع خاص يكون بإبلاغه إكمال الرسالة وتمام النعمة ورضى الربّ .

وكان من المحتمل أن يتعرض الرسول بأدائه لهذا الأمر لأذى المؤذين فيصيبوه بشرّهم ، ولذلك يطمئنه الله : إن الله يحرسك من الناس ، وإنه سيصونه من تعرّض البشر له بشرّهم .

وهنا نعلم أنه لا بد من أن يكون موضوع هذا الأمر حسّاساً للغاية ، بحيث يكون أداؤه متمماً للرسالة ، والامتناع عن أدائه مما يورد نقصاً فيها .

والجوّ السائد على أفكار العرب يومئذٍ كان يقضي بعدم إعطاء المناصب والمقامات العالية للشباب الذين لم يمض من أعمارهم الكثير ،

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

بل إنما يرون ذلك للشيوخ وكبار الأعمار ، وهذا أيضاً مما كان يقلّل من توفّر الأرضية المساعدة لإبلاغ ذلك الأمر الإلهي .

ومن ناحية أخرى فإن الذكريات المرّة كانت تؤذي رسول الإسلام بشدة ، فإنه لم يكد ينسى ذلك الموقف السلبيّ من عدد من أصحابه في تعيين أسامة بن زيد وعتابهم وترددهم لتولّي ما أمروا به ، إذ أنه حينما نصّب الأول لقيادة جيش ، ونصّب الثاني أميراً لمكة ارتفعت أصوات جماعة من أصحابه بالاعتراض على الأمر ! .

كل ذلك كان بالطبع مما يسبّب أن يصبح إعلانه ـ لوصاية وصيّه وخليفته علي بن أبي طالب (عليه السلام) ـ ذلك الشاب الذي لم يكن قد بلغ من العمر إلا ثلاثاً وثلاثين سنة ـ أمراً خطيراً ، ويورثه ارتباكاً واضطراباً .

ومن ناحية أخرى كان كثير من أقرباء وأصدقاء هؤلاء الذين انضمّوا اليوم إلى صفوف المسلمين وصحابة النبيّ (صلى الله عليه وآله) قد فقدوا أرواحهم بسيف علي (عليه السلام) ، وهذا الأمر أيضاً كان مما يزيد الموضوع حساسية أكثر ، فإن تذكارهم لتلك الحوادث المؤلمة كان ممّا يحرق قلوب بعضهم ألماً ، ويزيد في أوار نار الحقد فيهم أكثر فأكثر .

إنّ المحدثين من الشيعة ، وجمع من محدّثي السنة[1] صرّحوا بأن الآية المذكورة نزلت في يوم « غدير خم » وبها أمر الرسول في هذا اليوم بأمر ربّه وبوحيه وبحكمته أن يعلن للناس أهمّ موضوع أساسي في الإسلام ، وذلك بأن يعرّف علياً (عليه السلام) خليفة له من بعده .

أجل ، إن تلك الشخصية التي لم تشرك بالله طرفة عين ، ولم تتلوث

---

(١) منهم الواحدي في أسباب النزول ص ١٥٠ والسيوطي في الدر المنثور ٣ : ٢٩٨ والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة : ١٢٠ والألوسي في تفسيره ٦ : ١٧٢ والقاضي الشوكاني في فتح القدير ٣ : ٥٧ والفخر الرازي في تفسيره ٣ : ٦٣٦ وبدر الدين الحنفي في عمدة القاري ٥٨٤ : ٥٨٤ والشيخ محمد عبده في تفسير المنار في ذيل تفسيره الآية .

بلوث الآثام مطلقاً ، بل قضى كل عمره في إعلاء راية الإسلام ونشر كلمته ونعاليمه ، وكان المرآة الصافية التي تعكس نفس رسول الله بكل صدق وأمانة ، كان جديراً أن يكون حافظاً لأحكام الإسلام ودساتيره وقوانينه ، وأن يتعهد قيادة الإنسانية إلى الكمال والفلاح . وحقاً إنّ الإمامة والخلافة والقيادة إنما كانت تناسبه فحسب .

وأخيراً أقام الملأ المجتمع هناك فريضة الظهر مع النبيّ ، وتقدم رسول الله لامتثال الامر الأكبر الإلهي ،وبين ذلك الملأ المتراكم من الناس الذي كان قد ملأ الصحراء وهو ينتظر ذلك الحدث التاريخي العظيم ، تقدم إلى منبر كان قد أعدّ له من جهاز الإبل ، بحيث يراه ذلك الملأ ويسمع حديثه .

فخطبهم بأنفاسه الملكوتية في ذلك الفضاء الرحب ، وهم بين سامع لصونه ومن فهم من غيره . وبعد الحمد والثناء على الله القدير الحكيم البصير ، الذي لا زوال لحكمه وعلمه ، قال :

« أيها الناس يوشك أن أدعى فأجيب وإنّي مسؤول وإنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد إنك قد بلّغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيراً . فقال : أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأن جنته حق ، وأنّ ناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث بعد الموت حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ؟ قالوا : بلى نشهد بذلك .

ثم أضاف يقول : وإني سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين : كيف تخلفوني فيهما ؟ الثقل الأكبر كتاب الله عزّ وجل ، سبب طرفه بيد الله تعالى ، وطرفه بأيديكم ، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدّلوا . وعترتي أهل بيتي ، فإنه قد نبّأني اللطيف الخبير : أنهما لن ينقضيا حتى يردا عليّ الحوض » .

ثم دعا علياً (عليه السلام) فأخذ بيده ورفعه ليعرّفه للناس . ثم قال : أيها الناس من أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فأضاف الرسول يقول : من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيثما دار[1] .

وبعد انتهائه من هذه الكلمات طلب منهم : ألا فليبلّغ الشاهد الغائب ! .

أجل ، إن الذي نُصّب في هذا اليوم بأمر الله بمنصب الإمامة وتعهد بهداية الأمة كان علياً (عليه السلام) ، وهكذا اختير لإمامة المسلمين أنسب رجل لذلك في عالم الإسلام من كان كنزاً للعلوم ومنبعاً للفضائل . وبإعلان الرسول لأمر الإمامة والخلافة فقد أتمّ الحجة على أمته إلى يوم القيامة .

ولم تتفرق جموع الناس حتى نزل أمين الوحي على الرسول بهذه الآية الكريمة :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾[2] .

---

(١) أثبت حديث الغدير كثير من محدّثي أهل السنة بطرق مختلفة في كتبهم : كالترمذي في صحيحه ٢ : ٢٩٧ والحاكم في المستدرك ٢ : ١٠٩ والفخر الرازي في مفاتيح الغيب ١٢ : ٥٠ والواحدي في أسباب النزول : ١٥٠ والسيوطي في الدر المنثور ٢ : ٢٩٨ واليعقوبي في تاريخه ٢ : ٩٣ وابن كثير في البداية والنهاية ٥ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧ : ٣٧٧ والثعلبي في تفسيره : ١٢٠ وابن حجر في صواعقه في الفصل الخامس من الباب الأول وراجع الغدير ١ : ١٤ ـ ٧٢ فقد روي هذا الحديث عن ١١٠ أشخاص من صحابة رسول الله منهم أبو بكر ، وعمر ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن عبادة ، وأسامة بن زيد ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، وجابر بن عبد الله الأنصاري ، وزيد بن أرقم ، وآخرين غيرهم .

(٢) سورة المائدة : ٣ ، وروى نزولها في يوم الغدير الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٨ : ٢٩٠ والحمويني في فرائد السمطين في الباب ١٢ . والسيوطي في الإتقان ٢ : ٣١ والدر المنثور ٢ : ٢٥٦ ومن المؤرخين اليعقوبي وابن كثير ٢ : ١٤ .

وترك الرسول مكانه وهزيج التكبير يجلجل في الجوّ ، وأبدى الناس الفرح والسرور لولاية علي (عليه السلام) ، وتقدموا إليه جماعات جماعات يباركون له إمامته ويخاطبونه بإمرة المؤمنين بأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) .

ونظم الشاعر الشهير « حسان بن ثابت » بإذن الرسول لذلك اليوم قصيدة غرّاء وقرأها[1] .

ونستطيع الوصول إلى عمق الحقيقة من مضمون الآية الكريمة إذ تذكر أن دين الله قد بلغ في هذا اليوم إلى مرحلة الكمال وتمّت النعمة الإلهية على العباد ، إذن يجب أن يكون قد حدث اليوم حدث عظيم ، إذ يرى القرآن الكريم أنه يتمتع بأهمية كبرى ، فإن الإسلام الذي رضي به الله هو الإسلام الذي كمل اليوم ، وهذا يعني أن الدين الحق بلغ كماله اليوم بنصب علي (عليه السلام) إماماً له ، وأن النعمة الإلهية قد تمّت على الناس بتعيين وصيّ الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) .

إن الحديث المتواتر والكتب التاريخية المعتبرة عند الفريقين تؤكّد أن الآية الكريمة المذكورة نزلت على رسول الله في غدير خم ، أي في اليوم الذي عهد الرسول مسؤولية الإمامة والقيادة بعده إلى علي (عليه السلام) واتفق المفسرون على أن سورة المائدة ـ ومنها هذه الآية ـ هي آخر سورة نازلة على النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) أي أن نزولها كان في الأيام الأخيرة من حياته الشريفة ، فلم ينزل بعد هذا أمر جديد من الله تعالى .

وما ظنّه البعض بأن إشارة الآية إلى زمان بعثة رسول الله ، بمعنى أن الله أكمل دينه وأتمّ نعمته في ذلك اليوم ، فإنما هو استنباط لا أساس له من

(١) يناديهم يوم الغدير نبيّهم ... بخمٍّ وأكرم بالنبيّ منادیا
يقول فمن مولاكمُ ووليكم ؟ ... فقالوا ـ ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا ... ومالك منا في البريّة عاصيا
هناك دعا : قم يا عليّ فإنني ... رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

الصحة والواقع ، وذلك مما لا يتفق مع الواقع التاريخي والفهم الصحيح للآية الكريمة بأي وجه من الوجوه أبداً ، فإن يوم البعثة إنما هو بدء نعمة الله لا إتمامها، وبينهما تفاوت كثير ! فإن الآية تقول: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾، أي في هذا اليوم الذي تحقق فيه هذا الأمر المهم رضيت لكم الإسلام . فالحديث والتاريخ لا يؤيدان هذه الفرضية ! .

وقد كان لحادثة الغدير الحساسة ، وما أدّاه الرسول في ذلك اليوم من الأمر الإلهي ، أمواج وردود فعل عظيمة في تاريخ الإسلام ، بحيث لم يكن بإمكان أي مؤرخ يهدف إلى ضبط الحوادث وحفظ حقائق التاريخ أن يغض النظر عن بيان هذه الحادثة، أو أن يكتم ما يتعلق بها من أمر ، اللهم إلا المصابين بالجمود الفكري والتعصّب .

وقد كان لهذا اليوم بين المسلمين في القرون الأولى القريبة من عصر الرسول شهرة عظيمة ؛ ولنا في التاريخ شواهد كثيرة لإثبات ذلك :

فقد ذكر المسعودي ليلة الثامن عشر من ذي الحجة بليلة عيد الغدير[1] .

وذكر ابن خلكان يوم الثامن عشر من ذي الحجة بعنوان : يوم عيد الغدير[2] .

وأبو ريحان البيروني المعروف من علماء القرن الخامس ، عدّ يوم الغدير من أعياد المسلمين[3] .

وقال ابن طلحة الشافعي في كتابه (مطالب السؤول عن مناقب آل

---

(١) التنبيه والإشراف :٣٢ ووجدت في ٢٢١ أن الغدير هو في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة وولد علي وشيعته يعظمون هذا اليوم .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٦٠ .

(٣) الآثار الباقية ـ عن الترجمة الفارسية : ٣٣٤ .

الرسول) : يوم غدير خم يوم عيد ، وهو اليوم الذي نصب فيه رسول الله علياً (عليه السلام) إماماً للمسلمين[١] .

* * *

والآن علينا أن نرى ما هو المقصود من كلمة « المولى » في كلام رسول الله إذ قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه . فهل المقصود هو الأولى بالتصرّف من نفس المولّى عليه ، ومعناها : الولاية المطلقة لذلك المولى على المولّى عليه . أم أن مفادها هو الولاية بمعنى الصديق والمحبّ والناصر ؟

بإمكاننا أن ندرك صحة المعنى الأول بالمراجعة إلى نفس القرآن الكريم ، حيث يقول بالنسبة إلى الرسول :

﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾[٢] .

وعدا عن هذه الآية فقد وردت لفظة المولى في موارد أخرى من القرآن الكريم بمعنى الأولى بالتصّرف[٣] ومن كان أولى بالتصرف من نفس المولّى عليه كان أولى بالتصرف في ماله بطريق أولى ، ومن كانت له هذه الولاية فهي الولاية المطلقة التي لا استثناء فيها عن وجوب طاعته .

كان هذا ما فوّضه الله إلى رسوله ، فهو الذي وهب له هذه السلطة على نفوس الناس وأموالهم ، وجعله يتمتع بأولوية التصرف في جميع شؤون الناس .

ولنا دلائل وشواهد عديدة ومختلفة على أن معنى المولى في حديث الغدير هو معنى الأولى كما في الآية الآنفة الذكر ، فكما كانت لرسول الله

---

(١) عن الغدير ١ :٢٦٧ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٦ .

(٣) سورة الحديد : الآية ١٥ وسورة الحج : الآية ١٣ .

الأولـوية المـطلقـة حسب البيـان القـرآني ، كـذلـك أصبح أميـر المؤمنين (عليه السلام) يتمتع بهكذا مقام خاص من الأولوية ، مع فارق أن النبوة قد أغلق بابها بخاتمية رسالة الـرسول ، فلعلي (عليـه السلام) سـائر منـاصب الرسول ما عدا هذا المقام مقام النبوّة والرسالة .

وأولى القرائن التي تبين أن معنى الحديث بمعنى الأولى بـالتصرّف : هي ما قاله الرسول قبل إعـلان ولاية علي (عليـه السلام) إذ قـال : ألست أولى بكم من أنفسكم ؟! فهو إذ بيّن ولايته على أمة الإسلام وأخذ اعترافهم بأولويته بهم من أنفسهم ، أضاف يقـول : فمن كنت مولاه فعلي مولاه، ممّا يدل بالطبع على أن إطلاق « المولى » على عليّ (عليه السلام) بنفس هذا المعنى « أولى بالنفس » ، ذلك هو المنصب الذي نصبه فيه النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، وإن كان الرسـول قد أراد غيـر هذا المعنى فـلا معنى إذن أن يأخذ الاعتراف منهم بأولوية نفسه عليهم من أنفسـهم .

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) خاطب النـاس في بدايـة كلامـه بقـوله : ألا تشهـدون أن لا إله إلّا الله وحـده لا شريك له؟ ألا تشهـدون أن محمداً رسول الله ؟ وأن الجنة والنار حق ؟

فهل المقصود من هذا السؤال إلا أن يضيف إلى تلك الأصول أصـلاً آخر مثلهن ؟ وهل له هدف آخر سوى أن يفهم الناس : أن الاعتراف بولاية علي (عليه السلام) وخلافته هو في عداد الأصول الثلاثة السابقة ! .

إن كان قصد الرسول (صلى الله عليـه وآله) من كلمـة « المولى » : المحب والناصر ، فإن ولاية علي (عليه السلام) بهذا المعنى كولاية سائـر المؤمنين من السنن الإسلامية ، بل هي منذ طلوع فجر الإسلام من ألف باء الأخوة الإسلامية ، ولم يكن باللزوم أن يعلن هذا الموضوع في هذا الاجتماع الكبير ، وذلك مع تقديم تلك المقدمات وضمن مقـال طويـل نسبياً ، ثم لا يبيّن ذلك إلا بعد أن يأخذ الإقرار من الناس بالأصول الثلاثة .

أضف إلى ذلك أن الرسول (صلى الله عليه وآله) قبل أن يذكر اسم علي (عليه السلام) في ذلك الحشد العظيم ، تكلم عن قرب أجله ، وأخبر عن قرب وداعه لهذه الحياة ، وبهذا الخبر كان الرسول (صلى الله عليه وآله) يحاول أن يملأ الفراغ الناتج من فقدان القائد في المجتمع الإسلامي بعده بالتعريف بعلي (عليه السلام) ، وإلّا فليس لولاية علي (عليه السلام) بمعنى مودّته أن تؤدي هذا الدور في المجتمع الإسلامي . وما هي الضرورة إلى أن يخطب الرسول (صلى الله عليه وآله) تلك الخطبة في ذلك الجوّ الحارّ في الجمع المحتشد من قافلة قوامها مئة ألف أو يزيدون ، ثم يعلن لهم مودّة علي (عليه السلام) ؟ أليس القرآن الكريم قد جعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض[1] وإخوة[2] .

إذن : فالكلام عن مودة علي (عليه السلام) فقط في ذلك الوضع ـ وبالنظر إلى تلك الحادثة المهمة ، والأهمية التي أولاها الرسول (صلى الله عليه وآله) وقدّم لها تلك المقدمات ـ ليس أمراً معقولاً .

ومن ناحية أخرى ، فقد جاء أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) بعد انتهاء خطبته إلى علي (عليه السلام) يهنئونه ويباركون له الولاية والإمرة على المؤمنين، واستمرت التبريكات حتى حين إقامته صلاة المغرب،وكان منهم أبو بكر وعمر وطلحة والزبير ، وكان عمر من أول من دخل عليه وخاطبه يقول : بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة[3] .

فأي منصب آخر حصل عليه علي (عليه السلام) سوى مقام الزعامة والقيادة يستحق التبريك ؟! أفهل كان لزوم مودّته ـ كأي مسلم آخر ـ خافياً على المسلمين حتى ذلك اليوم ؟! .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٧١ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ٤٣٨ ومستدرك الحاكم ٣ : ١١١ وكنز العمال ٦ : ٤٠٠ .

وكان شاعر النبي المعروف « حسان بن ثابت » حاضراً في القافلة الكبرى ، ولم يفهم من كلمة « المولى » سوى الإمامة والقيادة فقال في شعره :

هناك دعا : قم يا عليّ فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

وكذلك الشعراء ، والأدباء في القرون التالية لم يفهموا من كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله) سوى الإمامة والقيادة ، هذا وهم مهرة اللغة العربية .

إذن فنحن نقول : إن الإنسان إذا توّجه إلى كل مقال الرسول (صلى الله عليه وآله) هنا بذهنية منفتحة متحرّرة بعيدة عن التعصّب والأفكار المألوفة السابقة ، ودقّق النظر في القرائن والشواهد في كلامه ومقامه ، فهم من كلمة « المولى » التي استعملها الرسول لعلي (عليه السلام) معنى واحداً فقط ، وهو أنه أولى بالتصرّف ، وذلك يعني « الولاية المطلقة » .

ولقد اختار الرسول (صلى الله عليه وآله) في إحدى غزواته علياً (عليه السلام) للقيادة ، فشكاه إليه أربعة من أصحابه ، فالتفت إليهم رسول الله وهو مغضب وقال : ما لكم وعلي ؟ علي منّي وأنا من عليّ ، وهو وليّ كل مؤمن بعدي[1] .

* * *

وقد يتساءل البعض : لماذا لم يحتج علي (عليه السلام) بحديث الغدير ونصبه بأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) في مقام الخلافة بعده ، في يوم السقيفة ؟ ولم يقل للمهاجرين والأنصار : إني منصوب لذلك من قبل

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ٢٨١ والصواعق المحرقة لابن حجر : ٢٦ وتفسير الطبري ٣ : ٤٢٨ وسرّ العالمين للغزالي : ٩ وتفسير الفخر الرازي ٣ : ٦٣٦ وفرائد السمطين للحمويني الشافعي الباب ١٣ . والبداية والنهاية لابن كثير الشافعي ٥ : ٢٠٩ والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي : ٢٥ .

الرسول ، ولا يحق لأحد أن يعارضني في مسند الخلافة فيدّعيها لنفسه ! أفهل كان الألوف من شهود ذلك اليوم الموعود قد نسوه ؟ أو تناسوه ؟! .

ونقول في الجواب : لم يكن كذلك ، فإن الإمام (عليه السلام) كان يحتج بحديث الغدير لإثبات حقه بل تكليفه بالخلافة وللاعتراض على قرار السقيفة ، كلما رأى مناسبة لذلك ، وكتب المؤرخون يقولون : حينما كانت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) تخرج مع علي (عليه السلام) ليلاً إلى بيوت الأنصار تسألهم النصرة ، كانوا يقولون لها : يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، ولو أنّ زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به ! فيقول علي (عليه السلام) : أفكنت أدع رسول الله في بيته لم أدفنه ، وأخرج أنازع الناس سلطانه(1) .

وفي يوم الشورى ، حينما تظاهر عبد الرحمن بن عوف بميله لاختيار عثمان لمقام الخلافة ، قال (عليه السلام) : لأحتجنّ بما لا يستطيع عربيّكم ولا عجميّكم تغيير ذلك ، ثم قال : فأنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره ليبلّغ الشاهد الغائب ، غيري ؟ قالوا : لا(2) .

وإن شهادة ثلاثين رجلاً من الصحابة بحديث الغدير في رحبة المسجد الجامع بالكوفة ، من القضايا التاريخية المسلّم بها . فقد نقل المؤرخون : أن علياً (عليه السلام) خطب يوماً في رحبة المسجد الجامع بالكوفة في كثير من الناس فقال : أنشد الله كل امرىء مسلم سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول يوم غدير خم ما قال ، إلاّ قام فشهد بما سمع ، ولا يقم إلاّ من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه . فقام ثلاثون صحابياً فيهم اثنا عشر بدرياً

---

(1) الإمامة والسياسة : ١٢ ط مصر الحلبي . وابن أبي الحديد ٢ : ٥ .

(2) مناقب الخواندي : ٢١٧ .

فشهدوا : أنه أخذه بيده فقال للناس : أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : نعم ، قال : من كنت مولاه فهذا مولاه[1] .

إنّ اجتماع الناس في رحبة المسجد ، الجامع وشهادة ثلاثين رجلاً من الأصحاب بحديث الغدير على عهد علي (عليه السلام) بعد السنة الخامسة والثلاثين من الهجرة ، وقد تحققت حادثة الغدير في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة ، أي كان بين هذا اليوم ويوم الغدير خمسة وعشرون عاماً . فمع الالتفات إلى أن كثيراً من شيوخ الصحابة كانوا قد ماتوا في هذه المدة : ربع قرن من الزمان ؛ وقد استشهد كثير منهم في الحروب التي جرت على عهد الخلفاء السابقين ، وكثير منهم لم يكونوا حضوراً في الكوفة بل تفرقوا في سائر البلدان . . تتضح لنا أهمية هذه الشهادة التاريخية على حادثة الغدير . وقد أخرج هذه الشهادة الإمام أحمد بن حنبل في مسنده فقال : فقاموا إلّا ثلاثة لم يقوموا ، فأصابتهم دعوته[2] منهم أنس بن مالك ، فقال له علي (عليه السلام) : مالك لا تقوم مع أصحاب رسول الله فتشهد بما سمعت يومئذٍ منه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين كبرت سني ونسيت ! فقال علي : إن كنت كاذباً فضربك الله ببيضاء لا تواريها العمامة . فما قام حتى ابيضّ وجهه برصاً ! فكان بعد ذلك يقول : أصابتني دعوة العبد الصالح[3] .

وسمع هذا الحديث من زيد بن أرقم ، أبو الطفيل ـ الذي جعله عمر على أمر الشورى ـ فتعجّب من هذه الأمة إذ صرفت هذا الأمر عن علي (عليه السلام) مع ما ترويه عن نبيّها في حقّه يوم الغدير ، وكأنه شك في صحة ما ترويه في ذلك الأمر فقال لزيد حين سمع روايته منه : أسمعته من رسول الله ؟ كالمستغرب المتعجّب الحائر المرتاب ، فأجابه زيد بأنه لم يكن في الدوحات ـ في غدير خم ـ أحد على كثرة من كان يومئذٍ من الخلائق

---

(١) المراجعات : ١٩٤ ط دار الصادق بيروت .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ : ١١٩ .

(٣) المعارف لابن قتيبة : ١٩٤ في ذكر أهل العاهات .

هناك ، إلا من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه . فعلم أبو الطفيل حينئذٍ أن الأمر كما قال[1] .

وحسبك من هذا الحديث ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي الطفيل قال : جمع علي الناس في الرحبة ثم قال لهم : أشهد الله كل امرىء مسلم سمع رسول الله يقول يوم غدير خم ما سمع لمّا قام . فقام ثلاثون من الناس فشهدوا حين أخذه بيده فقال للناس: أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من كنت مولاه فهذا مولاه اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه . قال أبو الطفيل : فخرجت وكأن في نفسي شيئاً ! ، فلقيت زيد بن أرقم فقلت له : إني سمعت علياً يقول كذا وكذا ؟ قال زيد : فما تنكر ؟ قد سمعت رسول الله يقول ذلك له[2] .

إن احتجاج علي (عليه السلام) بحديث الغدير غير محصور في هذه الموارد المذكورة ، بل كان (عليه السلام) يكرر الاستدلال به على إمامته في حرب الجمل وصفين وفي الكوفة ، وفي مسجد النبيّ في حضور مئتين من كبار المهاجرين والأنصار[3] .

وعدا عن هذا ، فإن هناك عوامل مختلفة أدّت إلى أن لا يبدي علي (عليه السلام) بعد حوادث السقيفة ردّ فعل حادّ وشديد ، بل يسلك في ذلك سبيل الصبر الذي قال عنه : صبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا أرى تراثي نهباً[4] .

وهنا خير لنا لتبيّن الأمر أن نلقي نظرة على إجابة العلاّمة الفقيه شرف الدين على رسالة الشيخ سليم البشري المصري يقول :

---

(١) صحيح مسلم ٢ : ٣٢٥ . والخصائص للنسائي : ٢٣ ط الحيدرية . والمستدرك ٣ : ١٠٩ ثم قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين . وكنز العمال ١ : ٤٨ . والغدير ١ : ٣٠ وفيه تفصيل لمصادر الحديث .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ٣٧٠ .

(٣) فرائد السمطين للحمويني الشافعي : الباب ٥٨ .

(٤) نهج البلاغة ـ الخطبة الشقشقية .

« الناس كافة يعلمون : أن الإمام وسائر أوليائه من بني هاشم وغيرهم لم يشهدوا البيعة ولا دخلوا السقيفة يومئذٍ ، وكانوا في معزل عنها وعن كل ما كان فيها ، منصرفين بكلّهم إلى خطبهم الفادح بوفاة رسول الله ، وقيامهم بالواجب من تجهيزه (صلّى الله عليه وآله) ، لا يعنون بغير ذلك ، وما واروه في ضراحه الأقدس حتى أكمل أهل السقيفة أمرهم ، فأبرموا البيعة ، وأحكموا العقد ، وأجمعوا ـ أخذاً بالحزم ـ على منع كل قول أو فعل يوهن بيعتهم ، أو يخدش عقدهم ، أو يدخل التشويش والاضطراب على عامّتهم ، فأين كان الإمام عن السقيفة وعن بيعة الصديق ومبايعته ، ليحتج عليهم ؟ وأنّى يتسنّى الاحتجاج له أو لغيره بعد عقد البيعة وقد أخذ أولو الأمر والنهي بالحزم ، وأعلن أولو الحول والطول تلك الشدة ، وهل يتسنّى في عصرنا الحاضر لأحدٍ أن يقابل أهل السلطة بما يرفع سلطتهم ويلغي دولتهم ، وهل يتركونه وشأنه لو أراد ذلك ؟ هيهات ! هيهات ! فقس الماضي على الحاضر فالناس ناس والزمان زمان ! .

على أنّ علياً (عليه السلام) لم ير للاحتجاج عليهم يومئذٍ أثراً إلا الفتنة التي كان يؤثر ضياع حقه على حصولها في تلك الظروف ، إذ كان يخشى منها على بيضة الإسلام وكلمة التوحيد ، كما أوضحناه سابقاً حيث قلنا : إنه مُني في تلك الأيام بما لم يُمنَ به أحد ، إذ مَثُل على جناحيه . خطبان فادحان : الخلافة ـ بنصوصها ووصاياها إلى جانب ـ تستصرخه وتستفزّه بشكوى تدمي الفؤاد ، وحنين يفتّت الأكباد ؛ والفتن الطاغية ـ إلى جانب آخر ـ تنذره بانتقاض شبه الجزيرة ، وانقلاب العرب واجتياح الإسلام ، وتهدده بالمنافقين من أهل المدينة وقد مردوا على النفاق ، وبمن حولهم من الأعراب وهم منافقون بنصّ الكتاب ، بل هم **﴿ أشدّ كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾** وقد قويت شوكتهم بفقده (صلى الله عليه وآله) ، وأصبح المسلمون بعده كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية بين ذئاب عادية ووحوش ضارية : مسيلمة الكذاب ، وطليحة بن خويلد الأفّاك ، وسجاح بنت الحرث الدّجّالة ، وأصحابهم

الهمج الرّعاع قائمون في محق الإسلام وسحق المسلمين على ساق ، والرومان والأكاسرة والقياصرة وغيرهم كانوا للمسلمين بالمرصاد . إلى كثير من هذه العناصر الجيّاشة بكل حنق من محمد وآله وأصحابه ، وبكل حقد وحسيكة لكلمة الإسلام ، تريد أن تنقض أساسها وتستأصل شأفتها ، وإنها لنشيطة في ذلك مسرعة متعجلة ، ترى الأمر قد استتبّ لها ، والفرصة بذهاب النبي إلى الرفيق الأعلى قد حانت ، فأرادت أن تسخّر الفرصة ، وتنتهز تلك الفوضى قبل أن يعود الإسلام إلى قوة وانتظام . . فوقف علي (عليه السلام) بين هذين الخطرين ، فكان من الطبيعي له أن يقدم حقّه قرباناً للإسلام . لكنه أراد الاحتفاظ بحقّه في الخلافة والاحتجاج على من عدل عنه بها ، على وجه لا تُشَق بها للمسلمين عصا ولا تقع بينهم فتنة ينتهزها عدوّهم ، فقعد في بيته حتى أخرجوه كرهاً ، من دون قتال ، ولو أسرع إليهم ما تمّت الحجة له ، ولا سطع لشيعته برهان ، لكنه جمع فيما فعل بين حفظ الدين والاحتفاظ بحقه من خلافة المسلمين . وحين رأى أن حفظ الإسلام وَرَدَّ عادية أعدائه موقوفان ـ في تلك الأيام ـ على الموادعة والمسالمة ، شق بنفسه طريق الموادعة ، وآثر مسالمة القائمين في الأمر احتفاظاً بالأمة ، واحتياطاً على الملة ، وضناً بالدين وإيثاراً للآجلة على العاجلة ، وقياماً بالواجب شرعاً وعقلاً من تقديم الأهم ـ في مقام التعارض ـ على المهم ؛ فالظروف يومئذٍ لا تسع مقاومة بسيف ، ولا مقارعة بحجّة . ومع ذلك فإنه وبنيه ، والعلماء من مواليه ، كانوا يستعملون الحكمة في ذكر الوصية ونشر النصوص الجليّة ، كما لا يخفى على المتتبعين »[1] .

* * *

(١) المراجعة ١٠٢ من المراجعات لشرف الدين : ٣٠١ ـ ٣٠٣ ط الصادق بيروت .

تقييم الوصيّ في كلام النبيّ

إن إعـلان رسول الله (صلى الله عليـه وآله) لـزعامـة وخـلافـة علي (عليه السلام) بين الناس لم يكن في الغدير فقط، بل إنه اختاره لخلافته في السنة الثالثة من البعثة إذ أمر بإعلان الدعوة ، حيث لم يكن قد أعلن دعوته بعد البعثة إلى ثلاث سنين ، بل كان يدعو للإسلام سرّاً وخفيةً ، وفي السنة الثالثة للبعثة أمر أن ينذر عشيرته الأقربين بالإسلام[1] .

وإذ ذاك أمر علياً (عليه السلام) أن يـدعو أربعين رجـلاً من كبار بني هاشم وبني عبد المطلب وبني عبد مناف ، فاشترك في هذه الضيافة أربعون رجلاً من أقرباء الرسول (صلى الله عليه وآله) عتاةً طغاماً ! .

وفي اليوم الأول فُضّ المجلس بالكلام الفارغ لأبي لهب ، النـاشىء من نخوته وغضبه . وكذلك في اليوم الثاني وفي اليوم الثالث حيث تكررت الضيافة بأمر الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ، وبعد تناولهم للطعام ، حان موعد غذاء الروح ، فقام الرسول بين أقربائه وافتتح حـديثه بحمـد الله والثناء عليه ثم قال :

« يا بن عبد المطلب ؛ إني والله ما أعلم شـاباً في العـرب جاء قـومه

---

(١) ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ الشعراء : الآية ٢١٤ .

بأفضل ممّا جئتكم به ، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّ وخليفتي فيكم؟قال علي (عليه السلام): فأحجم القوم عنها جميعاً. وقلت ـ وإني لأحدثهم سنّاً وأرمصهم عيناً وأحمشهم ساقاً (كناية عن صغر سنّه) ـ : أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه . فأخذ برقبتي ثم قال : إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا . فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع »[1] .

إن هذه الحادثة من أوضح وأحرج فصول التاريخ ، لم يتردد في وقوعها وصحّتها أيّ واحد من المؤرخين ، وحتى أولئك المشككون لم يتمكنوا من أن يتنكّروا لهذه الحادثة التاريخية .

إن الرسول الذي يقول عنه القرآن الكريم : ﴿ **ما ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحي يوحى** ﴾[2] عيّن وبيّن أمر الزعامة وقيادة الأمة بعده لعلي (عليه السلام) منذ الأيام الأولى من حمله للرسالة .

إن حادثة هذا الحديث شاهد صدق على أن أمر الخلافة إنما يرتبط بالله ورسوله (صلى الله عليه وآله) ، وأن ليس للناس أن يحلّوا هذا المشكلة الخطيرة ذات المسؤولية الكبرى كيفما تشاء أهواؤهم . إن هذه المسألة على حدٍّ ، الأهمية بحيث تُعلن النبوّة والإمامة في يوم واحد وجلسة واحدة . بل إن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) كان يؤكّد في مختلف المناسبات على أن مسألة قيادة الأمة إنما هي لله تعالى ، وأن ليس له هو دور في اختيار هذا الأمر .

---

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣٢٠ ـ ٣٢١ ط دار المعارف وتفسيره ٢ : ٢١٦ والكمال لابن الأثير ٢ : ٢٢ . ومسند الإمام أحمد بن حنبل ١ : ١١١ و ٥٩ تاريخ أبي الفداء ١ : ١١٩ . وكفاية الطالب للكنجي الشافعي : ٨٩ والخصائص للنسائي : ٨٦ . وسيرة الحلبي ١ : ٢٠٤ وشرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٥٥ وجمع الجوامع للسيوطي ٦ : ٤٠٨ وشرح الشفاء للخفاجي ٣ : ٣٧ .

(٢) سورة النجم : الآيتان :٣ و ٤ .

شرط الأخنس بن شريق ـ أحد رؤساء القبائل ـ بيعته وتبعيته للرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) بأن يجعل زعامة أمته بعده للأخنس ، فأجابه الرسول يقول : إن هذا الأمر لله ، يختار الله له من يراه أهلاً لذلك[1] فيئس الأخنس وأرسل إلى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أنه لا يقبل أن يتحمل ما يتحمل من أمر الإسلام ثم يكون أمر الإمامة والقيادة لغيره ! .

وعلى هذا فهل لنا أن نقدّم مختار الناس على من اختاره الله ورسوله ؟ وهل يمكن أن نجعل من اختاره الله تحت رعاية غيره يطيع أوامره ويتّبعه ؟! بينما القرآن يقول : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾[2] .

* * *

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يبيّن للأمة المسلمة سمة القيادة والإمامة لعلي (عليه السلام) في حديث المنزلة ؛ وكانت حادثة صدور هذا الحديث : أن بلغ الرسول (صلى الله عليه وآله) أن عساكر الروم تتجهزّ للهجوم على مدينة الرسول ، ولهم الأمل الكبير أن تجلب هذه الحرب لهم نصراً مؤكداً سريعاً ، وأخذ الرسول (صلى الله عليه وآله) يفكّر في المقاومة ، واستطاع أن يجهزّ كثيراً من المسلمين بالأمر بالنفير العام لمقابلة العدو .

ومن جانب آخر بلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) : أن منافقي المدينة قد أعدّوا عدّتهم في سبيل تنفيذ مؤامرة خطرة بغية تغيير الوضع العام فيها مستغلين فرصة غيبة الرسول عنها . فنصب الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب (عليه السلام) لحراسة المدينة ، وأمره أن يبقى بها لحل مشاكل الناس والفصل في مسائلهم . فلما التفت المنافقون

---

(١) الطبري ٢ : ١٧٢ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

إلى أن سرّهم قد فشا وأن مؤامرتهم قد فشلت أخذوا يشيعون إشاعات باطلة عن علي (عليه السلام) ، لعلهم بذلك يضعفون من موقعيته ومقامه ، فأكّدوا على أن الرسول (صلى الله عليه وآله) أصبح لا يحب علياً (عليه السلام) ؛ ولذلك لم يأذن له أن يشارك في هذه الوقعة الكبرى إلى جانبه ! .

إن إشاعة هذه الأقاويل الباطلة آذت علياً (عليه السلام) كثيراً وأدخلت عليه الهمّ والغمّ ، فأسرع إلى الرسول خارج المدينة فأخبره بالخبر ، وهنا بيّن رسول الله (صلى الله عليه وآله) تلك الموقعية والمقام الخاص لعلي (عليه السلام) بجملة تاريخية قال فيها : « يا علي ! أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنه لا نبيّ بعدي ؟ »[1] وأضاف كثير من محققي ومحدّثي أهل السنة في كتبهم أنه أضاف يقول : « إنه لا ينبغي أن أذهب عنها إلا وأنت خليفتي فيها »[2] .

وسعد بن أبي وقاص الذي هو من أشد مخالفي علي (عليه السلام) يستند إلى هذا الحديث للإشارة إلى الموقعية الحساسّة والقيّمة للإمام (عليه السلام) :

روى عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : قال معاوية لسعد بن أبي وقاص : ما يمنعك أن تسبَّ ابن أبي طالب (أو أبا تراب) قال : لا أسبّه ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن يكون لي واحدة

---

(١) صحيح البخاري ٣ : ٥٨ وصحيح مسلم ٢ : ٣٢٣ وسنن ابن ماجة ١ : ٢٨ ومستدرك الحاكم ٣ : ١٩٠ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ١ : ٣٣١ والصواعق المحرقة : ٣٠ وكنز العمال ٦ : ١٥٢ وينابيع المودة : ٢٤٠ والخصائص للنسائي : ٧ وطبقات ابن سعد ٣ : ٣٤ .

(٢) مستدرك الحاكم ٣ : ٦٣ والخصائص للنسائي : ٦٣ وفرائد السمطين ١ : ٣٢٨ وتلخيص المستدرك للذهبي ٣ : ١٣٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ١ : ٣٣١ والمناقب للخوارزمي : ٧٢ وكفاية الطالب للكنجي الشافعي : ١١٦ وتاريخ ابن عساكر ١ : ٢٠٣ وانساب الأشراف للبلاذري ٢ : ١٠٦ ، وتاريخ ابن كثير ٧ : ٣٢٨ والإصابة لابن حجر العسقلاني ٢ : ٥٠٩ .

منهن أحبّ إليّ من حمر النعم ، لا أسبّه ما ذكرت حين نزل الوحي عليه ، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال : ربّ هؤلاء أهل بيتي وأهلي . ولا أسبّه ما ذكرت حين خلّفه في غزوة غزاها ، قال علي : خلّفتني مع الصبيان والنساء ؟ قال : أو لا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبوّة بعدي . ولا أسبّه ما ذكرت يوم خيبر حين قال رسول الله : لأعطيّن الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله ويفتح الله على يديه ، فتطاولنا ، فقال : أين علي ؟ فقالوا : هو أرمد ، قال : ادعوه ، فدعوه ، فبصق في عينيه ثم أعطاه الراية ففتح الله عليه . فوالله ما ذكرت معاوية بحرف حتى خرجت من المدينة[1] .

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أعلن في هذا الحديث أن الموقعية الخاصة لعلي (عليه السلام) بالنسبة إليه كموقعية هارون بالنسبة إلى موسى (عليه السلام) من حيث الشؤون والمناصب الاجتماعية ، وإنما استثنى مورداً واحداً هو أن هارون كان قد بلغ رتبة النبوّة ، بينما علي (عليه السلام) لا يبلغ مقام النبوّة ، وذلك لأن رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) هو خاتم الأنبياء . وحينما نلاحظ القرآن الكريم نرى أن الله تعالى قد استجاب لموسى أدعيته ، فجعل أخاه هارون وزيراً وناصراً ومعيناً وخليفة له بين قومه ، بل بلغ الله به مقام الرسالة أيضاً[2] .

وعلى هذا ، فبمقتضى حديث المنزلة اختصّت كل هذه المناصب بعلي (عليه السلام) باستثناء النبوّة . وهنا من يقول : إن خلافة علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) هي خلافته عنه في الأيام

---

(١) الخصائص للنسائي : ٨١ ، ٨٢ ط الحيدرية . والمستدرك ٣ : ١٠٨ . كنز العمال ٦ : ٤٠٥ والغدير ٣ : ٢٠٠ وفيه ذكر مصادر الحديث وطرقه وأسانيده ومن المصادر : صحيح مسلم ٧ : ١٢٠ وفي كنز العمال أيضاً بألفاظ قريبة ١٣ : ١٣٦ . وسنن ابن ماجة ١ : ٥٨ وينابيع المودة للقندوزي الحنفي الباب ٦ : ٥١ . وتاريخ ابن عساكر ١ : ٣٣٤ وتاريخ ابن كثير ٧ : : ٣٤١ .

(٢) سورة طه : الآيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

التي كان (صلى الله عليه وآله) يخرج فيها من المدينة ، وعلى هذا فلا يمكن القول بخلافته بعده ! .

نقول : هذه حقيقة واضحة : إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان كلما ترك المدينة عاصمة الإسلام يومئذٍ كان يختار رجلاً من أصحابه لخلافته ، فلو كان نظر الرسول (صلى الله عليه وآله) في تشبيهه علياً (عليه السلام) بهارون هو الخلافة في تلك الأيام على المدينة فلماذا لم يأت بهذا التشبيه لسائر خلفائه العاديّين ؟ ولم يقدّر خدماتهم بهذه الجملة وما يُشبهها ؟! .

إن التاريخ لا يذكر أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) قد أجرى هكذا عبارة على لسانه الشريف إلاّ لعليّ (عليه السلام) . إنّه إن كان غرض الرسول خلافته الموقتة لتلك الأيام المعدودة فإن استثناء النبوّة من شؤون الخلافة يكون لغواً بلا ثمرة ، فإنه يكون معنى كلامه هكذا : يا علي كن خليفتي حتى أرجع ، ولكن لا تكون بعدي نبيّاً ! بل لا يصحّ الاستثناء إلاّ إذا دامت المقامات الهارونية لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) حتى بعد حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) . أضف إلى ذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يذكر هذه الجملة عند نصب علي (عليه السلام) خليفة في المدينة فقط ، بل قد كرّرها بشأن علي (عليه السلام) في موارد أخرى أيضاً شهد التاريخ بها : منها :

إن الرسول (صلى الله عليه وآله) لما عقد بين كل اثنين من المسلمين عقد الأخوّة في الأيام الأولى للهجرة ، أسرع علي (عليه السلام) إليه وهو يحمل حزناً وألماً وقال : آخيت بين المسلمين ولم تؤاخ بيني وبين أحد من أصحابك ؟ فقال (صلى الله عليه وآله) : « والذي بعثني بالحق إنّما أخرتك لنفسي ، أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي »[1] .

---

(١) كنز العمال بهامش مسند الإمام أحمد ٥ : ٣١ .

وذات يوم كان علي (عليه السلام) وأبو بكر وأبو عبيدة بمحضر رسول الله (صلى الله عليه وآله) فجعل الرسول يده على منكب علي (عليه السلام) وقال : « أنت أول من آمن بي ، أنت منّي بمنزلة هارون من موسى »[1] .

ورأى عمر بن الخطاب رجلاً يشتم علياً (عليه السلام) فقال له : إنك منافق فإني سمعت رسول الله يقول : إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي[2] .

والذي يستفاد من هذا الحديث أنه يدل على أن الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يقصد من المنزلة الخلافة المؤقتة وذلك لمكان أداة الحصر « إنّما » فقد كان هناك رجال آخرون نابوا عن النبيّ في المدينة ، وتحدّث عمر بهذا الحديث يبيّن أنه كان قد استفاد من الحديث معنى مساواة علي (عليه السلام) لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في جميع الجهات المعنوية ، ولذلك يحكم على من شتمه بالنفاق الذي هو أشد من الكفر الصريح ، فإن المؤمن مهما كان عظيم الرتبة في الإيمان لا يوجب سبّه كفراً ولا نفاقاً ، وقد كان كثير من الصحابة يسبّ بعضهم بعضاً ، ولم يتلق أحد من الفقهاء وأصحاب الكلام مشادّتهم في كلامهم فيما بينهم موجباً لكفرهم أو نفاقهم . ولكنّ الإهانة إلى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) موجبة للكفر ، وعلى هذا فقد استفاد عمر بن الخطاب من كلام النبيّ (صلى الله عليه وآله) أن علياً (عليه السلام) برتبة النبيّ فيما سوى النبوّة فقط .

* * *

إن رسول الله كان يدعو علياً (عليه السلام) أخاه في مواقع مختلفة :

فقد جاء في سيرة ابن هشام عن ابن إسحق قال : « وآخى رسول

---

(١) كنز العمال ٦ : ٣٩٥ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٧ : ٤٥٣ وتاريخ ابن عساكر ١ : ٣٦٠ ، ٣٦١ .

الله(صلى الله عليه [وآله] وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال : « تآخوا في الله أخوين أخوين » ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : « هذا أخي » فكان رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم سيّد المرسلين وإمام المتقين ورسول ربّ العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد وعليّ بن أبي طالب : أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين . وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيّار في الجنة ـ وكان غائباً بأرض الحبشة ـ ومعاذ بن جبل أخوين . وكان أبو بكر بن أبي قحافة وخارجة بن زهير الخزرجي أخوين . وعمر بن الخطّاب وعُتبان بن مالك الخزرجي أخوين . وعثمان بن عفّان وأوس بن ثابت من بني النجّار أخوين . وأبو عبيدة بن الجرّاح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين »[1] .

وروى ابن سعد في (الطبقات) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لعلي (عليه السلام) يوماً في أمر بين علي وأخيه جعفر وزيد بن حارثة : « أمّا أنت يا علي فإنك أخي ومعي »[2] .

وروى ابن عبد البر في «الاستيعاب » أنه (صلى الله عليه وآله وسلم)قال له : « يا علي أنت أخي وصاحبي في الجنة »[3] .

فلننظر الآن : ما هو المتوخى من هذه الأخوّة ؟ .

إن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)بعد هجرته إلى المدينة المنورة أسس هذه الأخوة الخاصة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ١٥٠ ـ ١٥١ ط الحلبي . والسيرة الحلبية ٢ : ٩٧ .

(٢)طبقات ابن سعد ٨ : ١١٤ .

(٣)الاستيعاب٢ : ٤٦٠والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٢ :٢٦٨وفضائل الخمسة١ :١١٤ .

إلغاءً وإبطالاً لكل المزايا والخصائص القبلية والعشائرية والقومية المخالفة لروح العدالة الإسلامية المستنة بالعدالة الإلهية .

كان (صلى الله عليه وآله وسلم)يريد أن ينقل الإخاء الشامل بين أبناء الأمة المسلمة من مجرد فكرة إلى الصورة العينية المحسوسة والملموسة، فكان أن بدأ الأخوان المسلمان أخوّتهما الخاصة تلك، لتتفتح هذه الأخوة الإسلامية الجديدة على أساس مستوى الإيمان باللهوالتقرب إليه ،عوضا عن القرابة والرحم المقطوعة . وهكذا جعلت الأخوة المعنوية والروحية إلى جانب القرابة النسَبية ، بل إن صلة هذه الأخوة بين اثنين من قبيلتين ومدينتين أدت إلى صلة الأخ المهاجر بقرابة الأخ الأنصاري ، وهذه العلاقات الروحية أعقبت علاقة ودية وعاطفية شاملة بينهم .

إلا أن الإخاء بين النبي الأكرم وعلي (عليهما السلام) فقد أسسه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل الهجرة بعشرة أعوام أي في بدء بعثته بالنبوة ، وذلك في تلك الجلسة الخاصة التي عقدها في منزله وقد جمع عشيرته الأقربين واستعان بهم لدعوة الإيمان .

فلا ريب في أن الهدف في عقد هذه الأخوة لم يكن من نوع تلك الأخوة التي كان ينظر النبي فيها إلى التقريب بين جماعتي المهاجري والأنصاري من المدينتين مكة والمدينة ، إذ لا معنى لهذا التقريب بين محمد وعلي (عليهما السلام) ، بل لم يكن بينهما أي فصل في يوم من الأيام ليوصل بعقد الأخوة بينهما ، فإنهما كان ابني عم قريبين وذوي علائق ودية قوية فيما بينهما .

إذن نقول : إن الباعث على هذه الأخوة لم يكن سوى ذلك التجانس الروحي والفكري والباطني بينهما ؛ إذ كان علي (عليه السلام) وحده أشبه الناس خصالاً وعلماً ومعرفة وإخلاصً ومعنوية وبصيرة بباني الإسلام العظيم ! ولهذا فإن لأخوة النبي لعلي (عليهما السلام) أهميتها ومعناها

الخاص . وكما قرأنا في الحديث فإن عقد هذه الأخوة لم يكن لهذه الحياة فحسب بل هي باقية دائمة مستمرة ثابتة حتى في عرصات القيامة والحياة الآخرة ، كما رواه الحاكم في (المستدرك) بطريقين صحيحين أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقول لعلي (عليه السلام) : « أنت أخي في الدنيا والآخرة »[1] .

وإن حديث السفينة من الأحاديث الشهيرة والمتواترة المنقولة في كتب مشاهير أهل السنة عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهو يثبت لياقة وأهلية أهل بيت الرسول لزعامة الإسلام وقيادة المسلمين .

رووا عن أبي ذر الغفاري : أن الرسول (صلى الله عليه وآله) قال :

« مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى »[2] .

في هذا الحديث يرسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) موقعية عترته والدور الأساسي لأهل بيته في إرشاد الخلق وتوجيههم للأمة الإسلامية ، ويشير إلى المغبة الخطرة لابتعادهم عن هذه الشخصيات الإلهية والمنقذة ، بأن من ابتعد عنهم التهمه الضلال والظلام .

إن النظر في تشبيههم بسفينة نوح يتجه إلى أن من استلهمهم في وظائفه الدينية ومسؤولياته الرسالية والتزم العمل بأوامرهم ، فقد ضمن لنفسه العتق من العذاب المهول ليوم القيامة ، ومن تمرد عليهم وعصاهم وابتعد عن محورهم فهو بمثابة من التجأ يوم طوفان نوح حينما أحسّ بالخطر إلى سفح الجبل ليعصمه من الماء ، بفارق أن ذاك قد غرق وهلك في الماء ، وهذا يغرق في عذاب جهنم الأليم ، هلاكاً أبدياً خالداً ! .

---

(1) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ٣ : ١٤، وصحيح الترمذي ٥ .

(2) كنز العمال ١ : ٢٥ والصواعق المحرقة لابن حجر : ٧٥ . ومستدرك الحاكم ٣ : ٣٤٢ وينابيع المودة : ٢٥٧ والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي : ١٠ وإسعاف الراغبين : ١١ ونور الأبصار : ١١٤ .

أضف الى ذلك أننا بالاستناد إلى هـذا الحديث يمكننـا أن نستفيد ، حدود ومستوى حصانة وطهارة وعصمة أهل هذا البيت، فإن من كان بمعرض الذنوب والأخطاء والزلات والانحراف عن الخط الذي بدأه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلن يتمكن من أن ينجي الأخرين من السقوط في ورطة الضلالة والشقاء والتعاسة الأبدية ، أو أن يوجد تحولاً جذرياً وأساسياً فكـرياً وروحيـاً واجتماعيـاً في المسلمين ، يستطيـع المسلم في ظله أن يصل إلى سعادته الأبدية .

وهنا نقول : لو كانت الشيعة في اتّباعها لأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) اتخذت سبيلاً غير سبيل وصايا الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) لانتقدوهم وخطّأوا خطهم وحركتهم ، وإلا فلا .

أيها القارىء العزيز : إن الخليفة الأول حينما استخلف الخليفة الثاني ونصبه لخلافتـه ماذا قـال ؟ أفهل قـال أكثر من جملة واحـدة أثبت بها مقـام الخلافة وزعامة المسلمين التي كانت للخليفة الأول، للثاني؟ فلماذا كل هذه العبارات المختلفة والكـلام الصريـح للرسول (صلى الله عليـه وآله وسلم) بشأن علي (عليه السلام) لا تثبت إمامته وقيادته؟ بينما نرى أن كلام الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنطق وأصرح وأوضح من كلمة الخليفة الأول للثاني ، أفهل كل هذه الروايات للتعبيرات المختلفة للرسـول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تثبت مقام الزعامة الدينية لعلي (عليه السلام) على الأقل ؟ ليقض العقلاء المنصفون .

* * *

العلاقة بين القرآن وعترة الرسول

إن (حديث الثقلين) من أكثر الأحاديث التي نقلها علماء الإسلام عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وأثبتوها في المصادر الأولى لحديث أهل السنة ، ومن أكثرها اعتباراً وأقواها إسناداً ، بحيث بالإمكان القول : بأنه من أعلاها درجة في التواتر والاعتبار ، وهو هكذا :

« إني مخلف فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً »[1] .

ونقل بعض علماء أهل السنة : أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أضاف في آخر الحديث يقول :

« إن علياً مع القرآن ، والقرآن مع علي ، لن يفترقا »[2] .

---

(١) صحيح مسلم ٧ : ١٢٢ وصحيح الترمذي ٢ : ٣٠٨ ومستدرك الحاكم ٣ : ١٠٩ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣ : ١٤و١٧ . والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي : ٢٤ . وكفاية الطالب للكنجي الشافعي : ١٣٠ وينابيع المودة للحنفي البلخي الباب ٤ : ١٧و١٨ وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٩٢ وتفسير الفخر الرازي ٣ : ١٨ وتفسير النيسابوري ١ : ٣٤٩ .

(٢) ينابيع المودة : ٣٢ و٤٠ . والصواعق المحرقة لابن حجر الباب ٩ : ٥٧. وكشف الغمة ١ :٤٢ .

وقد نسب علماء الإسلام رواية هذا الحديث إلى زهاء ثلاثين رجلاً من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)[1] .

وكما كتب المحدثون والمؤرخون من الشيعة والسنة : أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) كان في مختلف الأوقات وحتى في اللحظات الحساسة الأخيرة من عمره الشريف يجذب انتباه الناس إلى تلك العلاقة العميقة بين هذين المرجعين ذوي الأهمية القصوى في الإسلام أي القرآن الكريم وعترته (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكان بهذه الجملة الثرية بالمعاني قد لخص برنامج العمل لمستقبل المسلمين . لذلك، وحسب اختلاف الموارد نرى في شكل الحديث اختلافاً من حيث الإجمال والتفصيل ، ولكنها من حيث المحتوى كلها تبيّن لنا مفهوماً واحداً ، أي ترينا تلك العلاقة العميقة والأكيدة ، والوطيدة والتليدة ، بين القرآن الكريم وأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) وتؤكد الالتحام الكامل بينهما .

كتب ابن حجر من علماء السنة يقول :

مر في الشبهة الحادية عشرة عدة طرق لهذا الحديث ، جاء في بعضها أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قاله في حجة الوداع في عرفة ، وفي طرق أخرى في غدير خم ، وفي بعضها : أنه قاله في المدينة في مرضه إذ كانت حجرته مملوءة من صحابته ، وفي طريق آخر أنه قاله في رجوعه من الطائف .

ثم أضاف يقول : ولا منافاة بينها ، فلا مانع من أن يكون قد كرر هذه الحقيقة في جميع هذه الموارد وموارد أخرى ؛ وذلك لما للقرآن الكريم وعترته الطاهرة من أهمية[2] .

---

(١) سيرة الحلبي ٣ : ٣٠٨ .

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر الأول الباب ١١ : ٨٩ .

وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في رواية أخرى : « علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار »[1] .

ونحن نعلم أن آيات القرآن الكريم هي مجموعة الأوامر والقوانين الإسلامية، والعمل بتعاليمه يتضمن سعادة ونجاة بني الإنسان؛ إلا أن الذي يجب أن يتعهد بتفسيره وتأويله هو من يكون عارفاً بلسان الوحي محرزا للصلاحية العلمية والعملية من جميع الجهات . لذلك يعتقد الشيعة أنه يجب أن يصدر التعريف بذوي الصلاحية لتفسير الكتاب السماوي من قبل رسول الإسلام، وأن يؤكد رسول الإسلام عليهم ويعيّنهم لهداية الناس وإرشادهم ، وهؤلاء هم الذين يفهمون لسان الوحي ويتمكنون من تفسير الآيات الإلهية بأحسن وجه ممكن . إذن فتثنية العترة إلى جانب القرآن الكريم إنما هي بلحاظ حاجة هذا الكتاب السماوي للتفسير وتشريح أهدافه وأحكامه .

إن مضمون هذا الحديث يؤدّي بنا إلى أن التفكيك بين القرآن والعترة، والعمل بقول من لم يتعرف على حقائق القرآن الكريم لا يثمر إلا الضلال والضياع . حقاً ما معنى قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً» ومن الذي له أن يرد متشابهات القرآن إلى محكماته ؟

إن ما فعله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في جعله كلّاً من القرآن والعترة بعضهما إلى جانب البعض الآخر وديعتين خطيرتين ، يعني أن مسيرهما إلى هدف واحد، فأحدهما كلام الله والدستور السماوي ، والآخر منفذه ومفسره وحاميه ، ولذلك كان الانحراف والابتعاد عن العترة مؤدياً إلى الهلاك .

إن انحراف المسلمين ـ ومنه انحطاطهم ـ بدأ من الفصل بين هذين

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١ : ٦٨ وفرائد السمطين للحمويني الشافعي الباب ٧ : ٣٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤ : ٢١ وتفسير الفخر الرازي ١ : ١١١ وجاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي .

الثقلين والتفكيك في التمسك بهما ، ومنذ أن استولت أطروحة « كفانا كتاب الله » على الفكر والرؤية الدينية للناس ، ومنذ أن قامت مدارس الأشعريين والمعتزلة وكأنهم أعرف بكتاب الله من رسوله وأكثر إدراكاً لمعناه ! .

إن فهم القرآن وبيان معارفه إنما يتيسر ببيان أصحاب العلم اللدنّي الإفاضي ، والذين نبعت معارفهم من تعليم إلهي خاص ، وهو ما لا نجده إلا في الأئمة المعصومين (عليهم السلام) .

وقد نقل ابن حجر العالم السني الشهير في كتابه (الصواعق المحرقة) كلاماً عن الرسول يقول :

« لا تتقدموها فتهلكوا ، ولا تتأخروا عنهما فتهلكوا ، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم »[1] .

وقال علي (عليه السلام) :

« هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حِكَم منطقهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه وانقطع لسانه عن منبته . عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية . فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل »[2] .

إن مضمون الحديث يؤدي إلى أن آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) معصومون من المعاصي والآثام والزلات والخطايا ، فإن من يكون مع القرآن الكريم ، ويكون الناس مكلفين بالتمسك بهما إلى يوم القيامة ومواجهة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في عرصاتها، وأن يكونوا في التزامهم بخط الإسلام ملتزمين بهما لا يتركونهما ، لا بد أن يكون قرين

(١) الصواعق المحرقة المحرقة لابن حجر باب وصية النبي بهم :١٥٣ .
(٢) نهج البلاغة ٣٥٧، ٣٥٨ـ الصالح .

القرآن معصوماً من الانحراف والزلات والخطايا ، كما أن القرآن محفوظ عن الخطأ والتحريف ؛ فإن الله لا يأمر الناس بطاعة المتلوث بالأثام ، ولا يحكي رسوله عن علاقة بينهما غير قابلة للانفكاك ، بل إنما يلازم القرآن من كان مبرأ من الرجس والآثام ، فالذين فرض الله على المسلمين اتباع كلامهم وأمرهم لا ينبغي أن يتطرّق إلى ساحتهم نقص في طاعتهم لربهم ، أو عيب من ذنب .

ولم يكتف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بسائر كلماته فيهم ، حتى صرح بعدد خلفائه بعده فقال :

« إن خلفائي على عدد نقباء بني إسرائيل اثنا عشر ، كلهم من قريش - وفي رواية - كلهم من بني هاشم »[1] ولا ينطبق هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر على غير الأئمة الطاهرين من أهل بيته وعترته . فالخلفاء الراشدون لم يكونوا اثني عشر ، وليس بالإمكان أن نطبق الخبر على خلفاء بني أمية وبني العباس فإنهم - بالإضافة إلى عدم انطباق عددهم على العدد في الحديث - قد ارتكبوا من الفظائع في حكومتهم ما سبب للدين الخراب والدمار ، بدل أن يكونوا مصلحين وسبباً في سعادة الأمة الإسلامية ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء خلفاء للرسول .

لكن الذين لم يجدوا بداً من الاعتراف بصدور الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد أراد لهم شيطانهم أن يعرضوا عن الأئمة الاثني عشر ، اضطروا إلى تأويل الحديث تأويلاً ينسجم مع مضمونه ونصه ، إذ إن الخلفاء بعد النبي من الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين يبلغ عددهم إلى أكثر من ثلاثين رجلاً ، فالمدّعون للخلافة من القرشيين يتجاوز عددهم من حيث التاريخ العدد المذكور في الحديث ، وعلى هذا فإن نحن

---

(١) صحيح مسلم ٦ : ٢ صحيح البخاري كتاب الأحكام الباب ١٠٥ . مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ : ٢٠٣٩٧ ، ٨٦ .

أعرضنا عن التفسير المنطبق على أئمة الشيعة فلا يبقى لنا من هذا الحديث معنى واضح .

وكتب من علماء السنّة الشيخ سليمان القندوزي الحنفي بنظرة بعيدة عن التعصب الأعمى، يقول : « قال بعض المحققين : إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) اثنا (اثني) عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة ، فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان أعلم أن مراد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من حديثه هذا : الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته ؛ إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه ؛ لقلتهم عن اثنا (اثني) عشر . ولا يمكن أن يحمل على الملوك الأموية لزيادتهم على اثنا (اثني) عشر ولظلمهم الفاحش ، إلاّ عمر بن عبد العزيز ، ولكونهم غير بني هاشم ، لأن النبي (صلى الله عليه وآله) قال : كلهم من بني هاشم في رواية عبد الملك عن جابر وإخفاء صوته (صلى الله عليه وآله) في هذا القول يرجح هذه الرواية ، لأنهم لا يحسّنون خلافة بني هاشم ، ولا يمكن أن يحمل على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور ولقلّة رعايتهم الآية : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى ﴾[1] وحديث الكساء ؛ فلا بد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثنا (الاثني) عشر من أهل بيته وعترته (صلى الله عليه وآله) لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلّهم ، وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً ، وأكرمهم عند الله ، وكان علومهم عن آبائهم متصلاً بجدّهم (صلى الله عليه وآله) وبالوراثة واللدنيّة . كذا عرّفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق . ويؤيّد هذا المعنى ـ أن مراد النبي (صلى الله عليه وآله) : الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته . ويشهد به ويرجحه حديث الثقلين ، والأحاديث المتكررة المذكورة في هذا الكتاب وغيره . وأما قوله (صلى الله عليه وآله) كلهم تجتمع عليه الأمة ـ في رواية جابر بن سمرة ـ فمراده (صلى

---

(١) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

الله عليه [وآله] وسلم) : أن الأمـة تجتمع على الإقـرار بالأئمـة كلهم وقت ظهور قائمهم المهدي »[1] .

(١) ينابيع المودة : ٤٤٦ ط بصيرتي .

الموقف اللامسؤول لأصحاب الرسول

وهنا سؤال يطرح نفسه هو أنه : مع أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد أعلن وصاية وخلافة علي (عليه السلام) وأكد على زعامته بعده، سواء في يوم الغدير أو كل موطن وموقف وقف فيه الرسول قبله وبعده، فماذا حدث بعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى أعرض أصحابه وأنصاره عن هذا الأمر الإلهي ؟ وعن طاعة علي (عليه السلام) تلك الشخصية القيمة ؟ واختاروا غيره لعنوان ولاية الأمة الإسلامية وتركوا زمام أمورهم بيده وأطاعوا أمره ؟ ! .

أفهل كان في كلام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إبهام عام ؟ أم لم تكن كل تلك الأنواع المختلفة من التعبيرات تكفي لإثبات فضله وموقعيته الدينية وتعريفه لهم لمقام الإمامة والقيادة ؟ ! .

وبالإمكان أن نجد جواب هذا السؤال بالمراجعة إلى تاريخ الإسلام وملاحظة حوادث عصر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم). فنحن نرى أنه كان يوجد بين الأصحاب عناصر كانت إذا لم تتفق أوامره (صلى الله عليه وآله وسلم) مع ميولهم ومشتهياتهم كانوا يضغطون عليه لصرفه عن أمره ، ولكي يمنعوه عن تنفيذ برامجه بأي طريق ممكن ، وإذا ما يئسوا من الوصول إلى مقاصدهم ، كانوا يسمحون لأنفسهم أن يعترضوا عليه . والقرآن الكريم

يذكّر هؤلاء أن لا يخالفوا أوامر رسول الإسلام حيث يقول : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾[1] .

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما كان يجهز الجيش لحرب الروم في أواخر أيام حياته المباركة ، واختار أسامة بن زيد بن حارثة الشيباني لقيادة الجيش ، ثقل نصب هذا الشاب لمقام القيادة على جماعة منهم مع وجود شخصيات من ذوي سابقة في السن والإسلام، وبلغ الأمر بهم إلى أن وقعت بينهم مشاجرة لفظية في ذلك ، والمتشددون في مخالفتهم للأمر طلبوا من رسول الله عزله عن ذلك ، لكنه لم يلتفت إلى طلبهم هذا . ومع كل التأكيد الذي كان يؤكده لخروج الجيش ، وأمره أبا بكر وعمر بالالتحاق بالمجاهدين ، مع ذلك خالف هؤلاء هذا الأمر الصريح للرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) وامتنعوا عن الذهاب إلى جبهة القتال بل تخلفوا عن العسكر ورجعوا إلى المدينة بحجة أنهم لا يستطيعون فراق الرسول وهو بهذا الحال[2] .

وإن الكلام الموهن لبعض الصحابة آذى رسول الله بشدة ، فخرج من بيته إلى الناس معصب الرأس مدثراً بقطيفته محموماً ألماً ، وكان ذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول قبل وفاته بيومين ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ، ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ، وايم الله إن كان لخليقاً بالإمارة وإن ابنه من بعده لخليق بها »[3] .

---

(١) سورة النور : الآية ٦٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٣٣٨ وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٩٢ والكامل ٢ : ٦٢١ .

(٣) راجع ما شئت من الكتب المشتملة على أخبار هذه السرية :
الطبقات لابن سعد وتاريخ الطبري وابن الأثير والسيرة الحلبية والسيرة الدحلانية وراجع المراجعة (٩٠) من المراجعات للإمام شرف الدين ٢٨٤ ط دار الصادق .

كان سعي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في أواخر لحظات حياته في أن يخلي المدينة من رؤوس الأنصار والمهاجرين ، ولهذا جهز جيش أسامة وأصدر النفير للجهاد وأمرهم أن يتحركوا إلى جهة حدود بلاد الشام . إن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد بإصرار من رؤوس صحابته أن ينضووا تحت راية قيادة أسامة فيخرجوا من مركز إمارة الإسلام ويلتحقوا بصفوف المجاهدين ، وإنما استأثر لنفسه في هذه الموقعية الحساسة علياً (عليه السلام) . إن هذا الإقدام من نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) في الدقائق الأخيرة من حياته لعجيب حقاً ، ومليء بالمعاني ، ولكنهم لم يفعلوا ما أراد منهم ، بل تخلّفوا عن أمره وعن جيش أسامة ! .

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يجعل في جميع حياته أحداً قائداً على علي (عليه السلام) ، بل كان هو في جميع الموارد حامل الراية واللواء أو أمير العسكر، بينما كان هنا أبو بكر وعمر من جنود جيش أسامة ، كما كانا في غزوة ذات السلاسل من جنود عمرو بن العاص ! أما علي بن أبي طالب (عليه السلام) فإنه منذ بعثة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى وفاته لم يكن تابعاً لأحد إلا شخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذه نقطة لها معناها .

* * *

إن التاريخ لن ينسى أبداً أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما كان في فراش المرض ،وهو يحس أن أواصر حياته الشريفة في انقطاع، طرح لتنفيذ برنامجه الأطروحة الأخيرة: وصمّم على أن يعمل بهذا الطرح فوراً ولذلك قال: « إيتوني باللوح والدواة أو: بالكتف والدواة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده»[1]. وكما كان قد وضح وظيفة الأمة في أمر الإمامة في خطاباته وكلماته المكررة سابقاً كان لآخر مرة يريد أن يدع في أيدي

(١) طبقات ابن سعد ٢ : ٢٤٢ ومسند أحمد بن حنبل ١ : ٣٤٦ وصحيح مسلم ٥ : ٧٦ وتاريخ الطبري ٣ : ١٩٣ ط دار المعارف واللفظ للطبري

المسلمين بعده سنداً مكتوباً ونصاً صريحاً محكماً في أمر وصفه القرآن بأنه من كمال الدين ، ولكي يسدّ بذلك الطريق على أي انحراف عن أوامره بذلك الصدد في المستقبل. ولكن الذين كانوا قد امتنعوا عن الذهاب لجبهة القتال خلافاً لأمره ، كانوا يراقبون الأمر لينفذوا مخطّطاتهم في أول فرصة ممكنة ؛ ولذلك لم يتركوا المسلمين يأتون للرسول (صلى الله عليه وآله) بالدواة والكتف[1] .

وروى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : يوم الخميس وما يوم الخميس ! قال ابن جبير : ثم نظرت إلى دموعه تسيل على خديه كأنها نظام اللؤلؤ ؛ وقال : قال رسول الله : ائتوني باللوح والدواة ـ أو الكتف والدواة ـ أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده . قال ابن عباس : فقالوا : إن رسول الله يهجر[2] .

وفي المناظرة التي جرت بين ابن عباس والخليفة الثاني في مسألة الخلافة قال الخليفة : إن رسول الله أراد أن يذكر علياً لكني لم أتركه يذكره[3] وذلك أنه عندما طلب الرسول الدواة والكتف قال : إن الرجل يهجر .

لقد أثبت هذه الجملة كثير من المحدثين والمؤرخين من أهل السنة ، بيد أن بعضهم حاول أن يصحح حديث الخليفة أو يقلل من غلوائه وثقله فكتب الجملة هكذا : إنه قد غلبه الوجع ، بيننا كتاب الله ، كفانا كتاب الله[4] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ : ٢٤٢ ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٣ : ٣٤٦ وصحيح البخاري ١ : ٢٢ وصحيح مسلم ٥ : ٧٦ .

(٢) صحيح البخاري ١ : ٢٢ وصحيح مسلم ٥ : ٧٦ والطبري ٣ : ١٩٣ وتاريخ ابن كثير ٥ : ٢٢٨ . وتاريخ الذهبي ١ : ٣١١ . وتاريخ الخميس ١ : ١٨٢ . والبدء والتاريخ ٥ : ٩٥ وتيسير الوصول ٤ : ١٩٤ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٩٧ .

(٤) صحيح البخاري ٤ : ٥ . وصحيح مسلم ٣ : ١٢٥٩ كتاب الوصية . وقريب منه لفظ ابن سعد في الطبقات ٢ : ٢٤٤ . ومسند الإمام أحمد بن حنبل الحديث : ٢٩٩٢ .

كأن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) لم يكن مطّلعاً على موقعيّة كتاب الله ، وأصحابه كانوا أكثر منه علماً بذلك . إن كان الرسول (صلى الله عليه وآله) لتثبيت مقام إمام الأمة بعده أراد أن يكتب له سنداً مكتوباً أفهل لنا أن نتهمه باختلال الفكر ؟! إن كان لنا أن ننسب تصميم الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى نقص في الإدراك ناشىء من شدّة وطأة المرض والألم فلماذا لا نتّهم الخليفة الأول أبا بكر في كتابته العهد لعمر في أواخر لحظات حياته باختلال الفكر ، وهو مريض في فراش الموت أيضاً . ولماذا لم يكرر عمر ما قاله بشأن رسول الله بشأن أبي بكر ؟ في حين أنه كان حاضراً عند أبي بكر ويعلم أن الخليفة الأول يريد أن يكتب له عهداً لتعيينه للزعامة ، ويريد أن يوقع على سند خلافة عمر من بعده ؟ .

وإن كان عمر يرى أن كتاب الله كاف لحل المشاكل ، فلماذا أسرع هو وأبو بكر بعد وفاة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى سقيفة بني ساعدة ليحلوا مشكلة خلافته بأفكارهم هناك ؟ ولماذا لم يتمسكوا في هذا الموضوع المهم بكتاب الله بل لم يذكروه ، في حين أن القرآن الكريم كان قد عين التكليف فيه[1] .

بل روى الطبري بسنده عن قيس قال : رأيت عمر بن الخطاب وهو يجلس والناس معه وبيده جريدة وهو يقول : أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله . إنه يقول : إني لم آلكم نصحاً . قال : ومعه مولى لأبي بكر يقال له : شديد ، ومعه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر[2] .

* * *

بل إن الأنظار الشخصية المخالفة لأوامر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) استمرت بعده مما أدى إلى تغيير بعض الأحكام الإلهية في عهد

---

(١) آية التبليغ بشأن الغدير ، وغيرها .

(٢) الطبري ٣ : ٤٢٩ ط دار المعارف .

الخليفة الثاني وبأمره ، مما أثبته الكثير من الكتب المعتبرة لأهل السنة(1) .

وكان يقـول: ثلاث كنّ على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهن وأعاقب عليهن : متعة النساء ، ومتعة الحج ، وحيّ على خير العمل(2) .

وهو الذي أمر أن يقولوا في أذان الفجر : الصلاة خير من النوم(3) .

وفي صحيح الترمذي : سأل رجل من أهل الشام عبدالله بن عمر عن المتعة ، فقال عبد الله : حلال ، فقال الشامي : أليس قـد نهى عنها أبـوك عمر ؟ فقال عبد الله : إن كان نهى عنهـا عمر وأحلهـا رسول الله فهل تترك السنة لقول عمر ؟(4) .

وكان على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والخليفة أبي بكر وثلاث سنين من خلافة عمر نفسه ،إذا طلّق الرجل زوجته ثلاث مـرات في مجلس واحد دون رجوع ، كان يعد طلاقاً واحداً ، ولكن عمر قال : إنه يعدها ثلاث تطليقات (5) .

ولا تقول الشيعة إلاّ بأنه طلاق واحد، وقد صرّح الأستاذ العلامة الشيخ محمد شلتوت شيخ الجامع الأزهر في مصر في وقته : برجحان فقـه الشيعة في هـذه المسألـة وكثير من المـوارد الأخـرى(6) . ولا يحق لأحـد أن يغيـر الأحكام الإلهية الأولية حتى الرسول ، والقرآن الكريم يقول : **﴿ ولـو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم**

---

(1) راجـع سيرة ابن هشـام ٤ : ٢٧٣ ومسند الإمـام أحمد بن حنبـل ٣ : ٣٠٤ و ٣٨٠ وصحيح مسلم ٤ : ٣٧ و ٣٨ و ٤٦ وتاريخ الطبري ٢ : ٤٠١ .

(2) الغدير ٦ : ٢٢ .

(3) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣ : ٤٠٨ وصحيـح مسلم ٤ : ١٨٣ والبدايـة والنهايـة ٣ : ٢٣ والسيرة الحلبية ٢ : ١٠٥ .

(4) الفصول المهمة : ٦٤ .

(5) صحيح مسلم ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ .

(6) مجلة رسالة الإسلام ، العدد الأول من السنة ١١ ط مصر .

من أحد عنه حاجزين ﴾[1] ولكنّا نرى أن بعض الصحابة كانوا يجتهدون في بعض الأحكام المنصوصة ، وبذلك كانوا يغيرون ويبدّلون منها حسب تفكيرهم ، اجتهاداً في مقابل النص ! .

كل هذا يبين لنا أن قسماً من أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يتخذون مواقف شخصيته في مقابل الرسول؛ ولا يتقيدون بأوامره ونواهيه ، فإذا كان بعض أوامر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا ينسجم مع أذواقهم الشخصية كانوا يحاولون أن يتخلصوا منه أو يغيروه .

إذن فإنّ غمض العين عن نصوص الرسول (صلى الله عليه وآله) في يوم الغدير والموارد الأخرى ، لا ينبغي أن يتلقى وكأنه شيء عجيب وغريب لا سابقة له ، بالقياس إلى اتجاهات بعض الصحابة في حياة النبي العظيم .

هذا ، ومن ناحية أخرى : نرى في كل مجتمع أن هناك أكثرية ساكتة من الناس لا يأبون متابعة كل من تقدم وأخذ بزمام المبادرة في الأمور السياسية والاجتماعية ، وهذا واقع لا يقبل الجدل .

وبنفس الحال كانت هناك شخصيات مستقلة مرموقة محترمة عند الأمة ، لم يغيروا موقفهم بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)فلم يؤيدوا ما وقع من الاختيار في السقيفة ، واعتزلوا أكثرية الناس في أطروحة الشورى معترضين عليها ، ومع أن الجو الموجود يومئذ ضغط على أصواتهم فخمدت ، إلا أنهم بقوا أوفياء لإمامة علي بن أبي طالب (عليه السلام) نذكر منهم تلك الشخصيات البارزة مثل : سلمان الفارسي المحمدي ، وأبي ذر الغفاري ، وأبي أيوب الأنصاري ، وخزيمة بن الثابت ، والمقداد بن الأسود الكندي ، وعمار بن ياسر حيف بني مخزوم ، وأبي بن كعب الأنصاري ، وخالد بن سعيد ، وبلال الحبشي ، وقيس بن سعد بن عبادة

---

(١) سورة الحاقة : الآيات ٤٤ ـ ٤٧ .

الخزرجي ، وبريدة الأسلمي ، وابي الهيثم ابن التيهان ، وأبان ، وكثير غيرهم ممن أثبت التاريخ ذكره ، وقد ضبط بعض المحققين من هؤلاء مئتين وخمسين رجلاً من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالتفصيل[1] وذكر اليعقوبي منهم : أبا ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي والمقداد بن الأسود ، وخالد بن سعيد ، والزبير ، والعباس ، والفضل بن العباس ، والبراء بن عازب ، وأبي بن كعب[2] .

وفي موضوع الخلافة خالف قيس بن سعد بن عبادة أباه وأقسم أن لا يكلّمه أبداً. هؤلاء جماعة من الشيعة في صدر الإسلام ، الذين وقفوا إلى جانب إمامة علي (عليه السلام) وقوفاً إلى جانب نصوص الكتاب والسنة ، وقد بقوا ثابتين على عقيدتهم هذه ـ اللهم إلا الزبير بن العوام. وعلى عهد الخلفاء الثلاثة كان يزداد عدد من هم من الشخصيات البارزة ورجال الفضيلة ، وقد بقيت أسماؤهم تذكر في كتب التاريخ والتراجم مقرونة بالطهارة والفضيلة والتقوى ، نذكر منهم : محمد بن أبي بكر ، وصعصعة بن صوحان العبدي ، وزيد بن صوحان العبدي ، وهشام بن عتبة ، وعبد الله بن بديل الخزاعي ، وميثم التمار ، وعدي بن حاتم الطائي ، وحجر بن عدي الكندي ، والأصبغ بن نباتة ، والحارث بن الأعور الهمداني ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، ومالك الأشتر النخعي ، وعبد الله بن هاشم المرقال ، وكميل بن زياد ، ورشيد الهجري ، وأويس القرني اليمني ، وغيرهم كثير .

* * *

---

(١) راجع الفصول المهمة للإمام السيد شرف الدين : ١٧٧ ـ ١٩٢ .
(٢) اليعقوبي ٢ : ١٠٣ .

هل الأصحاب كلهم أصحاب الجنة ؟

ليس بالإمكان أن نتخذ ثناء القرآن الكريم على العمل السابق لبعض أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دليلاً على براءتهم وطهارتهم ونزاهتهم وقداستهم من جميع أنواع الفساد والانحراف في جميع أعمارهم ، فنحسب أن أعمالهم كيفما كانت وفي أي زمان من أعمارهم كانت موصوفة بالعدالة ، وأنهم جميعاً كانوا على حق مطلق ! فإن رضا الله والسعادة الأبدية للإنسان المسلم إنما هو فيما إذا استمر إيمانه وعمله الصالح في طول عمره ، أما إذا انتفت منهم هاتان الخاصيتان ، فانحرفوا إلى الفساد عقيدة وعملاً ، فإن ماضيهم المشرق الوضّاء ليس له أي دور في سعادتهم في مستقبلهم .

إن الرسول الأكرم (صلى الله عليهم واله وسلم) معلم الإنسانية والتقوى ، وأسوة الفضائل والأخلاق ، والمعصوم عن المعاصي والآثام ، يخاطبه القرآن الكريم بقوله : ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾[1] مع وضوح أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) بماله من صفة العصمة لا ينفصل عن الله لحظة عين أبداً، وإنما خاطبه القرآن الكريم بهذا الخطاب أو قل عاتبه بهذا العتاب، إيعازاً إلى أن لا يتطرق إلى أصحابه الغرور فيشوب الرياء في قصدهم القربة إلى الله تعالى ، بل تأكيداً

(١) سورة الزمر : الآية ٦٥ .

على أن يعبىء المسلم الصحابي كل قواه وطاقاته واستعداداته الجياشة في طريق رضا الربّ سبحانه حتى آخر لحظة من حياته ، مستقيماً على الطريقة الحقة القويمة ، وهكذا يصف القرآن الكريم شيخ الأنبياء إبراهيم وولده (عليهما السلام) فيقول :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر . . . وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض . . . فلما جنّ عليه الليل . . . وحاجّه قومه قال : أتحاجّونّي في الله وقد هدان . . . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه . . . ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً هدينا ونوحاً من قبل ومن ذريته داود وسليمان . . . وكلاً فضّلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾[1].

ونحن نعلم أنه سبحانه لا يعني بذلك إمكان وقوع الشرك ممن وصفهم بالهداية ، وإنما يعني بذلك أصحابهم وأتباعهم وأممهم وشعوبهم .

ونحن نعلم ـ ببداهة التاريخ ـ أنه لم يكن كل من عرف باسم الصحابي صالحاً متقياً ، ولنا أن نفهم ذلك أيضاً من حديث نقله البخاري في صحيحه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)قال :

« أنا فرطُكم على الحوض ، ليرفعن إليّ رجال حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني ، فأقول أي ربّ أصحابي ؟ يقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك »[2] .

« وعن أبي حازم قال : سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول : سمعت النبي يقول : « أنا فرطكم على الحوض من ورده شرب منه ، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً، ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني

(١) سورة الأنعام : الآيات ٧٤ ـ ٨٨ .

(٢) صحيح البخاري ٩ : ٥٨ كتاب الفتن . و ٨ : ١٤٨ وفي آخره : ونقل ايضاً عن حذيفة

وبينهم » . قال أبو حازم : فسمعني النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا فقال : هكذا سمعت سهلاً ؟ فقلت نعم . قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيه، قال: « إنهم مني فيقال : إنك لا تدري ما بدلوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي »[1] .

« وعن ابن عمر : أنه سمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[2]

« وعن ابن عباس في حديث له عنه يقول فيه : وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي ؟ أصحابي ؟ فيقول : إنه لم يزالوا مرتدين على أعقابهم مذ فارقتهم . فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وكنتُ عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيني كنت أنت الرقيب عليهم ﴾[3] » .

« وعن أنس عن النبي قال : ليردنّ علي ناس من أصحابي الحوض حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول : أصحابي ! فيقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك »[4] .

« وعن أبي هريرة أنه كان يحدّث أن رسول الله قال : يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلأون عن الحوض ،فأقول : يا رب أصحابي ! فيقول : إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى »[5] .

« وروي عن عمار بن ياسر أيضاً أنه قال : إن في أصحاب النبي

---

(١) صحيح البخاري ٩ : ٥٨ ، ٥٩ كتاب الفتن و ٨ : ١٥٠ . وصحيح مسلم ٧ : ٩٢ .

(٢) صحيح البخاري ٩ : ٦٣ ، ٦٤ وكتاب الفتن وصحيح مسلم ١ : ٥٨ .

(٣) صحيح البخاري ٤ : ١٦٩ و ٢٠٤ و٦ : ٦٩و٧٠ و١٢٢ . و٨ : ١٣٦ وصحيح مسلم ٨ : ١٥٧ .

(٤) صحيح البخاري ٨ : ١٤٩ وصحيح مسلم ٧ : ٧٠ ، ٧١ .

(٥) صحيح البخاري ٨ : ١٥٠ .

(صلى الله عليه [وآله] اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنـة حتى يلج الجمل في سم الخياط »[1] .

وكتب التفتازاني في كتابه (شرح المقاصد) يقـول : « إن ما وقـع بين صحابة من المحاربات والمشاجرات على الوجه المذكور المسطور في كتب تواريخ والمذكور على ألسنة الثقات، يدل بظاهره على أن بعضهم قد حـاد ن طريق الحق ، وبلغ حدّ الظلم والفسق. وكان الباعث له الحقد والعناد لحسـد واللداد ، وطلب الملك والـرئـاسـة ، والميـل إلـى المـلذات لشهوات ، إذ ليس كل صحابيّ معصومـاً ، ولا كل من لقي النبي بـالخير بسوماً . . »[2] .

إذن ، فإن لم يكن لأتباع بعض المذاهب الإسلامية مودة بالنسبة لبعض الصحابة أو التابعين ، بل كانوا يشكلون عليهم بعض الإشكالات ، لم يكن ذلك علة للعنهم أو سبباً لسبهم ، ولا ينبغي أن تؤدي هذه الأمور إلى الجدل والنزاع والحقد بينهم ، ولا يجوّز ذلك لأن نحكم على أمة رسول الله بالفسق أو الكفر ، فإن ذلك كان موجوداً بين الأصحـاب أنفسهم : فقد صـاح جمع منهم في السقيفة بقتل سعد بن عبادة ، فأخذ ابنه قيس بن سعد بلحيـة عمر يجرّه إليه ! وصاح الزبير في السقيفة : أنه لا يغمد سيفه إلاّ أن يبايعـوا علياً (عليه السلام) ، فصاح عمر عليـه : خذوا على يـد هذا الكلب ! فضـربه أصحاب عمر ! وإن عمل عمر مع المقداد في السقيفـة ، وعمل عثمـان مع ابن مسعود وعمار بن ياسر وأبي ذرّ الغفاري وكثير من سائر اصطداماتهم تبيّن لنا ما كان بينهم من جدال وسباب ! وعلى هذا فالآراء المختلفة بالنسبة إلى بعض كان بينهم صحابة الرسول (صلى الله عليه وآلـه) لا تجوّز لنـا تكفير أصحـابهـا أو لعنهم ، ولا ينبغي أن نقـدح في وحـدة المسلمين من هـذا السبيل .

---

(1) صحيح البخاري ٨ : ١٥٠ ، ١٥١ والجمع بين الصحيحين الحديث : ٢٢٧ .

(2) شرح المقاصد ٢ : ٣٠٦ ط الأستانة .

بل إن في أتباع مذاهب السنة أيضاً من لا يرى حرمة لجميع الصحابة والتابعين ، فإن الذين أقدموا على قتل عثمان إنما كان كثير منهم من الصحابة والتابعين ، ولقد كان مالك بن نويرة من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقتله خالد بن الوليد وهو منهم أيضاً. أجل، لقد كان في الأصحاب شخصيات كبيرة من حيث الإيمان والتقوى والتضحية بل في قمة العظمة والكمال، وكان فيهم أيضاً من كان كثير من أفكار الجاهلية وآدابها قد تعشعش في زوايا ضمائرهم، فكانت لهم علاقة خاصة بالسنن السابقة! وكثير من أهل مكة من لم يتقبل الإسلام حتى بعد فتحها . إلا أن شخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ونفوذه وحشمته كانت قد غطت على اتجاهاتهم الباطنية وخصالهم في دخيلة ضمائرهم ، فكانت هيمنة تلك الشخصية العظيمة لا تسمح لهم أن يتظاهروا بصورتهم الواقعية ، وما أن ارتحل ذلك الرجل العظيم حتى رجعوا إلى السنة والأخلاق الجاهلية . إذن ، فالأخذ بسنن الصحابة وتبرئتهم عن جميع السيئات والآثام والعقيدة بعد التهم جميعاً مما لا ينسجم مع سنة رسول الله أيضاً .

وعلى هذا ، فإن السعادة ليست حصراً على المهاجرين والأنصار ، وليس لأحد أن يدعي أن السعادة إنما تحصل باتباع أحد هذين الفريقين ، بل إن السعادة مشروطة بشروط على من يسعى للحصول عليها أن يحتفظ بتلك الشروط حتى الممات كي يحظى بالسعادة والفلاح .

بيد أن علماء العامة يرون : أن جميع أصحاب الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) مجتهدون معذورون بل مأجورون ، ولذلك فهم ينزهونهم عما ينسب إليهم من عمل الخلاف أو يعذرونهم . وهذه الفكرة سلبت من الناس حق الاعتراض على عمل الصحابي ، وجرّأت جمعاً من طلاب الدنيا على ذلك ، فمدوا أيديهم إلى أية جناية من دون أن يكون لأحد أن يعترض عليهم بشيء ، أناس كعمرو بن العاص ، وسعيد بن العاص ، ومعاوية ، والمغيرة ، وخالد بن الوليد ، وبسر بن أرطأة . وبلغ الأمر إلى أن قال معاوية

بكل صلافة : إنما المال مال الله وأنا خليفة الله أعمل فيه كما شئت ! ولم يجد أحد بشيء سوى صعصعة بن صوحان العبدي من أصحاب علي (عليه السلام) فإنه أجابه بجواب رده فيه .

ولو كانت الصحبة سبباً لسعادتهم وحصانتهم من كل سوء ، فلماذا ارتد بعضهم على عهد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى خيل الضلال ، فطرده الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهدر دمه لولا شفاعة عثمان لأخيه من الرضاعة : سعد بن أبي سرح ؟! ألم يكن قائد الخوارج في النهروان « حرقوص بن زهير » من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ولم يكن أحد يومئذ يتصور أن هذا سيتجه في آخر عمره إلى تحريفة الضلال ، وأخبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن مصيره الأسود المنكوب فقال : « إنه يمرق عن دينه كما يمرق السهم عن رميته » ! والتحق هو أخيراً بجماعة الخوارج ، وحمل في حرب النهروان بوجه علي (عليه السلام) لواء الباطل ، فقتل بيده (عليه السلام) .

وابتعد « عبد الله بن جحش » عن مركز الإسلام يومئذ مكة المكرمة فهاجر إلى الحبشة اضطراراً ، وكان الأمل فيه أن يكون هو إلى جانب سائر المسلمين المهاجرين إلى تلك الديار، يبدي من نفسه ثباتاً في العقيدة والرأي ، وأن يدافع عن حريم دين الله . . ولكن لم يمض شيء حتى استولى الظلام على قلبه ، فرفع اليد عن إسلامه ودخل في المسيحية ! .

إذن فإن رضا الرب عن صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مشروط بأن لا يبتعدوا عن الإيمان والتقوى حتى آخر حياتهم وإلى مماتهم، وأن لا يقطعوا ارتباطهم بالحق والحقيقة ، أما إذا غيروا اتجاههم واختاروا الانحراف عن الحق ، فإنه ستحبط أعمالهم الصالحة السالفة ، وتذروها الرياح ، ويتبدل رضا الله عنهم إلى غضبه عليهم لا محالة . وعلى هذا ، فليس لأصحاب الرسول (صلى الله عليهم وآله وسلم) والمؤمنين به ومن تبعهم بإحسان ضمان أن يكونوا على الحق والهدى دائماً .

وهكذا انتظمت الخلافة في السقيفة

انقضت حياة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) التي قضاها على أحسن ما يكون ومات ـ أخيراً ـ حامل رسالة الإسلام ، والمنقذ الأعظم ، وروح العالم ، ولبى دعوة ربه إلى الحياة الخالدة . وانقطع بموته الوحي . وانطفأت بموته تلك التجليات الملكوتية لذلك الوجود المقدس الذي يفوق وصف عظمته أفق قدرة البشر . . صلوات الله عليه .

لا زال جثمانه الطاهر على الأرض ، وكان علي (عليه السلام)وآل هاشم وعدد من الأصحاب مشغولين بتحضير مقدمات غسله والصلاة عليه ودفنه ، ولم يبق غير هؤلاء من يحوم حول جنازته[1] بينما اجتمع جمع من الأنصار تحت « سقيفة بني ساعدة » للحل والعقد في موضوع خلافة الرسول كما تشاء أهواؤهم ! .

« وأتى عمر الخبرُ فأقبل إلى منزل النبي (صلى الله عليه وآله) فأرسل إلى أبي بكر وأبو بكر في الدار ، وعلي بن أبي طالب دائب في جهاز رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فأرسل إلى أبي بكر : أن اخرج إليَّ ، فأرسل إليه : إني مشتغل ، فأرسل إليه : إنه قد حدث أمر لا بدّ لك من

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ : ١٠٤ وتاريخ اليعقوبي ٢ : ٩٤ وتاريخ الطبري ٣ : ٢١٩ وتاريخ ابن كثير ٥ : ٢٦٠ ، أسد الغابة ١ : ٣٤ ، العقد الفريد ٣ : ٦١

حضوره ! فخرج إليه ، فقال : أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولّوا هذا الأمر سعد بن عبادة . . فمضيا مسرعين نحوهم ، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح فتماشوا إليهم ثلاثتهم »[١] .

وكتب الكاتب المصري الشهير أحمد أمين ـ وهو ممن يتعصب ضد الشيعة جداً ـ يقول: اختلف أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) على خلافته ، وكان ذلك قبل دفن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ولقد تآمر كبار الصحابة في خلافته وعلي (عليه السلام) مشغول بغسل الرسول ودفنه ، فلم يكن حاضراً عند جنازة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سوى علي (عليه السلام) وأهل بيته ، ولم يلتزم أولئك بأي حرمة لذلك الذي أنقذهم من ظلمات الجهل والضلال وهداهم إلى الحقّ المبين ، ولم ينتظروا دفنه وهم تنازعوا فيما بينهم على ميراثه[٢] .

وثارت الأقوال في ذلك الاجتماع ، كل يحاول أن يعيّن للخلافة من يهواه ، وتذاكر الأنصار عن سابقتهم في الإسلام وإكرام الرسول لهم ، وجهادهم في سبيل الله ، كمزايا لهم لاستيلائهم على الأمر بعده ، فقالوا : نولّي هذا الأمر بعد محمد (عليه السلام) سعد بن عبادة ، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض »[٣] .

والمهاجرون يرون : أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل دارهم ، وأنهم لدخولهم في الإسلام وإيمانهم بالدين الحق قد هجروا أقرباءهم ونصروا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولذلك فهم أحرى لإحراز هذا المنصب بعده !

إن هذه الروح القبلية التي كانت تسود أفكارهم ، كانت تسوّل لهم أن

---

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢١٩ .
(٢) نقلاً عن فجر الإسلام لأحمد أمين ، بتصرف .
(٣) الطبري ٣ : ٢١٨ ط دار المعارف .

يحتكروا القوة التنفيذية لأنفسهم من دون أن يشاركهم فيها غيرهم ؛ بينما كان كل جناح منهم يزعم أنهم على استحقاق لأخذ الحكم[١] .

كان قد طال الكلام بينهم وانجرّ إلى النزاع والتخاصم ، وكان عمر وجمع من أصحابه يحمون جانب أبي بكر، وكان عمر يرغّب الناس إلى بيعته ويهدد المخالفين له .

وبدأ أبو بكر الكلام وأخذ في بيان مفاخر المهاجرين في خدمتهم لدينهم وعقيدتهم فقال :

« إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة ، وإنما هي من حجر منحوت وخشب منجور ، ثم قرأ : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾[٢] وقالوا : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾[٣] فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به ، والمواساة له والصبر معه ، على شده أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس لهم مخالف زارٍ عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر بعده، ولا ينازعهم ذلك إلّا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين ـ عندنا أحد بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ! لا تفتئتون بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور ! » .

---

(١) الطبري ٣ : ٢١٨ ط دار المعارف .

(٢) سورة يونس : الآية ١٨ .

(٣) سورة الزمر : الآية ٣ .

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال : يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم ، فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلاّ عن رأيكم ، أنتم أهل العزّ والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون . ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم ، فإن أبى هؤلاء إلاّ ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير ! .

فقال عمر : هيهات ! لا يجتمع اثنان في قرن ! والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيّها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ! من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدلٍ بباطل ، أو متجانف لإثم ومتورط في هلكة ! .

فقام الحباب بن المنذر فقال : يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جُذَيْلُها المحكَّك ، وعُذَيْقُها المرجَّبُ ![1] أما والله لو شئتم لنعيدنها جَذْعة (أي فتية) فقال عمر : إذاً يقتلك الله قال : بل إياك يقتل !

فقال أبو عبيدة : يا معشر الأنصار : إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر ! .

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال : يا معشر الأنصار ؛ إنّا والله لئن كنّا أولى فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين فما

---

(١) الجذيل المحكك : هو العود الذي يجعل في مبرك الإبل فتحتك الإبل به ، يضرب به المثل للرجل يستراح إليه .
والعذيق المرجب : النخلة التي تبنى إلى جانبها دعامة تسندها لكثرة حملها ، يضرب بها المثل للرجل الشريف المثمر . والمرجب : أي المعظم أو المؤيد .

أردنا به إلاّ رضا ربّنا وطاعة نبيّنا والكدْح لأنفسنا ، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك . ألا إن محمداً (صلى الله عليه وآله) من قريش وقومه أحقّ به وأولى ، وايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتّقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم !

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيّهما شئتم فبايعوا ! .

فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك او يتولى هذا الأمر عليك ؟! ابسط يديك نبايعك .

فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد ، فبايعه .

فناداه الحبّاب بن المنذر : يا بشير عقك عقاق ! ما أحوجك إلى ما صنعت ؟ أنَفِست على ابن عمك الإمارة (أي حسدته عليها) ؟ .

فقال : لا والله لا والله ، ولكني كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم .

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرّة فلا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً ! فقوموا فبايعوا أبا بكر ! فقاموا إليه فبايعوه .

فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم ، وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطأون سعد بن عبادة ، فقال ناس من أصحاب سعد : اتقوا سعداً لا تطأوه !

فقال عمر : اقتلوه قتله الله ! ثم قام على رأسه فقال : لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك[1] فأخذ سعد بلحية عمر فقال عمر : والله لو

(١) أي تزول عن موضعها .

حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة[1] .

وقام عبد الرحمن بن عوف فقال : يا معشر الأنصار ، إنكم وإن كنتم على فضل ، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي !

فقام المنذر بن الأرقم فقال : ما ندفع فضل من ذكرت ، وإن فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد ، يعني علي بن أبي طالب ![2] .

وهنا صرخ جمع من الأنصار : لا نبايع إلا علياً . ويقول عمر :

« فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ! فبسط يده فبايعته ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار . ونزونا على سعد بن عبادة ، فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة ! فقلت : قتل الله سعد بن عبادة »[3] .

وروى ابن قتيبة : أن بشير بن سعد الأنصاري لما رأى ما اتفق عليه قومه من تأمير سعد بن عبادة قام ـ حسداً لسعد ، وكان بشير من سادات الخزرج ـ فقال : يا معشر الأنصار أما والله لئن كنا أولي الفضيلة في جهاد المشركين ، والسابقة في الدين ، ما أردنا ـ إن شاء الله ـ غير رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا ، وما ينبغي أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغي به عوضاً من الدنيا ، فإن الله ولي النعمة والمنة علينا بذلك . ثم إن محمداً رسول الله رجل من قريش ، وقومه أحق بميراثه وتولي سلطانه ! وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً! فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم ! .

فقام أبو بكر فقال : إني لكم ناصح في أحد هذين الرجلين : أبي عبيدة بن الجراح أو عمر ، فبايعوا من شئتم منهما !

---

(١) الواضحة : الأسنان التي تبدو عند الضحك . والخبر في الطبري ٣ : ٢١٩ ـ ٢٢٢ ط دار المعارف .

(٢) اليعقوبي ٢ : ١١٣ ، ١١٤ ط النجف .

(٣) سيرة ابن هشام ٤ : ٣١٠ ط الحلبي وفي الطبري ٣ : ٢٠٦ ط دار المعارف . وتاريخ ابن كثير ٥ : ٢٤٦ .

فقال عمر : معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا، أنت أحقنا بهذا الأمر وأقدمنا صحبة لرسول الله وأفضل منا في المال ! وأنت أفضل المهاجرين وثاني اثنين، وخليفته على الصلاة والصلاة أفضل أركان الإسلام فمن ذا ينبغي أن يتقدمك ويتولى هذا الأمر عليك ، ابسط يدك أبايعك . فلما ذهبا يبايعانه سبقهما إليه بشير الأنصاري فبايعه . فناداه الحبّاب بن المنذر : يا بشير بن سعد ، عقتك عقاق ! ما اضطرك إلى ما صنعت ؟ أحسدت ابن عمك على الإمارة؟! قال: لا والله، ولكني كرهت أن أنازع قوماً حقاً لهم(١).

وروى الطبري عن هشام الكلبي عن أبي مخنف ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عبد الرحمن بن عوف قال : فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر ، وكادوا يطأون سعد بن عبادة ، فقال ناس من أصحاب سعد : اتقوا سعداً لا تطأوه ! فقال عمر : اقتلوه! قتله الله ؛ ثم قام على رأسه فقال : لقد هممت أن أطأك حتى تُنْدَر عضدُك (أي تزول عن موضعها) .

فأخذ سعد بلحية عمر . فقال عمر : والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة (٢) فقال أبو بكر : مهلاً يا عمر ! الرفق هنا أبلغ. فأعرض عنه عمر .

وقال سعد : أما والله لو أن بي قوة ما أقوى على النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيراً يحجرك وأصحابك (أي يدخلكم في الحجر)أما والله إذاً لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع ! .

ثم قال لقومه : احملوني من هذا المكان . .

فحملوه فأدخلوه داره (٣) .

ومضى أصحاب أبي بكر به إلى المسجد ليبايعه الناس ، وعلي (عليه

---

(١) الإمامة والسياسة : ٨ و ٩ .

(٢)الواضحة : الأسنان التي تظهر عند الضحك

(٣)الطبري ٣ : ٢٢٢ ط دار المعارف .

السلام) بعد لم يفرغ من غسل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ سمع صوت التكبير مرتفعاً من مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فسأل علي (عليه السلام) : ما الخبر ؟ فأخبره عمه العباس بالخبر وقال : ألم أقل لك امدد يدك لأبايعك(١) .

وروى ابن إسحق عن أنس بن مالك قال : لما بويع أبو بكر في السقيفة (يوم وفاة الرسول) وكان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر . فقام عمر فتكلم فقال : فقوموا فبايعوه . فبايع الناس البيعة العامة بعد بيعة السقيفة . ثم قال ابن إسحق : فلما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله (صلى الله عليه [وآله]وسلم) يوم الثلاثاء . فلما فرغ من جهاز رسول الله يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته . . . ثم دخل الناس على رسول الله يصلون عليه أرسالاً(٢) .

إن الاجتماع الذي انعقد في سقيفة بني ساعدة كان يغيب عنه علي (عليه السلام)وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان ، وطلحة ، والزبير ، وحذيفة ابن اليمان ، وأبي بن كعب وأضرابهم ، بل لم يكن فيه من المهاجرين سوى ثلاثة هم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فحسب .

ألم يكن من اللازم أن يدعوا هؤلاء الشخصيات الكبار للمشاركة في هذا المجلس والإدلاء بآرائهم في هذه المسألة الأساسية ؟ ! أفهل كانت هذه الجلسة القصيرة والمليئة باللغط والضوضاء وبمشاركة ثلاثة من المهاجرين فقط تكفي لأخذ قرار يتعلق بمصير المسلمين ؟! ألم تكن أهمية الموضوع توجب أن تطرح هذه المسألة على طاولة البحث بمحضر من كبار الشخصيات الإسلامية للإفادة من أفكارهم ثم يُتّخذ القرار النهائي في جوّ هادىء سليم ؟! .

أولئك الذين كانوا يرون لأنفسهم الحق في أخذ هذا القرار ، إلى أي

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ٣ : ٢٦٣ . وشرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٣٣ .

(٢)سيرة ابن هشام ٤ : ٣١١-٣١٤ط الحلبي وأرسالاً أي : جماعات .

دليل استندوا في سلب هذا الحق من غيرهم ولم يعبأوا بآرائهم ؟ ! إذا استند جمع إلى عنوان الرأي العام واختاروا لمجتمعهم قائداً حاكماً بعيداً عن مشاركة أصحاب النظر من الشخصيات الاجتماعية المحترمة عند الناس .

فهل هو اختيار شعبي ؟ ! إن اختيار أبي بكر كان بدون إمعان نظر بل بدون إعداد سابق حتى أن عمر كان بعد ذلك يقول : « فلا يغرّنّ امرأً أن يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، وإنها قد كانت كذلك ، إلا أن الله قد وقى شرّها، وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، فمن بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فإنه لا بيعة له هو ولا الذي بايعه ، تغرّة أن يقتلا »[1] أي : خوفاً من أن يقتلا .

هذا ، على أن تعيين الخليفة الثاني من قبل الخليفة الأول يبيّن لنا أن الخلافة بالاختيار بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)كانت أطروحة لا أساس لها من الصحة ، إذ لم يرد أي أمر من الرسول (صلى الله عليه وآله) بهذا الصدد وإلاّ لم يكن جمع من الناس يقترحون على الخليفة أن يختار لنفسه خليفة وهو بعد على قيد الحياة ، كي لا تضطرب في المجتمع المسلم أمواج الفتنة والفساد نتيجة خلاء الساحة من الزعيم القائد[2] .

وقد قال أبو بكر: لو كان أبو عبيدة حيّاً لكان لذلك أهلاً، لأني سمعت النبي يقول فيه : إنّه أمين هذه الأمة ! ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لكان أهلاً لذلك ، لأني سمعت النبي يقول فيه : إنه حبيب الله .

ومن ناحية أخرى ؛ نقول : إن اختيار القائد من قبل مجلس الشورى الذي عينه الخليفة الثاني ، لم يكن إثباتاً للنص ، ولا رجوعاً إلى الرأي العام ، وإن كان للخليفة أو عليه أن يختار لخليفة بعده فلماذا أحال هذا الأمر إلى الشورى المركبة من ستة أشخاص ؟

---

(١)سيرة ابن هشام ٤ :٣٠٨، ٣٠٩ط الحلبي .

(٢)انظر الإمامة والسياسة : ١٩ ط الحلبي .

لو كان اختيار الإمام حقاً من اختيارات الأمة وحقوقهم ، فبأي دليل سلب الخليفة الثاني هذا الحق من الناس ؟ وجعله في شورى اختارها هو ، ثم قال في أعضائها ما نفى عنهم صلاحيتهم لذلك .

هذا والقرآن الكريم يأمر الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾[1] .

وفي موضع آخر يصف المؤمنين فيقول ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[2] .

ولكن المشورة هنا في الأمور الاجتماعية التي تتعلق بالخلق لا بالخالق ، ولا في مسألة الإمامة التي هي عهد من الله تعالى ، وما كان عهداً إلهياً لهداية خلق الله فلا يمكن الفصل فيه بالشورى .

(١)سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٢)سورة الشورى : ٣٨ .

مستندات لا قيمة لها

إن الجو السائد في سقيفة بني ساعدة كان بحيث لو كان هناك صلحاء مخلصون لم يستطيعوا أن ينتصروا للحقيقة المهزومة، فإن الامتيازات التي كان المجتمعون في السقيفة يقولون بها لأنفسهم ـ وبذلك كانوا يرون الخلافة من حقهم ـ لم تكن امتيازات تستند إلى الكتاب والسنة ، وبين أولئك لم يكن حتى شخص واحد يطرح التقوى والرشاد . والمستوى الروحي والمعنوي ، والمعرفة العميقة بمباني الإسلام وأحكامه ، والعصمة عن التلوث بالآثام شروطاً لإحراز مقام الخلافة وزعامة المسلمين ، بل أغمضوا عيونهم عن كل أولوية واقعية تتعلق بالقرآن والإسلام ، اللهم إلا بعض السوابق الحسنة .

وكان مما يبعث على الأسف عدم اعتنائهم بالكمالات الإنسانية والمعنوية الروحية ، من قبل أولئك الذين كان كل واحد منهم يأمل الانتصار على خصمه في ضميره ، في ذلك المجتمع التقريري !

حينما حفّ الأنصار بسعد بن عبادة خاطبهم فقال :

« يا معشر الأنصار ، إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع عبادة الأوثان ، فما آمن به من قومه إلا قليل ، والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا

يعرفوا دينه ، ولا يدفعوا عن أنفسهم . حتى أراد الله لكم الفضيلة ، وساق إليكم الكرامة وخصّكم بالنعمة ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز لدينه والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم ، وأثقله على عدوكم من غيركم ، حتى استقاموا لأمر الله تعالى طوعاً أو كرهاً ، وأعطى البعيد المكانة صاغراً داخراً ، حتى أثخن الله تعالى لنبيه بكم في الأرض ودانت بأسيافكم له العرب . وتوفاه الله تعالى وهو راض عنكم قرير العين ، فشدوا أيديكم بهذا الأمر ، فإنكم أحق الناس وأولاهم به »(١) .

في حين أنهم إن كانوا يفكرون في مصالح الإسلام والمسلمين واستمرار رسالة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان عليهم بدل أن يستندوا إلى هذه المقاييس أن يلاحظوا مدى إلمام أوإحاطة الإمام والخليفة بمباني الشريعة وأسسها ومعرفته بالثقافة الإسلامية وحاجات المجتمع الإسلامي ،وطهارته من المعاصي والأثام الأخلاقية وما شاكل،وأن يختاروا لمقام الإمامة من كانت له هذه الخصائص ويذعنوا له ويطيعوه . بينما جدالهم وكيفية استدلالهم مرآة يبدو لنا منها مدى عنايتهم بالجوانب المعنوية والروحية والفضائل النفسانية لخليفة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولهذا نراهم يقولون : « أنتم أهل العز والثروة ، وأولوا العدد والعدة ـ أو النجدة ـ وإنما ينظر الناس ما تصنعون »(٢) .

وعمر يقول لأبي بكر: «أنت أحقنا بهذا الأمر وأقدمنا صحبة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأفضل منا في المال»(٣). فتراهم يتفاخرون بالثروة وكثرة أفراد القبيلة ، فكأنهم يرون أن الفخر الأكثر هو في المال والعشيرة الأكثر عدداً ! وليس غضّهم أبصارهم عن الشروط الأساسية إلا

(١) الإمامة والسياسة : ٥ ط الحلبي .
(٢) الإمامة والسياسة : ٧ .
(٣) الإمامة والسياسة : ٩ .

لأنهم «أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله» من المعارف الإسلامية الواسعة والنواحي الروحية المعنوية ، أما العصمة فكيف يفهمونها وهم غير معصومين ؟ ! ولذلك نقول : إنهم لم يتمكنوا من أن يوطدوا أساس الحكومة الإسلامية على القيم الكبرى .

وأبو بكر يعترف أنه لا فضل له على كثير غيره ولا هو بعيد عن الخطأ والزلات فيقول :

« أيها الناس فإني ولّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني »[1] .

وروى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة عن ابن عباس قال : كنت عند عمر ، فتنفس نفساً ظننت أن أضلاعه قد انفرجت فقلت : ما أخرج هذا النفس منك يا أمير المؤمنين إلا هم شديد : قال : أي والله يابن عباس ، إني فكرت فلم أدر فيمن أجعل هذا الأمر بعدي ، ثم قال : لعلك ترى صاحبك لها أهلاً [يعني علياً (عليه السلام)] قلت له : وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقته وقرابته وعلمه ؟ ! قال : صدقت ، ولكنه امرؤ فيه دُعابة[2] .

وروى ابن قتيبة في إباء علي (عليه السلام) عن بيعة أبي بكر : أنه أتي به إلى أبي بكر ، فقيل له : بايع أبا بكر فقال : أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي . . . فقال له عمر : إنك لست متروكاً حتى تبايع . . فقال : والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه . . فقال أبو عبيدة بن الجراح لعلي (عليه السلام) : يا بن عم إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ : ٣١١ ط الحلبي . واليعقوبي ٢ : ١١٧ ط النجف . وتاريخ الطبري ٣ ٢١٠ ط دار المعارف . والكامل لابن الأثير ٢ : ١٢٩ والبداية والنهاية لابن كثير ٦ : ٣٠٣

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ : ١٠٦ ، ١٠٧ ط بيروت ٤ مجلدات .

أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به؛ فسلم لأبي بكر هذا الأمر فإنك إن تعش ويطل بك بقاء ، فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق ، في فضلك ودينك وعلمك وفهمك ، وسابقتك ونسبك وصهرك[1] .

وروى مثله الشيخ الطبرسي في الاحتجاج ثم قال :

« فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : يا معشر المهاجرين والأنصار ؛ الله الله لا تنسوا عهد نبيكم إليكم في أمري ، ولا تخرجوا سلطان محمد من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن حقه ومقامه في الناس. فوالله معاشر الجمع إن الله قضى وحكم، ونبيّه أعلم وأنتم تعلمون ـ بأنا أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم ، ما كان فيهم القارىء لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، المضطلع بأمر الرعية ، والله إنه لفينا لا فيكم ؛ فلا تبتغوا الهوى فتزدادوا من الحق بعداً ، وتفسدوا قديمكم بشرّ حديثكم »[2] .

وروى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة بسنده : أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما مات وأبو ذر غائب ، وقدم وقد ولي أبو بكر فقال : أصبتم قناعة وتركتم قرابة ! لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم اثنان »[3] .

وبشأن المقداد بن عمرو يقول الراوي « دخلت مسجد رسول الله فرأيت شيخاً جاثياً على ركبتيه يتلهف تلهف من كأن الدنيا كانت له فسُلبها ، وهو يقول : واعجباً لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيهم وفيهم أول المؤمنين وابن عم رسول الله »[4] .

وروى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أيضاً عن سلمان

---

(١) الإمامة والسياسة : ١١، ١٢ .وروى مثله الشيخ الطبرسي في الاحتجاج ١ ٩٦ ط ط النجف .

(٢) الاحتجاج ١ : ٩٦ط النجف .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ١٣ ط أبو الفضل .

(٤) اليعقوبي ٢ : ١٥٣ ط النجف .

الفارسي أنه كان يقول للصحابة بشأن خلافة أبي بكر : « أصبتم الخير ولكن أخطأتم المعدن » وفي رواية أخرى : « أصبتم ذا السن منكم ولكنكم أخطأتم أهل بيت نبيكم . أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلتموها رغداً »(١) .

وروي أن أم مسطح بن أثاثة خرجت يوماً إلى قبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)فوقفت عنده ونادته : يا رسول الله :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها فاختلّ قومك فاشهدهم فقد نكبوا »(٢)

أجل ،إن علي بن أبي طالب ، أعني تلك الشخصية العظيمة الذي كان في سلوكه الأخلاقي الإسلامي ، وسيرته العملية ، وتقواه العميق بل عصمته ، ومواقفه الإنسانية نموذجاً واقعياً للحاكم الإسلامي . . كان يناجي ربه يقول :

« اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ، ولا التماس شيء من الحطام ، ولكن لنرد المعالم من دينك ويأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطلة من حدودك »(٣) .

فإذا كان في المجتمع الإسلامي من هو معصوم من المعاصي عالم بجميع المعارف ، معرف من قبل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خليفة ووصياً له ، فلا معنى لأن يشكّل الناس مجلس شورى لاختيار الحاكم الزعيم ويتخذوا في ذلك قراراً لهم .

كما لم يكن أحد يتصوّر على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله) أن

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٤٩و ٦ : ٤٣ ط أبو الفضل .
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ١٣١و ٦ : ٤٣ ط محمد أبو الفضل .
(٣) الاحتجاج للشيخ الطبرسي ١ : ٢٥٣ ونهج البلاغة ا

تتلخص مسؤوليّته في إبلاغ رسالته، وأن على الناس أن يتخذوا قراراً بشأن الحكومة ، وأن يختاروا لها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو غيره عن طريق المراجعة إلى الرأي العام أو الشورى . .

كذلك الوضع بالنسبة لما بعد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أي مع وجود أوصيائه الذين لا يبلغ شأوهم أحد في العلم بالأحكام الإلهية، ولا تتطرق إليهم الجرائم والزلاّت، فإلى من نفزع لنأتي به إلى مسند خلافة حامل القرآن ؟ بل حيث إن الحكومة هي من شؤون الإمامة فلا صلاحية لزعامة أحد مع وجود إمام معصوم ، كما أن إدارة أمور الأمة في حياة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ليست من شأن أحد سواه ، ولم يكن أحد يصلح لأن يتعهد بأمر الحكومة والزعامة غيره .

ولهذا كتب العالم الشافعي الشهير ابن أبي الحديد يقول :«لا أحد كعلي (عليه السلام) كان يستحقها »[1] .

وروى الشيخ سليمان الحنفي عن عبدالله بن عمر بن الخطاب أنه كان يقول :« كنا إذا عددنا أصحاب النبي قلنا : أبو بكر وعمر وعثمان. فقال رجل : يا أبا عبد الرحمن فعلي ما هو؟ قال : علي من أهل البيت لا يقاس به أحد ، هو مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)في درجته ، إن الله يقول : ﴿ والذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريّتهمْ ﴾ ففاطمة مع رسول الله في درجته وعلي معهما »[2] .

وعلى افتراض صحة منطق المهاجرين يوم السقيفة فالأولوية مع ذلك لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) فإن أحداً لا يبلغ شأوه في السبق إلى الإسلام والإيمان، وذلك في جوّ لم يكن يساعده على ذلك، حيث لم يقبل قول الرسول (صلى الله عليه وآله) أحد من عشيرته الأقربين ، وكان أقرب

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ : ٥٢٠ .

(٢) ينابيع المودة ٢٥٣ ط آ[illegible] .

الأقربين إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)بل فتح عينه على يد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ونما وترعرع تحت رعايته وتربيته ، وقد انصهرت واختلطت بعمق روحه حقيقة الإسلام . إنه كان صهره وابن عمه وأخاه . .

« كلما أوقدوا ناراً للحرب أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها ، فلا ينكفيء حتى يطأ صماخها بأخمصه ، يخمد لهبها بسيفه ، مكدوداً في ذات الله ، مجتهداً في الله ، قريباً من الله ، سيداً في أولياء الله ، مشمّراً ناصحاً ، مجدّاً كادحاً »(١) .

فمن كان أولى منه لإحراز مقام الزعامة الإسلامية بعده ؟ فلماذا وهبوا لغيره ما لا يملكون من سمة الخلافة للرسول في قيادة المسلمين ؟

* * *

أما حينما نراجع التاريخ لنجد جذور عمل الأصحاب وجدنا أن قريشاً لم تكن تود بني هاشم ، وكان هذا يظهر أحياناً على عهد الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)فكان أحياناً بعض القرشيين يفتحون أفواههم للطعن في بني هاشم بما كان يجرح عواطف الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) (٢)وبما أنهم لم يطيقوا تحمل خلافة بني هاشم كانوا يحاولون أن لا تستقر الخلافة فيهم(٣) .

روى اليعقوبي في تاريخه عن ابن عباس قال : طرقني عمر بن الخطاب بعد هدأة من الليل فقال: اخرج بنا نحرس نواحي المدينة، فخرجت وخرج وعلى عنقه درّته ، حافياً حتى أتى بقيع الفرقد ، فاستلقى على ظهره وجعل يضرب أخمص قدميه بيده وتأوه صعداء !

---

(١) الاحتجاج على أهل اللجاج ج ١ : ١٣٦ ط النجف .
(٢) ينابيع المودة ١٥٦ ، ١٢٢ .
(٣) ينابيع المودة ٢٧٣ وشرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٨٣ .

فقلت له : يا أمير المؤمنين ، ما أخرجك إلى هذا الأمر ؟ قال : أمر الله يابن عباس .

قال : قلت : إن شئت أخبرتك بما في نفسك . قال : غص يا غواص إن كنت لتقول فتحسن . قال : قلت : ذكرت هذا الأمر بعينه وإلى من تصيّره قال : صدقت . . إلى أن قال : يا بن عباس أترى صاحبكم لها موضعاً ؟ فقلت : وأين يتبعد من ذلك مع فضله وسابقته وقرابته وعلمه ؟
قال : هو والله كما ذكرت ، ولو وليهم لحملهم على منهج الطريق فأخذ المحجة الواضحة إلا أن فيه خصالاً : الدعابة في المجلس ، واستبداد الرأي ، والتبكيت للناس مع حداثة السن !

قلت : يا أمير المؤمنين هلا استحدثتم سنّه يوم الخندق إذ خرج عمرو ابن عبد ود ، وقد كعم عنه الأبطال ، وتأخرت عنه الأشياخ . ويوم بدر إذ كان يقط الأقران قطاً ، وهلا سبقتموه بالإسلام إذ كان حصيلته السغب ! .

فقال : والله يا بن عباس ؛ إن علياً ابن عمك لأحقّ الناس بها ، ولكن قريشاً لا تحتمله ، ولئن وليها ليأخذهم بمر الحق لا يجدون عنده رخصة ، ولئن فعل لينكثن بيعته ثم ليحاربن[1] .

وكذلك رواه ابن الأثير في الكامل[2] .

وقد تنبأ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بما تفعله قريش مع أهل بيته فقال :

« إن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً . . . . »[3] .

وقد قال علي (عليه السلام) أيضاً :

---

(١) اليعقوبي ٢ : ١٤٧ ، ١٤٨ ط النجف .
(٢) الكامل في التاريخ ٣ : ٢٤ ، ٢٥ .
(٣) ينابيع المودة : ١٣٥ ط آستانة .

« اللهم إني استعديك على قريش ومن أعانهم ، فإنهم قد قطعوا رحمي ، وأكفأوا إنائي ، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري ، وقالوا : ألا إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تمنعه ، فاصبر مغموماً أو مُتْ متأسّفاً . فنظرت فإذا ليس لي رافد ، ولا ذاب ولا مساعد ، إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية ، فأغضيت على القذى ، وجَرِعت ريقي على الشجا ، وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم ، وآلم للقلب من وخز الشفار »[1] .

وقال عليه السلام كما في ينابيع المودة : « كل حقد حقدته قريش على رسول الله أظهرته فيَّ وستظهره في ولدي من بعدي ، مالي ولقريش! إنما وترتهم بأمر الله وأمر رسوله ، أفهذا جزاء من أطاع الله ورسوله ، إن كانوا مسلمين »[2] .

وقال المقداد بن عمرو الأسود الكندي : واعجبا لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيّهم ، والله لقد زووها عن الهادي المهتدي الطاهر النقي ، وما أرادوا إصلاحاً للأمة ولا صواباً في المذهب ، ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة ، فبعداً وسحقاً للقوم الظالمين[3] .

وكانت النتيجة أن وقعت الحكومة الإسلامية بيد أناس غير معصومين ، وبلغت الخلافة إلى حيث تبدل الجو الإسلامي إلى ما يشوبه الفساد فاقداً لروح الأخوة والمساواة والتقوى ، وفقد العالم الإسلامي ما له من خصائص دينية ومعنوية وعاد إلى الجاهلية العربية المشؤومة ، ولم يبق من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه ! .

وروى الشريف الرضي (قده) في نهج البلاغة : قالوا : لما انتهت إلى

---

(١) نهج البلاغة ١ : ٣٣٦ ط الدكتور صبحي الصالح . القطعة : ٣١٧ . وفي ١ : ٣٤٦ من الخطبة : ١٧٢ .

(٢) ينابيع المودة : ٢٣٥ ط أستانة .

(٣) اليعقوبي : ٢٢ : ١٣٧ وشرح ابن أبي الحديد ٢ : ٤١١ .

أمير المؤمنين (عليه السلام) أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال (عليه السلام) : ما قالت الأنصار ؟ قالوا : قالت : منا أمير ومنكم أمير .

قال (عليه السلام): فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وصّى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم ؟ !

قالوا : وما في هذا من الحجة عليهم ؟

فقال (عليه السلام) : لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم .

ثم قال (عليه السلام) : فماذا قالت قريش ؟

قالوا : احتجت بأنها شجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

فقال (عليه السلام) : احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة ![1] .

ويقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في علاقته الخاصة بالنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وعناية الرسول بتربيته :

«وقد علمتم موضعي من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، ويُمسُّني جسده ويُشِمُّني عَرْفَهُ ، وكان يمضَغُ الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبةً في قول ، ولا خَطْلَةً في فعل، ولقد قرن الله به (صلى الله عليه وآله وسلم) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره ـ ولقد كنت أتبعه اتّباع الفصيل أثر أُمّه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرسالة ، وأشم ريح النبوة .

---

(١) القطعة : ٦٧ من نهج البلاغة ط الصالح .

ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت : يا رسول الله ما هذه الرنّة ؟ فقال : « هذا الشيطان قد أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي ولكنك لوزير ، وإنك لعلى خير »[1] .

بينما الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) يرى أن مقام الحكومة والإمامة إنما يتعلق بالإرادة الإلهية (التشريعية) ويعلن للناس أن لا خيرة له في ذلك يرسم هؤلاء الناس تلك الأولويات الاعتبارية في أذهانهم لاستقرار الحكومة ويستندون إليها، ويربطون بين خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين تلك المسائل القومية والمزايا التي لا أساس لها ؛ بل البعيدة عن القيم الإسلامية العظيمة ! .

وروى الطبري بسنده عن الزهري قال : أتى رسول الله بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يقال له بيحرة بن فراس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ! ثم قال له : أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء قال : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك[2] .

---

(١) نهج البلاغة ١ : الخطبة ٩٢ ط الصالح . وشرح النهج لابن أبي الحديد ٣ : ٢٢٤ .

(٢) الطبري ٢ : ٣٥٠ ط دار المعارف . وهو رواه عن محمد بن إسحق ، قد رواه ابن هشام في السيرة عنه : ٢ : ٦٦ ط الحلبي .

نقــد وردّ

النقــد : هناك من يقـول : إن الحكومـة إن كانت منبعثـة من أوسـاط الناس ، وكان أفراد المجتمع يختارون قائدهم من بين العناصر الصالحـة ، مستمدين من عقولهم وإدراكاتهم وإراداتهم ومعرفتهم بنقـاط القوة والضعف في الشخصيـات الاجتمـاعيـة ، كـان ذلـك أكثر انسجـامـاً مـع أصـول الديمقراطيـة ، وبذلـك ينال الناس إحدى أمـانيهم في تسلق قمة الحـرية ، ويستطيعون أن يؤسسوا أسس مجتمعهم وفقاً لآمالهم وثقافتهم وأخـلاقهم ، ويمسكون بذلك على العمود الفقري لنظام حكومتهم . أما إن لم يكن كذلك بل ردت أيديهم عن الأخذ بزمـام الاختيار في تعيين القـائد وانتخـاب الإمام الذي يتكفل رعـايتهم ، وكان الإمـام خليفة الـرسول (صلى الله عليـه وآله وسلم) كحاكم مطلق في مصيرهم متعيناً منصوباً عليهم (مئـة بالمئـة) كان الناس إنما ينظرون إليه كحاكم مستبد مفروض عليهم .

والردّ : إن هذا التصور ناتج عن تصورهم أن كون الإمام متعيناً منصوباً عليهـم يعني أن يكـون حـاكمـاً مستبـداً بهم . في حين أن الاستبــداد في الأنظمة السياسية في العالم إنما يتحقق عن طريق انقلاب عسكـري أو ثورة داخلية أو تدخل دولة أجنبية ، والحكم في الحكومة المستبدة إنما هو لـرأي الحاكم ونظره وقراراته الشخصية الفردية فقط .

أما من يعتقد بنظام الإمامة ، فهو يقول بوجود موازين ثـابتة لا بـد أن تتـوفر فيمن يتولى مقام الإمامة ، أما من لم تتوفر فيه تلك المقاييس فلا يمكن أن يترأس المجتمع الإسلامي بعنوان الإمامة ؛ فالإمام متعيّن منصوب ومعناه : أن الله خالق الإنسان والعارف به على الإطلاق ، وبأثر محيطه وبيئته فيه وأثره فيهما ، والعالم المطلق بمصالحه ، يختار لرعاية المسلمين وقيادتهم أحسن وأحرى فرد من البشر ، يمتاز بمميـزات خاصـة من المعرفـة التامـة وصيانـة النفس بل العصمة الكاملة ، بحيث لا تتأثر حياته بالهوى والمطامع الذاتية ، في حين لا يتمتع بحق وضع القوانين والأحكام الشرعية الأصليـة (الأحكام الأولية) بل بما أن الرؤية الإسلاميـة ترى أن الله هـو المشرع الأصـل ، فلا يستند الإمام إلا إلى الأحكام والأوامر الإلهية التي أوحيت إلى القلب الطاهر لرسول الإسـلام (صلى الله عليه وآلـه وسلم) ولا يستوحي في أطـروحاتـه وبرامجه مما عدا مدرسة الوحي الإلهي ، بل يحاول أن ينفذ أحكام الإسلام حسب تكليفه الشرعي .

وإذا كان الله هو مبدأ التقنين ، فإن القوانين الشرعية تشمل المصـالح الحقيقية للإنسان ، أي أنها من ناحية تنسجم مع فطرة الإنسان ، ومن ناحية أخرى تحقق العدالة في الحياة الإنسانية بصورة عامة ، ومن ناحية ثالثة تمهد الأرضية الصالحة لتربيته ليتجه وجهته التكاملية في مدارج كمال الوجود .

وإذا كان الحاكم مختاراً من قبل الله تعالى وله الحكم المـطلق ـ كان مبرأ من أي نوع من أنواع التلوث بالمعاصي والآثام ، ولم يكن يفكر إلا في خير الناس ومصلحتهم وهدايتهم ، وبناء مجتمع طاهـر متكامـل مبتنى على العدل . وهذه الحكومة لا تنسجم مع أي تعدٍّ على حقوق الآخرين فضلاً عن سحقهم وظلمهم وهضمهم .

بل إن هذه المحدودية التي تتحدد بها حرية الـرأي العام في مـدرسة الدين الإلهي لا تضادّ حقهم في الحكم ، وإن المجتمع بنفسه قد قبل هـذا النظام الديني الحاكم عليه ، بكـل حريتـه ورضاه بـل تعلق قلبه بـه ، وهذا

النظام هو الذي يحدد الحكومة الوطنية والقومية بحدود يراها ضرورية ، والأمة بقبولها لأصل الدين والرسالة السماوية فقد ركزت حقها في الحكم في إطار القرار الديني .

وفي الحكومة الديمقراطية التي تتعين على أساس رأي الأكثرية ، إنما يكون نظر الحاكم إلى أهواء الناس واتّباع الرأي العام ، من دون أن يتقيّد بمشروعية تلك المطاليب، فإن أهواء الإنسان إنما تتأثر بالظروف والأوضاع والأصول التي ينشأ فيها ، ولها بدورها أكبر الأثر في أفكاره ، ورؤاه في التاريخ والمجتمع والفرد ، وكذلك على القوانين والأنظمة التي يسعى أن يختار أحسنها لمجتمعه ، وهي تجره في اتجاهاته نحو الأهداف التي استهدفها لنفسه حسب رؤيته .

إنما الذي يهم السياسي في هذه الحكومة هو أن يسعى ليوفق بين نفسه وبين أفكار الأكثرية ، ثم لا يبالي أن تكون أعماله التنفيذية والاجتماعية متفقة مع العدالة ، بل إنما يفكر في أن يحفظ لنفسه تلك المزايا السياسية والاجتماعية التي كان قد حصل عليها ، حتى مع غض النظر عن رأيه الشخصي الذي يراه حقاً، بل يمكن أن يسحق الحقائق أحياناً لكي يصون بذلك موقعيته على الصعيد السياسي ولا يخاطر بها. وقلة جداً تلك الشخصيّات التي لا تتهيب الرأي العام وإنما تحاول أن تتخذ ذلك القرار الصالح للأمة .

كتب أحد الكتاب السياسيين المعروفين « فرانك كنت » يقول :

« إن الحصول على الرأي الأكثر موضوع مهم جداً بحيث لا يمكننا ـ في سبيل الحصول عليه ـ أن نسمح لعناوين كالأخلاق والحق والباطل أن تتطرق فتمنعنا من الوصول إليه »[١] .

---

(١) مزايا الشجعان : ص ٣٥ (عن الفارسية) .

أجل هذه هي طريقة الانتخابات الحرّة في عالم اليوم حيث يتلاعبون فيها بالحقيقة والوجدان ، ومع علمنا هنا بهذه الحقيقة لهؤلاء الحكام الديمقراطيين جداً ، فهل من المناسب واللائق أن يكون تعيين خلفاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بهكذا أساليب ، وأن يحكموا الناس بها ؟ فيجتمع منهم جماعة في مجمع فيختاروا للخلافة ـ بأفكارهم ـ فرداً منهم ، ويوكلوا إليه الأمر ؟.

وكيف يمكن لفرد جاهل بالثقافة الإسلامية ومباني الدين وفروع الأحكام الشرعية ـ إذا كان زعيم المسلمين ـ أن يبني مجتمعاً إسلامياً مئة بالمئة وينفّذ أحكام الله في المجتمع بدقة وأمانة ؟ ! وإذا استجدت حادثة فكيف يقدر أن يستنبط القرار المناسب لتلك الحادثة المستجدة التي لم تكن من قبل ليعلم حكمها ، كيف يستنبط حكمها من الأحكام الكلية للشريعة ، ثم كيف يجعل ذلك الحكم مورد التنفيذ ؟ ! .

ثم إن الأقليات المعتبرة تبقى في الحكومات الديمقراطية مهملة ، وعندئذ تبقى هذه الطبقة ـ ولعلها تكون عظيمة كنسبة ٤٩٪ ـ مستسلمة لآراء الأكثرية أي ٥١ ٪ ، وإن الإعراض عن آراء هذه الطبقة العظيمة من البشر ليس من العدل في شيء قطعاً ، فما الدليل على أن يكون غير الأكثرية مسؤولاً أمام الأكثرية ، والأكثرية تستطيع أن تسلب من بقية المجتمع حرّيتها وإرادتها ؟ مهما حاولنا أن نقول بأن ذلك مما فيه صلاح المجتمع عامة ، فإن ذلك لا يشكّل دليلاً على النفوذ الشرعي ولا يوجب إلزاماً ومسؤولية شرعية ، فما هي الجريمة التي ارتكبتها الأقلية لتستسلم لآراء الأكثرية ؟ ولماذا تكون طاعة الأكثرية والتقيّد بأنظارها واجباً إلزامياً على الأقلية ؟! .

وكذلك القوانين التي يتم التصويت عليها بالأكثرية تطبق على جميع الشعب ، في حين أن ميول الأكثرية ، قد تتجه إلى جهة ضارة بالمجتمع تخل بنموه وتقدمه واطّراده .

وبالتالي فالحق إن كان حقاً فلا يصبح باطلاً بقلة أهله ، والباطل إن

كان باطلاً فلا يصبح حقاً بكثرة أهله . صحيح أن رأي الأكثرية يقع موقع التنفيذ دائماً ، ولكن ذلك لأنه أقل عيباً من غيره ظاهراً ، وإلاّ فليس هو سمة الحق دائماً فإنه لا دليل يثبت أن ما تتوجه إليه الأكثرية أقوم وأحسن مما تتجه إليه الأقلية ، أو أن رأي الأكثرية يجب أن يكون مبدأ التقنين ، وتبنى عليه حياة الإنسان(١) .

أما في الدول الشيوعية التي تدّعي أنها ديمقراطية في إطار الماركسية ، فإننا عند تحليلها نجدها من نوع حكومة القوة ، إذ أن الحكم المطلق هو للحزب فقط ، فهو الذي يحمل الشعوب على ما يريد .

بينما لو كان الاختيار من قبل الله تعالى ، فالحكم حينئذ في واقعه لله تعالى ، وذلك ما يتقبله المجتمع المؤمن برحابة صدر ،والعقل يؤيّد ضرورة الالتزام بطاعته في تشريعاته، ثم يحظى الإنسان المتعهد بالعمل بأوامره بسعادة الدنيا والآخرة . ولا معنى للأكثرية والأقلية هنا، إذ الحكم هنا حكم الله تعالى ، وهو مبدأ الوجود ودينه برنامج لكمال الإنسان والعبد مسؤول أمام مولاه ، وقد أنعم على عبده بنعم لا تعد ولا تحصى . فله حق الطاعة وعلى أساس هذا الحق فإن أوامره وأحكامه توجب على عباده المسؤولية أمامه ، تلك الأوامر التي شرعت على العدل مع ملاحظة السنن الطبيعية والاجتماعية ومع الإحاطة بحقيقة العلاقات الإنسانية العامة والخاصة ، ولم تشرع إلا لصالح الإنسان وخيره وبما يضمن سعادته واعتداله ولا يمكن أن نتوهم فيه أثراً للدوافع الذاتية والمصالح الشخصية والمنافع والأنانية .

إن المجتمع المؤمن بالله لا حاجة له إلى أن يتابع آراء الأكثرية التي من الممكن أن تتجه في مختلف الموارد إلى غير الصواب ، وأن تخرج آراؤهم وأحكامهم خطأ وخلافاً للواقع والحقيقة .

---

(١) إنما أورد المؤلف هذا النقد على العمل برأي الأكثرية في تشريع القوانين بصورة عامة ، ولا يقصد به إيراد النقد على العمل برأي الأكثرية في الأحكام الثانوية في منطقة الفراغ في إطار الأحكام الشرعية الأولية .

وما أكثر أولئك الذين كانوا محط آمال المجتمع البشري في بركاتهم وخيراتهم ، ونذلك عمد الأكثرية إلى أن أحلّوهم كرسي الحكم بآرائهم ، ولكن سرعان ما تبدلت الآمال إلى اليأس ، والمحبة والمودة المتبادلة إلى عداوة !! .

وهكذا بإمكاننا أن ندرك أن آراء الأكثرية ، التي تحصل من التجارب الاجتماعية خليطة بالخطأ والخطل في القول والعمل ، ليس بإمكانها التنظيم العادل للحياة الفردية والاجتماعية للإنسان في جميع جوانبه وأبعاده ، ولا تتمكن من أن تضمن السعادة والصلاح والعدل للبشر .

التشيع في خضم التاريخ

أبرز العلماء والمحققون أنظاراً مختلفة في ميلاد مذهب التشيع وتاريخ ظهوره ، ومنهم من واجه المسألة وأبدى رأيه فيها بناءعلى مبانيه النظرية وخطه الفكري واتجاهاته الخاصة ، لا موضوعياً متجرداً .

هنالك من يرى أن التشيع إنما ظهر بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأن بذرة التشيع إنما نمت حينما تصدّت الصحابة لتعيين خليفة للنبي . فاليعقوبي مثلاً يقول :

« وتخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي ابن أبي طالب ، منهم العباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، والزبير بن العوام ، وخالد بن سعيد ، والمقداد بن عمرو ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، وأبي بن كعب »[1] .

ويقول آخرون : إن التشيع إنما ظهر على عهد خلافة علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

ويقول آخرون : إن التشيع إنما قام على قدميه في أواخر خلافة عثمان .

---

(١) اليعقوبي ٢ : ١١٤ ط النجف

وآخرون يرون أن الإمام الصادق (عليه السلام) هو مؤسّس مدرسة التشيّع ! .

وصدّق أناس بأن أساس التشيع إنما بني على أساس إرادة الإيرانيين للانتقام من العرب المسلمين ، وأن التشيع إنما نشأ من المقاصد السياسية ، أو أن الغالب فيه ذلك ! .

وبعض يرى أن التشيع ظاهرة طارئة على المجتمع الإسلامي ، ولم يكن له وجود بارز وظواهر أو مظاهر خاصة يمتاز بها ، بل إنما اتّسع بفعل التطورات الاجتماعية والأصعدة السياسية المتأخرة عن صدر الإسلام وعلى مر الزمان !

وبشأن ميلاد هذا الجزء من أجزاء جسد الأمة الإسلامية يرى البعض أنه نتاج أفكار شخصية موهومة باسم « عبد الله بن سبأ » فينسبون الفكر الشيعي إلى ذلك الرجل المتخيل ، ويبنون كل إدراكهم وأفكارهم وعواطفهم وأحكامهم حول التشيع على هذا الأساس ، وهم على أساس هذه الظنون إنما يقيّمون التشيع وكأنه استثناء طرأ على المجتمع الإسلامي ناشزاً عنه(١) .

هذه المزاعم ونظائرها إنما هي تهم تتسم بالعناد ، وإنما وقعت هذه المحاولات سعياً إلى ستر الحقيقة والواقع ، أو أنها نشأت من الجهل بالثقافة الأصلية والتراث الغني الإسلامي في التشيع ، وإلا فالواقع غير هذا قطعاً .

وقد كتب الدكتور طه حسين المحقق المصري المعروف ، في الجزء الثاني من كتابه « الفتنة الكبرى » يقول :

« وأقل ما يدل عليه إعراض المؤرخين عن السبئيّة وابن السوداء في حرب صفين : هو أن أمر السبئيّة وابن السوداء إنما كان متكلفاً منحولاً ، قد

(١) للمزيد من المعلومات حول هذا العنصر الموهوم يراجع كتاب « عبد الله بن سبأ » للمحقق القدير السيد المرتضى العسكري . أو عبد الله بن سبأ بين الواقع والخيال للسيد هادي خسرو شاهي .

اخترع متأخراً حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية : أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم . ولو قد كان أمر ابن السوداء مستنداً إلى أساس من الحق والتاريخ الصحيح لكان من الطبيعي أن يظهر أثره وكيده في هذه الحرب المعقدة المعضلة التي كانت بصفين ، ولكان من الطبيعي أن يظهر أثره حين اختلف أصحاب علي (عليه السلام) في أمر الحكومة .

وكتب الدكتور محمد كرد علي المحقق المعروف في الجزء السادس من كتابه « خطط الشام » يقول :

« أما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن أصل مذهب التشيع من بدعة عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء . فهو وهم وقلة علم بحقيقة مذهبهم . ومن علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة وبراءتهم منه ومن أقواله وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم في ذلك ، علم مبلغ هذا القول من الصواب . بل لا ريب في أن ظهور الشيعة كان في الحجاز بلد المتشيَّع له ، وكان التشيع هناك ضعيف الحول ولكنه مكين في قلوب أهله ثم استفحل أمره في العراق زمن خلافة علي (عليه السلام) »[1] .

وكتب الدكتور علي الوردي من أساتذة جامعة بغداد يقول ما فحواه :

« هل كان لابن سبأ وجود خارجي أم هو شخصية خيالية ؟ هذه مسألة لها الأهمية الكبرى بالنسبة لمن يريد أن يقرأ ويحقق في التاريخ الاجتماعي للإسلام . وأنا أقول : إن ابن سبأ الذي يقولون عنه إنه كان هو محرك الفتنة إنما هو شخصية خيالية ، ويبدو أنهم متعمدون في اختلاق هذه الشخصية العجيبة . وقد اتهمت قريش محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) في بدء دعوته أنه إنما يتلقى تعاليمه من عبد نصراني يسمى « جبر » وما يقوله إنما هو

---

(١) خطط الشام ٦ : ٢٤٦ ط بيروت .

من تعاليم ذلك العبد النصراني »[1] .

وبإزاء هذه الآراء يروي المحققون أن أطروحة التشيع إنما جاءت على لسان الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن أساس التشيع إنما تكوّن بإشارة رسول الله (صلى الله عليه وآله) :

كتب حسن بن موسى النوبختي في كتاب (المقالات والفرق) يقول :

« فأول الفرق: الشيعة، وهي فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه ، والقول بإمامته ، ومنهم المقداد بن الأسود الكندي ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري ، وعمار بن ياسر المذحجي ، المؤثرون طاعته، المؤتمّون به، وغيرهم ممن وافق مودته مودّة علي بن أبي طالب ، وهم أول من سمّوا باسم التشيع من هذه الأمة ، لأن اسم التشيع قديم ، شيعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء »[2] .

وكذلك يؤكد المحققون من علماء الشيعة على هذه النظرية ، ويروون عدة روايات تفيد أن مبلّغ الإسلام الأول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي أطلق كلمة «الشيعة» على أتباع علي (عليه السلام) وأنصاره .

روى المفسرون والمحدثون من أهل السنة في شأن نزول هذه الآية الكريمة : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾[3] أخرج الحافظ جمال الدين الزرندي عن ابن عباس : أن هذه الآية لما نزلت قال (صلى الله عليه وآله وسلم)لعلي : « هو أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك

---

(١) نقلاً عن هامش ص ٢٣٦ للترجمة الفارسية لحياة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لهيكل . ويراجع كتاب : عبد الله بن سبأ بين الواقع والخيال للسيد خسرو شاهي تعريب الشيخ حسين الكوراني

(٢) المقالات والفرق : ١٥ .

(٣)سورة البينة : الآية ٧ .

يوم القيامة راضين مرضيين ، ويأتي أعداؤك غضاباً مقمحين »[1] .

ويروي الطبري المؤرخ والمفسر السني المعروف في ذيل الآية المذكورة : أن الرسول الأكرم هو الذي استعمل هذه الكلمة»[2] .

وعلى هذا فالرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أطلق على جمع من خواص أصحاب علي (عليه السلام) ممن كانوا يقتدون به : كلمة «الشيعة» .

وهكذا نرى أن التشيع من صميم المدرسة الإسلامية بل هو الإسلام بنفسه ، وقد جرى اسمه هذا على لسان الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن كان يضاف إلى لفظة «الشيعة» «الجعفرية» أيضاً فإنما هو باعتبار مساعي الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) في نشر ثقافة الإسلام والتشيع ، حيث كان قد حصلت على عهده فرصة مناسبة لذلك على أثر المصادمات الأموية والعباسية على الخلافة ، وحينما رأى الإمام ذلك الوضع السياسي ، وظهور الأفكار المختلفة ، وابتداع مصادر تشريعية حديثة مثل القياس والاستحسان لاستنباط الأحكام الإسلامية ، بدأ برنامجه التغييري لإصلاح الواقع السيء آنذاك في نشر حقائق الدين وتربية الدعاة الصالحين له .

وقد كتب الكاتب المصري المعروف محمد فكري أبو النصر عن هوية التشيع يقول ما فحواه :

« إن الشيعة لا علاقة لهم بأبي الحسن الأشعري في الأصول ولا بالمذاهب الأربعة في الفروع ، على أساس أن مذهب أئمة الشيعة أسبق من

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر العسقلاني الفصل الأول باب ١١ ص ٩٩ ومناقب الخوارزمي الحنفي : ٦٦ . وفرائد السمطين للحمويني الشافعي ١ : باب ١٣ . وينابيع المودة للقندوزي الحنفي ، الباب ٥٦ . والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي : ١٠٥ . كفاية الطالب للكنجي الشافعي : ١١٨ .

(٢) تفسير الطبري ٣ : ١٢٦ .

سائر المذاهب ، وبالنتيجة فهو أكثر وثوقاً واعتماداً ، وأحرى من سائر المذاهب بالتبعية ، وكذلك هو أجدر بالاتباع لانفتاح باب الاجتهاد فيه إلى يوم القيامة ، وأيضاً فإن هذا المذهب لم يكن ليصاغ متأثراً بالقوى والنزاعات السياسية »[1] .

ويقول الأستاذ أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني :

«وقع كثير من الباحثين ـ سواء في الشرق أو في الغرب ، قديماً وحديثاً ـ في أحكام كثيرة خاطئة عن الشيعة لا تستند إلى أدلة أو شواهد نقلية جديرة بالثقة . وتداول بعض الناس هذه الأحكام فيما بينهم دون أن يسائلوا أنفسهم عن صحتها أو خطئها .

وكان من بين العوامل التي أدت إلى عدم إنصاف الشيعة من جانب أولئك الباحثين الجهل الناشىء عن عدم الاطلاع على المصادر الشيعية ، والاكتفاء بالاطلاع على مصادر خصومهم »[2] .

وهنا بإمكاننا أن نطلع جيداً على مدى الانحراف عن الحقيقة ، وماهية تفكير هؤلاء الذين كانوا يستلهمون الرؤى الطائفية التعصبية البغيضة ، أو يتأثرون بأجواء سياسية خاصة . إن هؤلاء بدلاً من أن يقدموا مصلحة الإسلام والقرآن والقبلة على كل شيء ، كانوا يتسابقون فيما بينهم في نشر التفرقة بين الأخوة المسلمين ، وإنما الذي يضحون به هو الإسلام .

* * *

علينا هنا أن نضيف هذه النقطة ، وهي : أنه لا ينبغي لنا أن ننسب هذه التسمية «بالشيعة» إلى فرقة متفرقة على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فرقة متفرقة عن سائر المسلمين ، بل بما أن جمعاً منهم على عهد

(١) مقدمة المراجعات ط القاهرة : ١٠ .

(٢) مع رجال الفكر في القاهرة : ٤٠ـ٤١ .

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يرون أن علياً هو أفضل ممن عداه بمراتب كثيرة في العلم بحقائق الإسلام العظيم والقيم والأهداف الرسالية ، لذلك كانوا قد انشدّوا إلى بصيرته النافذة وتفوقه في عقيدته ومعرفته بمبدأ الكمال ، بل بمجموع القيم الأخلاقية له (عليه السلام) فكانوا في سعيهم للتعالي في المراتب المعنوية يستوحون منهجه في سيرته كأكمل قدوة إنسانية وشخصية ممتازة استأثرت بعناية الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

نعم ، إن الشيعة كفرقة إنما ظهرت بعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أبى خواص أصحاب علي (عليه السلام) أن يمدوا أيديهم بالبيعة لأبي بكر على خطى السقيفة [1] بل تظاهروا بذلك دفاعاً عن النصوص الصريحة والقطعية الدلالة التي عينت علياً (عليه السلام) ولياً لأمر المسلمين، واعتراضاً على قرار السقيفة بإهمال إمامة الإمام توجيهاً وتأويلاً لمصلحة الإسلام والمسلمين ، وبذلك افترقوا عن الأكثرية . إذ أراد هؤلاء أن يكون علي بن أبي طالب (عليه السلام) هو الذي يستقر على مسند القيادة الفكرية والسياسية للأمة بعد النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى هذا فقد تأسس التشيع لعلي (عليه السلام) منذ ذلك الزمان .

أجل ، إن الذي أصبح محور الاختلاف والبحث والجدال بعد رحيل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنما هو مسألة القيادة الاعتيادية ، لا مقام الإمامة التي هي الواجهة الروحية والمعنوية لرسول الله من الله ، ثم إلى الإمام من بعده ، ففي جلسة السقيفة لم يطرح أحد شيئاً حول اختيار إمام أو اتخاذ قرار بهذا الصدد ، ولم تتحقق أية محاورة بشأن تعيين الإمام ومقام الإمامة .

فهل كان تركهم هذا البحث حول مسألة الإمامة لأنهم لم يكونوا يشكّون

---

(١) الطبري ٢ : ٤٤٦ .

أو يشككون في القيادة المعنوية والروحية لعلي (عليه السلام) أو أن المدّعين للخلافة حيث كانوا فاقدين لشرائط الإمامة لذلك لم يدّعوا هذا المقام المعنوي والروحي ؟ فحقيقة الأمر واضحة .

أجل ، لم تكن مسألة الإمامة مطروحة على طاولة البحث إلى مدة ، وإنما بدأ طرحها والبحث حولها بعد وفاة عدد من الخلفاء الأولين ، فمعاوية مثلاً هو أول من سمى نفسه إماماً !

في كتب التواريخ وعلماء أهل السنة إنما كان الكلام عن الخليفة والخلفاء،ولكنهم مع هذا بالنسبة إلى علي وأبنائه المعروفين بإمامة الشيعة يذكرونهم بعنوان الإمام . والمبحوث عنه في مباحث علم الكلام هو الإمام ومسألة الإمامة . والشيعة حسب عقيدتهم يرون أن من الضروري الالتزام في شخص الإمام وخليفة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بموازين دينية دقيقة ومنها التقوى التامة الكاملة، أي العصمة ، بالإضافة إلى سلسلة من المميزات الأخرى .

وقد كتب أحد التلامذة البارزين للإمام الصادق (عليه السلام) وهو هشام بن الحكم ، كتب كتاباً في الإمامة بحث فيه حول هذه المسألة بنفس العنوان «الإمامة» .

* * *

إن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) كان يجمع إلى مقام النبوّة بمعنى تلقي الوحي وإبلاغه إلى الناس ، أنه كان حاكم المسلمين ووليّ أمرهم ؛ وحينما نظم المسلمون أمرهم في المدينة كانت إدارة جميع الأمور الاجتماعية والسياسية من نصيب الحكّام والأمراء والقادة والقضاة ؛ وتقسيم الغنائم وأمر الحرب والسلم من صلاحيات واختيارات شخص الرسول (صلى الله عليه وآله) فكان هو يقوم بتنفيذ المقررات والقوانين الإلهية في

الناس حسب تكليفه الحكومي والإداري والسياسي ، وكان الناس مكلفين بإطاعة أوامره . وهكذا كانت سمة الحكومة وإدارة المجتمع وإقرار النظام والأمن العام جانباً من نبوّة الرسول (صلى الله عليه وآله) . وبكلمة : فقد كان مقام النبوّة والقيادة المعنوية وكذلك الحاكمية والإمارة قد تمركزت على عهده في شخصه .

والذي أصبح بعد وفاته محور الجدال والنزاع والتجاذب إنما هو سمة حكومة وقيادة الرسول ، وكذلك كان الذين يفكرون في امتلاك الحكومة والقيادة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يدّعون علاقة بالله لتلقي الوحي ، ولم يكونوا يدّعون الإمامة والخلافة الروحية للناس ، بل كانوا يلخصون كل دعواهم في الأخذ بزمام الحكومة وإدارة أمور المسلمين فحسب ، وكانوا يوجهون عملهم هذا بأن عليهم أن لا يتركوا المجتمع الإسلامي المنتظم آنذاك يختل وينحلّ ، وذلك بحسن سياسة الخليفة وحسن تدبيره .

فنرى أبا عبيدة ، حينما بايع الناس أبا بكر بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقترح على علي (عليه السلام) بقوله :

« يا بن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به ! فسلم لأبي بكر هذا الأمر ، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق ، وبه حقيق ، في فضلك ودينك ، وعلمك وفهمك ، وسابقتك ونسبك وصهرك »

فقال علي (عليه السلام) :

« الله الله يا معشر المهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم . ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه ، فوالله ـ يا معشر المهاجرين ـ لنحن أحق الناس به لأنّا أهل

البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، المدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ، والله إنه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعداً »[١] .

---

(١) الإمامة والسياسة : ١١ ، ١٢ ط الحلبي . وفي نهج البلاغة واحتجاج الطبرسي مثله

من هم أولو الأمر

إن مسألة « أولي الأمر » من الموضوعات المثيرة للبحث والجدال التي أصبحت موضع التفات المسلمين في ذلك المقطع من الزمان ، والتي كانت ذات علاقة بالحوادث الكائنة بعد وفاة رسول الإسلام ، وضمن البحوث والمجادلات اللفظية حول مسألة خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله) .

بعد أن تم أمر بيعة الناس لأبي بكر ، تقدم أبو عبيدة بن الجراح إلى علي (عليه السلام) يقول :

« يا بن عم : إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمر ، ولا أرى أبا بكر إلاّ أقوى على هذا الأمر منك ، وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به فسلم لأبي بكر هذا الأمر »[1] .

ولم يقصد من كلمة الأمر شيئاً سوى مقام الحكومة والقيادة .

والقرآن الكريم يصدر أمراً إلى المسلمين يدعوهم إلى إطاعة أوامر الله والرسول وأولي الأمر ، فيقول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم ، فإن

(١) الإمامة والسياسة : ١١ ، ١٢ ط الحلبي .

تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾[1] .

إن هذه الآية تعين لنا المرجع الواقعي للمسلمين في مختلف المسائل الدينية والاجتماعية .

تبدأ أولاً بأمر المؤمنين بأن يذعنوا لأوامر خالق العالم والعالمين الذي هو أصل الوجود وربّه ومالكه ، أن يذعنوا له بلا أي قيد أو شرط ، وإنما تبدأ الآية بهذا إذ القيادات يجب أن تستمد منه وتنتهي إليه . وهذه الطاعة هي مقتضى خالقيته وحاكميته المطلقة . وبما أنه هو مبدأ التشريع والتقنين وإصدار الأوامر والنواهي ، فلا يكون دور الرسول (صلى الله عليه وآله) في رسالته سوى تلقّي الوحي الإلهي وإبلاغ أوامره .

ثم ثنّت الآية بالأمر بتبعية أوامر الرسول الذي هو ممثل الله بين عباده ، والذي هو معصوم مصون عن الخطأ والخطل في القول والعمل : **﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحي يوحى * علمه شديد القوى ﴾** . وله بالإضافة إلى إبلاغ سلسلة من الرسالات الإلهية والأوامر الحقة أطروحات وبرامج تخصه لتنفيذ أحكام دين الله ، ونوع من السياسة الخاصة التي يتخذها بشأن المسائل الاجتماعية ، فهي من لوازم الحكومة ، وتشخيص الأمر في ذلك يرجع إلى القائد الديني الأعلى ، فله أن يصدر أوامره فيما يرى مصلحة الأمة فيه ، مع ملاحظة الظروف والشرائط الخاصة ، وبما يؤدي إلى حفظ التوازن في المجتمع الإنساني والإسلامي ، وفي مختلف الأصعدة المستمرة والمتغيرة المستجدة ، فالتشريع والتقنين في هذه الأمور مفوّض من الله إليه ، فهي تكتسب نفوذها ومشروعيتها من ذلك المولى الحقيقي المطلق .

وحسب ما مر اتضح أن طاعة الرسول بأمر الله هي في الواقع نوع من

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

الطاعة لله تعالى ، فالمخالفة معه في الحقيقة مخالفة مع الله الخالق ؛ والقرآن الكريم يبين هذا الموضوع في الآية التي تقول :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾[1] .

وعلى هذا فإن إبلاغ أي قرار من جانب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يكون بمثابة إبلاغ أوامر الله تعالى .

وثلّثت الآية القرآنية في أمر الناس بالطاعة : لأولي الأمر ، الذين قرن الله طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله ، أي أولئك الذين إليهم ينتقل منصب القيادة والحكومة الخاصة للرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وإليهم تفوض قيادة المجتمع الإسلامي في جميع شؤون الحياة من جانب الله والرسول ، وهم حفظة دين الله ودنيا الناس ، فلهم أن يصدروا أوامرهم لإدارة أمور مجتمع المسلمين في إطار القرارات الشرعية ، ويكلفوا الناس بتنفيذها وتطبيقها . إذن فلزوم الطاعة لأوامر أولي الأمر مسألة قطعية لا ريب فيها ، إنما البحث والجدال والقيل والقال على صعيد مصاديق أولي الأمر .

والآن لنر ماهو مقصود القرآن من أولي الأمر ؟ فهل أن من يستولي على رئاسة الحكومة الإسلامية ويقبض على أمور الدولة فيها فينفذ أوامره في الناس ، هو ولي الأمر بمنظار القرآن الكريم ؟ بمعنى أن من تمكن من الاستيلاء على مقام القيادة تجب طاعته على الجميع ولا تجوز مخالفة أوامره ؟ مهما كانت حياته تغط في ظلمات الضلال والجهل ، وكان كيانه خلواً من الفضائل المعنوية والروحية ؛ يواجه أحكام الله وأوامره كأجنبي عن دينه ، فهو يلعب بشؤون الإنسان وحقوقه في محيط قدرته واستبداده ، ويقوم نظام حكمه الجبار بإيصال الظالمين والمفسدين في المجتمع ممن تقرب إليه إلى العزة المصطنعة والحكم الإلزامي ، ليقوم أولئك بدورهم بخنق أصوات

---

(١) سورة النساء : الآية ٨٠ .

المظلومين في حناجرهم ويكون الأمر كما في بعض الأدعية: « فقتل من قتل وسبى من سبى ، وأقصى من أقصى » أفهذا هو معنى أولي الأمر في القرآن ؟ ! .

إن كان هذا هو المفهوم من النص القرآني كان التناقض في صدر الآية مع ذيلها مما لا مفر منه، وذلك فيما إذا أصدر الزعيم أمراً خلاف أوامر الله. فصدر الآية يقول : ﴿ أطيعوا الله ﴾ ، بينما ذيل الآية يقول : ﴿ وأولي الأمر منكم﴾ فأي الأمرين هو المقدم ؟ هل أمر الله أم أمر ولي الأمر؟ وهما هنا لا ينسجمان ، بل الأمر ينتهي هنا إلى اجتماع الأمر والنهي في مورد واحد وباعتبار واحد !(1) .

وقد يكون من لوازم هذا الاستنباط الانقياد لإرادة كل من ولي الأمر وإن كانت أوامره تناقض الأحكام الإلهية وتنافيها . إن هذا مما لا تقبله العقول .

وكيف نصدق بأن الله تعالى يعبىء أنبياءه لتنفيذ الأحكام الإلهية ، مستعدين لتقديم أرواحهم لصيانة الجوهرة الأصيلة من تعاليم الأديان ، وبسط القسط ونشر العدل، ومن ناحية أخرى يرى لزوم طاعة الناس لأوامر الذين لم يقوموا بخطوة واحدة لحفظ كيان الأمة وتبيين أحكام الدين، بل الذين يريدون أن يجعلوا أتعاب الأنبياء أدراج الرياح ويسحقوا القانون الإلهي ؟ فهل أن الفلاح والسعادة الاجتماعية في تبعية هؤلاء الأمراء ؟ وهل للمسلمين أن يبلغوا العزة والسعادة في ظل هذه الحكومات ؟ وهل لنا أن ننسب أمراً كهذا بعيداً عن اللطف والحكمة إلى الله تعالى ؟ .

نعم ، من الممكن أن نقول بحصر طاعته فيما إذا كان حكمه يطابق المقاييس الإلهية ، فإذا خطا خطوة خلاف أحكام الله كان على الأمة المسلمة

---

(1) انظر بهذا الصدد بحث العلامة الطباطبائي في الميزان ٤ :٣٨٨ ـ ٤٠٠ ط بيروت فهو بحث موسع ضاف حول مُفاد هذه الآية .

أن تقوم بوجهه فترده إلى حده .

ولا يمكن غض الطرف وصرف النظر عما يرد على هذا الكلام من الإشكال :

إذ من الواضح أن جميع الناس لا يعرفون الأحكام الإلهية كيما ـ إذا واجهوا أحكاماً خلاف الشرع ـ يقوموا بواجبهم فيردوا الحاكم إلى حده . وإذا كان أكثرية الناس غير مجهزين بالمعارف الدينية ، فكيف يمكنهم أن يشخصوا وظيفتهم في مواجهة أوامر الأمراء ؟ أي يتابعوهم في كل أمر مطابق للمقاييس الدينية ، ويقوموا بمخالفتهم بالنسبة إلى ما يصدر منهم على خلاف الأحكام الإلهية .

وإذا افترضنا صحة ذلك وصدقه ، كانت تبعيتنا لأوامر الحاكم فيما يوافق أحكام الله في الواقع تبعية لأوامر الله ، لا حكم الحاكم ، وعلى هذا كان الأمر بطاعة أولي الأمر لغواً من الكلام .

ومن ناحية أخرى ينفتح الطريق بهذا لكلّ فرقة فيما إذا رأت قراراً خلافاً لمصالحها أن تتخلف وتتمرد على الأوامر وتعصي الأمراء والحكام وأولي الأمر ، وحينئذ يضعف حسن الطاعة في الأمة بصورة ملحوظة . « وما وراء عبادان قرية » . وعندئذ تتزلزل أركان المجتمع وينتهي الأمر في الأخير إلى انفراط النظم والانضباط فيه . إذن فلا يمكن أن نحمل مفاد الآية المذكورة على هذا الفرض بأي وجه .

أما إذا افترضنا أولي الأمر في الآية مطبقاً على زعيم مختار بالانتخاب عن طريق الأراء العامة ، ففضلاً عن أن هذا مما لا يمكن أن نصل إليه من الإمعان في معنى الآية ، فإن ما أمر به القرآن هو طاعة أولي الأمر ، أما كيف يتوصل هؤلاء إلى هذا المقام ومن أي طريق ؟ فتكون الأمة الإسلامية من ثَمّ مكلفة بإطاعتهم ، فالآية ساكتة عن هذه الخصوصيات ولا نرى فيها شيئاً يمكننا أن نستند إليه .

والإشكال الذي كان يرد على التفسير السابق يشمل هذا الفرض أيضاً .

وعلى هذا ، وبالنظر إلى هذه الإشكالات ، لا يبقى طريق لمعنى الآية ومعرفة هوية القائد الحق ، إلا أن نعرض عن هذين التفسيرين ، ونصرف النظر عن هذين الاحتمالين في معناها .

ولا يبقى لنا إلا طريق واحد بإمكانه أن ينقذنا من هذا الطريق المسدود ، فيهدينا سواء السبيل والصراط المستقيم الموصل إلى المطلوب ، وهو أن نقبل أن يكون تعيين الزعيم الحاكم من حق الله تعالى ، وأنه هو الذي له وعليه أن يختار ويعين ذلك العنصر الفاضل المستحق للخلافة ، والذي تكون فضائل الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) قد تبلورت فيه ، ويبدو في محياه نور الله ، كي تكون طاعته باتجاه التبعية لأوامر الله والرسول .

صحيح أن رسول الإسلام كان قد بين أصول الدين والفروع الكلية له في حياته تلك القصيرة ، وأنه بلغ بدين الله إلى الكمال ، وبالإمكان أن تصبح هذه القواعد الكلية أساساً لاستخراج الأحكام الإلهية التي يحتاج الناس إليها إلى يوم القيامة . ولكن ماذا نفعل بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ أفلا يحتاج الناس بعده إلى مرجع ديني يقضي لهم حوائجهم الدينية وغيرها ، وليتمكنوا معه وفي ظلال القرآن وأصول السنة أن يستخرجوا حاجاتهم في مختلف الحوادث ولا سيما الحوادث المستجدة التي لم تكن على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟

لقد انقضت ثلاثة عشر عاماً من عمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الكفاح مع مشركي قريش الذين كانوا يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ،وأن لا يتطرق النداء التحرري الإسلامي إلى مسامع طلاب الحق والفضيلة ، فصرف ما بإمكانه لتحقيق حقائق التوحيد ونفي عبادة

الأصنام وتقرير المواقف الحقة ، حتى جعل بذلك أفكار المجتمع مستعدة لاستيعاب تلك الثقافة الثرية ، ولم تبق له فرصة لبيان الأحكام الإلهية وعرض المسائل والفرائض والسنن الدينية ، ولهذا فقد أوكل بيان الأحكام إلى فترة أخرى .

وفي المدينة أيضاً لم يكن الرسول (صلى الله عليه وآله) فارغ البال ، فقد واجه في هذه المدة القصيرة (عشر سنين) تلك المشكلات الجمة ، حتى استوعبت أوقات الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) مؤامرات المنافقين من ناحية وغزواته وحروبه مع المشركين واليهود من ناحية أخرى ، حيث شارك هو بنفسه في هذه الحروب أكثر من عشرين مرة ، ولهذا السبب لم تبق له الفرصة الكافية لمتابعة دعوته الحقة ، كي يضيف سائر الناس المستعدين لقبول دعوة الحق إلى المجتمع الإسلامي . وعلى هذا ، أفلم يكن من اللازم لما بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) أن تتعهد شخصية ممتازة بعمل حفظ وصيانة أحكام الله عن التحريف ، وكذلك بتفسير ونشر الثقافة الإسلامية في فروعها المختلفة وحسب اختلاف الظروف ؟ أفلا يحسّ المسلم حينئذٍ بلزوم وجود شخصية معصومة عن المعاصي والآثام قد صورها بارئها بنفحاته الربوبية وأنواره الربّانية ؟ .

إن ولي الأمر الذي يأمر الله بطاعته أمراً قطعياً ثابتاً وبهذه الصراحة ، ثم يقرنه من حيث الطاعة بنفسه وبرسوله ، يجب أن يكون طاهراً مطهراً معصوماً منزهاً عن كل زلة وعثرة وعصيان وآثام ، فكما كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في مأمن من الحرام على كل حال ، كذلك يجب أن يكون ولي الأمر أيضاً يتمتع بهذه العصمة .

أجل ، إن أولي الأمر الذين جعل الله طاعتهم عِدْلاً لطاعة الله والرسول (صلى الله عليه وآله) إنما هم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وهم المعنيّون بأحاديث الرسول ونصوصه وتصريحاته بفضلهم والأمر بمودتهم وتبعيتهم والارتباط بهم .

وإن استنباط أحكام الحوادث غير المتناهية التي تقع باستمرار ، ليس

أمراً يسيراً لكل أحد ، وذلك بالنظر إلى العدد المحدود من الآيات والروايات عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) فإن آيات الأحكام لا تتعدى في المجموع عن خمسمئة آية ، والروايات المنقولة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في موضوع التكاليف الدينية من الحلال والحرام لاتتعدى المئتين ، فبالنظر إلى هذا من هو ذلك الأوحدي من الناس الذي يستطيع أن يستخرج أحكام كل الحوادث المستجدة والمتزايدة في المجتمع الإسلامي من هذين المصدرين المحدودين ، أفهل يتمكن من ذلك أحد إلا من يتمتع بالتعاليم الإلهية الغيبية ؟ .

أما وضع القوانين للمسائل المستحدثة التي تتغير أحكامها بتغير الأوضاع الزمانية والمكانية المختلفة ، فهو أيضاً على عهدة ولي الأمر ، حيث فوض إليه أن يضع أحكامها الثانوية حسب الشروط والصلاحية المخولة إليه ، وإن عدم وجود حكم صريح في هكذا مورد ليس دليلاً على إهمال أو تقصير الشريعة عن بيان الأحكام أو نقصان القوانين الشرعية الأولية ، بل على العكس تماماً ، فهو من قدرة الشريعة على المرونة واتساع نطاقها وشمولها واستيعابها لمختلف الظروف والأحوال .

والاستناد إلى آية إكمال الدين لا يفيد هنا شيئاً ؛ لأنها بناءً على الرواية المعروفة بين المحدّثين نزلت في يوم الغدير بعد نصب الأمير (عليه السلام) للخلافة . وإذا فكرنا وأمعنا النظر في الوضع الموجود يومئذٍ نرى أن هناك خطراً حاضراً هو أن يقع الدين الجديد بعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) موقع الإغارة والهجوم ، وبذلك يتلقى الدين الإسلامي الجديد وموضع الحق فيه ضربات متتالية مؤثرة .

لهذا لم يكن للإسلام أن يطّرد في تقدمه في برامجه لهداية الناس ويستمر فيها ويقيم نظامه على ما هو المطلوب في نظر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) من دون وجود مرجع إلهي منصوب من قبل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنما اندفع ورود هذا النقص بسبب نصب علي

(عليه السلام) لرعاية خلافته في أمته بعده .

والآية ليست بصدد أن تعلن للناس : أن جميع المقررات الإلهية الدينية بكل فروعاتها وعلى جميع الأصعدة قد اكتملت ، فإنه صحيح من ناحية أن الوحي انتهى بوفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنه كان قد تلقى من مبدأ الوجود ما يحتاج إليه الناس إلى الأبد ، وأن التشريع الأولي الإلهي قد انتهى ، ولكننا من ناحية أخرى نرى أنه لم تصلنا أحكام جميع الموضوعات لا من القرآن الكريم ولا في سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن الأدلة الفقهية الموجودة هذه لا تكفي للإجابة في جميع الحوادث المستجدة الطارئة ، وهذا كأثر طبيعي لقصر مدة الرسالة ، والمشاكل المتوالية فيها كانت تمنع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القيام بجميع الأعمال الأساسية اللازمة ولا تدعه يعلّم الناس ما تعلمه من الله .

إن كثيراً من الأصحاب والجيل المعاصر للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا معتمدين على شخصيته الكريمة ، وما داموا مستظلين بظله لم يكونوا ملتفتين إلى ضرورة تعلم الأحكام والمفاهيم الدينية ، وبعد وفاته - مع ما حلوا فيه من المكانة الاجتماعية - كانوا غير مطلعين على كثير من أحكام المسائل التي تتعلق بالعبادات والمعاملات والقضاء وكثير من الأمور الدينية الأخرى، وكانوا ضعفاء من حيث إدراكهم للحوادث السياسية وأحكام الإمامة والخلافة والمعرفة بزمانهم ، فهناك أحاديث كثيرة جاءت في كتب علماء السنة تحدثنا أن الصحابة لم تكن لهم تصورات واضحة بيّنة لكثير من مسائل الإرث والقضاء والحدود والديات وسائر الأمور الدينية .

ومن هنا اقتضت حكمة الرسالة أن تتعرف الأمة على أمور دينها في مدة أطول مما مر عليها على عهد الرسالة ، ولذلك فقد أودع الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) مجموعة من العلوم الإلهية بالفروعات والأحكام الإسلامية مما كان قد تلقاه من طريق الوحي إلى خليفته ووصيه ، ذلك الوصي الذي إنما كان كيانه متشكلاً بالإسلام . وكانت له المعرفة التامة

بالأهداف السامية ، وكان هو يجسدها بنفسه وبكل كيانه . فأطلعه في مدة قصيرة ـ وبالتصرف في روحه وقلبه ـ على جميع حقائق الإسلام وتعاليمه ، وأعده للقيادة ، وأوكل إليه العمل للحفاظ على الثقافة الإسلامية الأصيلة والمعارف الدينية ، ليجعلها بدوره بعد الرسول وحسب اقتضاء الظروف الزمنية تحت تصرف الأمة الإسلامية ، ويعرّف المجتمع بتكاليفه من معين علومه الواسعة .

إن في حياة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) شواهد تدل على أنه كان يخلو بعلي (عليه السلام) ساعات من الليل والنهار ، فيبصره بما عليه أن يعمل فيما يواجه بعده من مشاكل . وحينما كان الإمام يسأله عن شيء كان يرفد فكره بما ينميه ويرشده ، ويجعل تحت تصرفه كل ما لديه من مفاهيم الرسالة وحقائقها .

ولذلك كان هذا الطريق بعد وفاة رسول الإسلام هو الطريق المستقيم للوصول إلى الحقيقة ، والاستغناء عن العمل بالظن والشك والقياس والاستحسان .

إننا لو جعلنا القياس والاستحسان ملاكاً للعمل في الإسلام ، كنا قد بنينا ديننا على أساس الحدس والتخمين الظنيين ، و﴿ **إن الظن لا يغني من الحق شيئاً** ﴾ .

فنرجع في النتيجة إلى أن الأمة ليست بموضع من العلم والفهم والثقافة والمعرفة بحيث تستطيع أن تتعهد بتعيين الخليفة للرسول ، بل على شخص الرسول (صلى الله عليه وآله) أن يعهد بهذه الأمانة الإلهية إلى من يكون كمثله في الحصانة والصيانة ، ولا يغفل عن حراسة دين الله والحق ولا لحظة واحدة .

أما إذا استبدلت الاستنباطات الشخصية بالأحكام الإلهية فإن ذلك سيجرح في برامج الرسالة ، ومما يؤدي بالتالي إلى انحياز المجتمع عن أوامر الله تعالى .

إن التاريخ المسند يشهد بأن المستوى العلمي والثقافي الديني لأولياء الأمور في الإسلام لم يكن بالمستوى الذي يستطيعون معه الإجابة عن الأسئلة الملحة، وإن الحوادث التي استجدت بعد وفاة رسول الإسلام أثبتت أن زعماء تلك العهود كانوا يفتقدون المعرفة الكافية لحل تلك المشاكل وإصدار الأوامر المناسبة ،وقلة معرفتهم بمعارف الإسلام كانت سبباً للانحراف في كثير من القوانين الإلهية عن مسارها الصحيح ، واستبدلت بها أحكام أجنبية عن الإسلام .

روى المحدثون والمؤرخون قالوا :

جاؤوا بامرأة محصنة حامل من الزنى إلى عمر، فأمر عمر برجمها، فقال علي (عليه السلام) : ماشأن هذه ؟ قالت : يذهبون بي ليرجموني . فقال : يا أمير المؤمنين لأي شيء ترجم ؟ إن كان لك سلطان عليها فمالك سلطان على ما في بطنها ! فقال عمر : كلّ أحد أفقه مني - ثلاث مرات - فضمنها علي [عليه السلام] حتى وضعت غلاماً ، ثم ذهب بها إليه فرجمها[1] . فكان أن امتنعوا عن تنفيذ حكم خلاف الشرع والدين .

وكانت امرأة مجنونة ارتكبت الزنى، فحكم عليها الخليفة بالحدّ، ورأى الإمام أن هذا الحكم خلاف للشرع الإسلامي ، فذكر لهم حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : رفع القلم عن ثلاث ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل ، فترك رجمها[2] .

ونقل كثير من علماء السنة أن عمر حينما كان يحتار في مسألة ما فيحل علي (عليه السلام) المشكل ، وكان يقول : « لولا علي لهلك عمر » أو

---

(١) ينابيع المودة : الباب ٥٦ ص ٢١١ ط آستانة ، عن الإمام أحمد وابن السمان في كتاب الموافقة

(٢) المصادر في الغدير ٦ : ١١٠ و ١١١

يقول : « لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن »[1] .

هذه هي جوانب من الحوادث التي كانت تصدر بصددها أحكام لا علاقة لها بالوحي والدين [2] .

أفهل كان الله يسمح بنقض قوانين دينه في الحوادث المستجدة بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن تستبدل بها أحكام باطلة ؟ أو الأحرى أن يكون قد أودع أزمة الأمور بيد أناس يعلمون كل ما يتعلق بأحكام الإسلام بجميع جزئياتها ، وهم مكلفون بتنفيذها في المجتمع الإسلامي ؟ .

إننا إن افترضنا أن يكون وجوب الطاعة محصوراً بأولئك الذين تكاملت فيهم شروط القيادة فسوف لا تحدث أية معارضة بين ما يريدون وبين أوامر الله ورسوله (صلى الله عليه وآله) وإن تفسيراً كهذا للآية الكريمة سوف يدفع كل تلك الإشكالات المتقدمة على معنى الآية ، وسوف يغنينا عن كل تفسير غير قابل للاعتماد عليه ولا يمكن الاطمئنان إليه . إن القرآن الكريم لا يسمح بالتبعية لأولئك الذين يفضلون إراداتهم على أوامر الله ويصرح قائلاً : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾[3] .

وبدهي أن الحكم بخلاف ما أراد الله لا اعتبار له ، وليس لأحد أن يتخذ موقفاً مخالفاً لأحكام الله وأن يشرّع بنفسه بإزاء تلك الأحكام . فالعقل والفطرة والآيات والروايات المستفيضة في هذا الموضوع تفرض علينا أن ننقاد لأوامر الله ونتبعها فقط .

وقد قال علي (عليه السلام) : « إنما الطاعة لله عزّ وجلّ ولرسوله ولولاة الأمر ، وإنما أمر بطاعة أولي الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصيته »[4] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ : ١٠٣ .
(٢) للمزيد من هذه القضايا يراجع الغدير ٧ و٨ .
(٣) سورة الكهف : الآية ٢٨ .
(٤) بحار الأنوار ٢٥ : ٢٠٠

وقال الباقر (عليه السلام) : « الأئمة من ولد علي وفاطمة إلى أن تقوم الساعة »[1] .

وروى العياشي في تفسيره عن حكيم قال : « قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) : جعلت فداك ؛ أخبرني عن أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ؟ فقال لي : أولئك علي بن أبي طالب والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر أنا . فاحمدوا الله الذي عرّفكم أئمتكم وقادتكم حين جحدهم الناس »[2] .

وروى البحراني في تفسيره (البرهان) عن ابن بابويه بإسناده عن جابر بن عبد الله الأنصاري : لما أنزل الله عزّ وجل على نبيّه محمد (صلى الله عليه وآله) ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ قلت : يا رسول الله ، عرفنا الله ورسوله ، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ؟ .

فقال (صلى الله عليه وآله) : هم خلفائي ـ يا جابر ـ وأئمة المسلمين من بعدي : أولهم علي بن أبي طالب ثم الحسن والحسين ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر . ستدركه يا جابر ، فإذا لقيته فأقرئه مني السلام ثم الصادق جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم علي بن موسى ، ثم محمد بن علي ، ثم علي بن محمد ، ثم الحسن بن علي ، ثم سميّي ـ محمد ـ وكنيتي حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي ، ذاك الذي يفتح الله ـ تعالى ذكره ـ على يديه مشارق الأرض ومغاربها ، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان[3] .

---

(١) اثبات الهداة ٣ : ١٣١ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٥٢ .

(٣) عن اثبات الهداة ٣ : ١٢٣ .

وروى العياشي في تفسيره عن عيسى أو يحيى بن السرى ، قال : قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) : أخبرني عن دعائم الإسلام التي بني عليها الدين ، لا يسع أحداً التقصير في شيء منها ، التي من قصّر عن معرفة شيء منها فسد عليه دينه ولم يقبل منه علمه ، ومن عرفها وعمل بها صلح له دينه وقبل منه عمله ، ولم يضرّ ما هو فيه بجهل شيء من الأمور إن جهله ؟ .

فقال: نعم، شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان برسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) والإقرار بما جاء به من عند الله ، وحق في الأموال الزكاة ، والولاية التي أمر بها ولاية آل محمد ، وقال رسول الله : من مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية . فكان الإمام علي ثم كان الحسن بن علي ثم كان الحسين بن علي ، ثم كان علي بن الحسين ، ثم كان محمد بن علي أبو جعفر . وكانت الشيعة قبل أن يكون أبو جعفر وهم لا يعرفون مناسك حجهم ولا حلالهم ولا حرامهم حتى كان أبو جعفر؛ فحج لهم وبين مناسك حجّهم وحلالهم وحرامهم ، حتى استغنوا عن الناس ، وصار الناس يتعلمون منهم بعدما كانوا يتعلمون من الناس . وهكذا يكون الأمر ، والأرض لا تكون إلا بإمام [1] .

ليست قليلة تلك الفجائع التي أحدثها خلفاء بني أمية وبني العباس بصفتهم أولياء الأمور ، بالنسبة إلى الدين والمسلمين ، أولئك الذين جعلوا الخلافة مركزاً للفساد والخواء والرذالة؛ ولتثبيت دعائم حكمهم الباطل لطخوا أيديهم بدماء ما لا يقدّر من الأبرياء بل الأبرار ، ومع ذلك كله كانوا يدعون لأنفسهم إمرة المؤمنين ! .

فإن كان الله سبحانه هو الذي قرر حكومة مثل هؤلاء الجناة الأشرار الفتاكين ، بل أوجب لهؤلاء الخلفاء المفسدين الطاعة على المسلمين ، فأين

---

(١) تفسير العياشي ١ : ٣٥٢ وفي تفسير البرهان ١ : ٣٨٦ والبحار ١٥ : ٢١٠ وينابيع المودة : ١٣٧ .

القسط والعدل وأين هي حقوق الفرد والمجتمع ؟ وأليست أوامر الله التي تتكفّل بالتكامل الحقيقي للإنسان وسعادته في الدارين من جميع الجهات والجوانب ، أليست تحرّف عن وجهتها الصحيحة ؟! .

هذا ، وقد نقل بعض كبار أهل السنة من الأحاديث ما يؤيد تفسير « أولي الأمر » في الآية الكريمة بأنهم أئمة أهل البيت (عليهم السلام)[1] .

إن القرآن الكريم قد حصر الولاية ورعاية المسلمين بالله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ـ بمعنى الصدقة ـ وهم راكعون فيقول : **﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾**[2] .

إن هذه الآية إنما تشير إلى حادثة إنما تحققت في الواقع الخارجي مرة واحدة فحسب ، إذ لا حكم في الإسلام بدفع الزكاة في حال الركوع لا واجباً ولا مندوباً ، كي نتمكن من أن نقول : إن من الممكن أن يكون بعض الناس قد بادر إلى هذا العمل .

والحادثة كانت كما يلي : كان علي (عليه السلام) راكعاً إذ سأل سائل مساعدته بالمال ، فأشار إليه علي (عليه السلام) بإصبعه وأفهمه أن يخرج من يده الخاتم ، فأخرج السائل الخاتم من يد علي (عليه السلام) وخرج .

وهنا نزل أمين الوحي على الرسول (صلى الله عليه وآله) فتلا عليه هذه الآية المذكورة ، واتفق الشيعة والسنة على نزولها بشأن علي (عليه السلام) وأنه هو مصداق هذا الوحي الإلهي[3] ، فلفظ الجمع في

---

(١) نقل بعضها الشيخ سليمان القندوزي في كتابه : ينابيع المودة : ١١٤ ـ ١١٦ . وبعضها المفسّر الأندلسي المعروف في تفسيره : البحر المحيط ٣ : ٢٧٦ . وبعضها أبو بكر المؤمن في رسالة خاصة كما في إحقاق الحق ٣ : ٤٢٥ .

(٢) سورة المائدة : ٥٥ .

(٣) تفسير الطبري ٤ : ١٦٥ . الكشاف للزمخشري في ذيل الآية . وأسباب النزول =

الآية إنما هو كناية عن فرد واحد دفع زكاة ـ صدقة ـ في حال الركوع ، ولا خلاف أنه هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

أما استعمال لفظ الجمع وإرادة الفرد الواحد منه فهو غير منحصر بهذا المورد ، ولا في ذلك ، وقد جاء في القرآن الكريم لفظ الجمع بالنسبة لنعيم بن مسعود الأشجعي أيضاً كذلك[1] . وكذلك يراد بضمائر الجمع في سورة « المنافقون » شخص عبد الله بن أبي بن سلول[2] ، وكذلك آيات أخرى[3] .

وعلى هذا ، وبملاحظة الاعتراف الصريح لكبار أهل السنة بشأن نزول الآية ، لا تبقى شبهة في أن الإمام والقائد بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو علي (عليه السلام) الذي قرن الله ولايته بولايته .

= للواحدي : ١٤٨ . ومفاتيح الغيب للرازي ٣ : ٤٣١ والدر المنثور ٢ : ٢٩٣ وتفسير المنار ٦ : ٤٤٢ وغيرها .

(١) سورة آل عمران : الاية ١٧٣ .

(٢) تفسير الطبري ٢ : ٢٧٠ والدر المنثور ٦ : ٢٢٣ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٤ وسرة التوبة : الاية ٦١ .

حراس ثغور الدين والدولة

إن الإسلام ـ خلافاً للمسيحية الحالية التي يبتنى نظامها الفكري والعقائدي على دعوة روحية ومعنوية ، وتتلخص مهمة هذا الدين اليوم في التبشير به وإرشاد الناس إليه وهدايتهم نحوه ـ نظام لا يكتفى فيه بسلسلة من المراسيم الدينية الجافة ! .

إن الدعوة في هذا الدين إلى السعي الهادف وتقديسه ، وإيجاب الدعوة إليه ، وتشريع الأحكام التي تعم المادة والمعنى ، ومشاركة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحروب المختلفة ، كل ذلك في الإسلام مما يدل على أن النظام الفكري لهذا الدين الإلهي إنما هو في اتجاه تأسيس نظام حكومي يهدف إلى الآمال التحررية الكبرى ، ويسعى ليعود بالإنسان إلى نفسه ، ليدرك قيمته ، فيختار لنفسه النظام الإنساني الأمثل متمكناً من إقامة شريعة التوحيد ، والممانعة عن أنواع العدوان على بلاد الإسلام والأحكام الإلهية ، منفذاً إياها بدقة متناهية .

حكومة تعي مسؤوليتها عن حفظ أحكام الله ، فهي أمام ضغط المخالفين من أعداء الإسلام ـ مهما كان وبأية درجة كان الضغط ـ لا تكون مستعدة لتناسي نقطة صغيرة من الأحكام الإلهية ، أو أن تغض النظر عن تنفيذ ما هو الحق في ذلك ، أو أن تصرف النظر عن الأوامر الإلهية .

وأصولاً ، إن انفصلت الإمامة الدينية عن القيادة، وكان الدين لا يعير أية أهمية بالنسبة إلى النظام السياسي وقيادته ، واكتفى بوعظ جماهير الناس ، لم يكن ضمان للتنفيذ ، وإن اتفق بفضل جهود العلماء والمفكرين أن اطلع الناس على تعاليم الرسالة ، وأرادوا تطبيقها في حياتهم ، منع ذوو القوة الغاشمة وأصحاب السلطة الباطلة عن تطبيق تلك البرامج المشرعة لسعادة الإنسان ، ولا سيما تلك الأوامر التي تنتهي إلى الضرر بالجهاز الحاكم ، والتي يمكن أن يكون لها دور مهم في تحرير البشر من أسر الجبارين ، منعوا عن ذلك بمختلف الخطط والأحابيل ، وفي المقابل قاموا بتنفيذ أطروحات مبرمجة ومحسوبة بدقة من شأنها أن توطد حكومتهم في المجتمع ، وتؤمن منافعهم ومصالحهم عاجلاً أو آجلاً .

إذن فالدين إن كان يرى سعادة المجتمع ونجاته في اتّباعه لتعاليمه ، كان عليه أن يدلي برأيه في مسألة القيادة ، فيعرض للناس نظاما وينظّم أحكاما ، يقرر بذلك مباني الدين بين أفراد المجتمع ، ويفتح بذلك السبيل للدعوة إلى دين الله . وقد أولى الإسلام ودين التوحيد بصورة عامة لإقامة النظام الصالح عناية خاصة ، وكان هذا الأمر الأساسي محط نظر الدين دائماً ، وحاول حاملو ألوية المرسلين أن لا يتركوا ثمار مساعيهم التربوية لرحمة حوادث التاريخ كيفما كانت .

إن الحكومة الإسلامية بمعنى إدارة شؤون الأمة على أساس أحكام الإسلام - بدأت منذ هجرة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ودخوله مدينة يثرب ، ومنذ ذلك الحين تعين أسلوب نظام الحكومة الإسلامية منذ اليوم الذي شيّد رسول الله (صلى الله عليه وآله) مدرسة التوحيد رغم مواقف الضالين والمشركين ، واقتلع الأشواك من طريق القيم والمثل ، وتوسعت سلطة الإسلام في الجوانب السياسية والاقتصادية والجغرافية والثقافية ، عين بعض العناصر اللائقة كمسؤولين عن بعض شؤون الدولة ، ليديروا بتدبيرهم الأمور التي ترتبط بإدارة دولة الإسلام ، فكلما دخلت الأراضي تحت تصرف

جيوش الإسلام في الحروب التي كانت تقع لرفع الموانع عن طريق نشر الحق واستقرار العدل ، كان يعين لها الرسول حاكماً وقاضياً ، ومعلماً ليتقدّم فيهم برفع مستوى الثقافة العامة ، ونشر الرؤية الدينية والتعاليم الإسلامية . أما بالنسبة إلى الناس غير المسلمين الذين كانوا يعيشون في مناطق نفوذه فقد كان يولي القيم الثقافية والإنسانية فيهم بالحماية والتأييد .

والقرآن الكريم يعرف الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) بصفته حاكماً وقاضياً فيقول :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبّع أهواءهم عمّا جاءك من الحق ﴾[1] .

إن الأنبياء هم الذين وطدوا أركان الحكم الإلهي في الأرض ، وهم الذين وجهوا الناس باتجاه الأخذ بزمام الحكم لصالح المؤمنين .

وكذلك يصف القرآن الكريم يوسف (عليه السلام) بالحكم فيقول :

﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾[2] .

وبالنسبة إلى داود يقول :

﴿ يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[3] .

إن أحكام «الحدود» و «الديات» ونحوها من أبواب الفقه لهي من

---

(١)سورة المائدة : الآية ٤٨ .

(٢)سورة يوسف : الآية ٢٢ .

(٣)سورة ص : الآية٢٦ .

القواعد التطبيقية والتنفيذية للحكومة الإسلامية التي أسسها الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

إن لحكومة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بالإضافة إلى جانبها الإجرائي ـ خصوصية أخرى ، هي أنه كان عليه أن يوجد بحكمه قاعدة مناسبة لاستقرار الدعوة الإسلامية وتنفيذ الأحكام الإلهية ، فيبيّن لعباد الله ما يوجب قيام الرسالة ودوامها ، ويبلّغ إليهم مفاهيم الكتاب السماوي ، فيبلغ بهم من حيث الثقافة الدينية إلى المدارج العالية حيث الأهداف الإسلامية السامية .

وعن هذه الميزة الرسالية لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول القرآن الكريم :

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾[1] .

وعلى هذا ، فإن رسول الإسلام كان حاكم المجتمع الإسلامي ومتكفلاً بأمور إرشاد الناس وهدايتهم وتبليغ أحكام الله إليهم ، ولهذا فمن أراد أن يتسلق مقام خلافته يجب أن يكون له كلا هاتين الناحيتين من جوانب وأبعاد شخصية الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله سلم) ، أي تكون له الحكومة في المجتمع وكذلك أهلية القيام في مقام هداية الأمة الإسلامية. مهمة الحفاظ على مباني العقيدة وأحكام الشريعة ، وصيانة نظام الوحي وأحكامه عن أي تغيير أو تبديل ، والمقاومة الصلبة أمام أمواج الكفر والشبهات المغرضة والمضللة ، وحل ما ينشأ من المشاكل من آثار التحريف ، ومكافحة أي نوع من التعدي والنفوذ من جانب الأجانب إلى ثغور الدولة الإسلامية ، كي يحصل بذلك الضمان لبقاء الإسلام واستمراره بين مختلف الأمواج العاتية .

---

(١)سورة الجمعة : الآية٢ .

وأحسن سبيل للحفاظ على جميع الحقوق والشؤون الفردية والاجتماعية وبسط العدل ونشر الرحمة ، لهو طريق حكومة الصالحين ، وأصلح أنواع الحكومة هي حكومة المعصومين التي يصح فيها الأمل في الحفاظ على جميع الحقوق والشؤون الإنسانية . فإن حكومة الحاكم المختار من قبل الله تعالى هي في الواقع حكومة الله سبحانه،وهذه القيادة هي التي تمكّن الإنسان من أن يحافظ فيها على شخصيته وكرامته وقيمته السامية ، وأن يصل فيها إلى جميع حقوقه ، فإن رعاية المكانة الإنسانية والسعي لاستقرار العدالة هما من الأصول الأساسية لهذه الحكومة ، ولا تتحقق هذه الرعاية إلا بالقيادة الإلهية . وإلا فإن أصحاب السلطة الظالمة والحكّام الطغاة الفاسدين يتبجحون بحقوق الإنسان ويدّعون لأنفسهم الدفاع عن مكانة الفرد والمجتمع ، ولكنهم في عملهم يمرّغون شرف الإنسان بالتراب ، ولا يحصل للأمة من منجزاتهم سوى سياسة التزوير والسلطة الظالمة والتمييز بين بني البشر .

إن أهمية القيادة الحقة ، وسعي قادة الدين في سبيل نشر الفضيلة وخير الأمة ، واستهدافهم تحقيق الحق والحرية . . وكذلك الأضرار الناتجة من سلطة الحكام غير الصالحين الذين لاتهمهم المسائل المصيرية للمجتمع ، والمتهاونين في تحقيق الحقوق الفردية والاجتماعية ليس ممّا يمكن التشكيك فيه .

إن الذي يريد أن يتكفل بمهام هداية الجماهير البشرية ويتعهد بالزعامة الدينية ، وأن يستند إلى مسند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحكم ، يجب أن يشبه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في المعرفة والعلم والعمل وأسلوب التفكير ، وأن تكون له بالإضافة إلى الخصائل الأخلاقية والفضائل الروحية ، والاهتمام بتهذيب النفس إلى مستوى العصمة . . إحاطة تامة بحقائق الدين ومعارفه ، كي يتمكن من الإجابة المناسبة عن جميع المسائل الموجهة إليه على أساس الحق ومباني الشريعة

الإسلامية ، وأن يحل ما يحتاج إلى الحل والفصل من موارد الخلاف في الأمة . وإلا فإن الإسلام يأبى من أن يضع أزمة أمور الأمة الإسلامية بيد كل حابل ونابل ، ويدع مكانة المجتمع الإسلامي وشؤونها في كف كل أحد .

إن القرآن الكريم يرى أن التفوق العلمي بالإضافة إلى الاستعداد الظاهري الجسماني لطالوت هو السبب في احتياره بجدارة لزعامة قومه فيقول : ﴿ **وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، قالوا : أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟! قال : إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله واسع عليم** ﴾[1] .

فكما كان شخص الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) متصدياً لكلا المنصبين ، كذلك من الطبيعي لمن أراد أن يكون خليفة بعده أن يكون له كلا الميزتين اللتين كانتا للرسول ، أي العلاقة الخاصة بمبدأ الوجود الذي هو أمر إلهي يفيضه على من يشاء من عباده ، بالإضافة إلى صفة الحكومة على الأمة الإسلامية ، ولا يمكن الاكتفاء في قيادة الأمة بجانب واحد من مميزات وخصائص شخصية الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) فإن هذين المنصبين لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ولا ينبغي أن يفصل الجانب السياسي من إدارة المجتمع عن الإمامة المعنوية والروحية ، فالإمام له صفة الولاية التشريعية من جانب ، وهو من جانب آخر المدير الصحيح للمجتمع البشري الذي أراده وبناه الأنبياء .

الإمام الباقر (عليه السلام) حينما يذكر منطق أهل السقيفة حيث تمّ فصل أحد هذين المنصبين عن الآخر ، يتلو هذه الآية ـ وهو يريد أن الله قد وهب لبعض أبناء إبراهيم إدارة أمور المجتمع مع الإمامة الروحية :

﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ ! فقد آتينا آل**

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٧ .

إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾[1] .

ثم يضيف الإمام قائلاً : « فكيف يقرّون بذلك في آل إبراهيم وينكرونه في آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) »[2] .

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٤ .

(٢) تفسير العياشي ١ : ٢٤٧ عن بريد بن معاوية العجلي (ت ١٥٠) كما في النجاشي ٨١ ط الهند .

الإمامة ضرورة عقلية

إن الإنسان بناء على فطرته السليمة وطينته الطاهرة لفي حركة لا تتوقف إلى جهة الكمال، فهو يقطع الطريق من حيث يشعر أو لا يشعر، بل باشتياق شديد إلى الموقف الأخير في مسير الكرامة الإنسانية . وهذه حقيقة متجلية في كيان الإنسان ، وهو بإحساسه بالحاجة الروحية يحاول أن يقطع مراحل أكثر من هذا الطريق الطويل ، لكي يتقرب من المدارج العالية والقيم السامية . ولهذا الطريق التكويني مراتب مختلفة يربط بينها رباط وثيق عميق .

وإلى جانب هذا هناك في باطن الإنسان أعداء للتكامل هي أهواؤه غير المتّزنة ، وعلى الإنسان في مسير حركته أن يحارب هذه الطاقات الكامنة المخربة والتي تحاول دائماً أن تسلبه سعيه ورقيّه إلى غايات الوجود ، بل أن تجره إلى أن يصبح من ضحايا الشياطين . وعليه أن يستمر في جهاده هذا .

وما دام الإنسان في صعيد الوجود ، يجب أن يكون هناك أمامه طريق الكمال وفي نهايته الغايات ، وإلى جانب ذلك يجب أن يكون بين المجتمعات الإنسانية ذلك الإنسان الفرد المتميز ، الجامع لكل المزايا الروحية ، والبالغ إلى أعماق الأحكام الإلهية ، وتلك الشخصية التي تكون في سواء سبيل الكمال ولا تميل إلى الانحراف قيد شعرة ، هي شخصية

الإمام المعصوم ، اي ذلك الإنسان الذي اختاره الله ليكون داعية التوحيد ، والـذي يشتمل على جميع المـزايـا التي يمكن أن تتحقق في فـرد متحـرر متسام .

ذلك هو رائد ركب الإنسـانية وواسطة الفيض الرباني ، ورابطة الوصل بين عـالم الغيب والنوع الإنسـاني ، وهـو الـذي يتلقى هـدايـة الله بصـورة مستقيمة وبلا واسطة ، وهو مصباح الهداية في خضم الظلمـات ، وعليه أن يرتقي بكل إنسان بهدايته وتعاليمه السماويـة ، حسب ظرفيـة ذلك الإنسـان واستعداده ، وأن يستعين بإيمانه وإرادته وعقله في طريق الكمـال ، فيهديـه إلى منابع التوحيد والعدل والقداسة ، ويهبه بذلك العزة والكرامة .

أما إذا حرم المجتمع البشري من وجـود هكذا شخصيـة إلهية ، فـلا يتمكن الإنسان من أن يجد وجهتـه بنفسه ، ولم تكن هنـاك بينه وبين عـالم الغيب أية علاقة ورابطة ، وبطبيعة الحال أصبحت حركته التكامليـة لا تصل إلى نتائجها المرجوّة .

والله الـذي جهـز الإنسـان بقـوى تـتـوق إلى الكمـال ، ووهبــه هـذا الاستعـداد الذاتي لكي يتسلّق المدارج العاليـة ، محال أن لا يهـديه طـريق الوصول إلى الغاية .

أجل ، إن الألطاف الإلهيـة اللانهـائية تقتضي أن يهـدي عبده طـريق الوصول إلى الحقائق السامية ، وأن يساعده بأطروحة جامعـة شاملة تضمن له سعادة الدنيا والآخرة . وقد بعث بهذه البرامج الجامعة الشاملة لجميع جوانب وجود الإنسـان ، بواسطة أنبيائه المصطفين إلى عباده المؤمنين .

وإن من عقيـدة التوحيـد أن لا حاكم في الـوجود إلا الله ، ففي عالم الإنسان الذي هو جزء من كل نظام الوجود، يجب أن يكون الحكم أيضاً لله . صحيح أن الإنسان يتمتع بحق حرية الاختيار في دائرة أعماله ، وذلك على أساس الإرادة المفوضة إليه (لا مطلقاً) ولكن من أجل أن يوفق هذا الجزء من

الوجود نفسه مع النظام العام عليه ان يعمل بأوامر الله ، كي لا يتصـرّف في حكومة الله إلا برضاه ، فإذا هو لم يرعَ حرمة القوانين التي جاء بها الـرسول وخالفها ، فإنه قـد أبدى بـذلك نـوعاً من عـدم الانسجام بين هـذا الإنسان الصغيـر وما سـواه من العالم الكبيـر ، وهنا يكـون قد غيّـر من جهة مسـاره الصحيح وتمايل إلى الانحراف .

وكما أن طاعة أوامر الوحي والرسالة بما أنها تمثـل مسار التـوحيد في طول التاريخ فهي طاعـة لله تعـالى ، كـذلك يجب أن يكـون لمن يريـد أن يتكفل بحكومة المجتمع التوحيدي وإدارتها بعنوان خلافة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) نفس تلك الجوانب الباطنية والعلاقة الخاصـة بالمبـدأ كما كانت للرسول ، لتكون متـابعته مسـايرة لمسـار الهدف الحق والصـراط المستقيم .

منـذ أن أسس رسول الله الحكـومة الحقـة ، وعمل لتمهيـد الأرضيـة المناسبة لإيجاد بيئة نورانية ، تكفّل بنفسه بالقيام بتطبيق برامج تربية الإنسان التي كان يحمل هو لواءها . ولكن بما أن عمر رسول الله (صلى الله عليه وآله سلم) كسائر أبناء البشر لم يكن ليستمر طويلاً فكان لا بد من أن يترك هـذه الحياة الأرضية يـوماً مـا ، لهذا كـان من اللازم عنـد خلوّ السـاحـة من وجود المربي الكبير أن يؤدي خليفته دور الموجـه ، أعني ذلك الإنسـان الصالـح الجامع لشرائط زعامة المسـلمين . ذلك الـذي يجمع في وجـوده كل كمـال وكل خصيصة للإنسان الكامل ، الذي بإمكانه أن يغذي أرواح جميع أتباعه بإفاضاته وجذباته المعنوية ، وأن يعلمه كيفية الحركة في طريق الحق وإليـه وإطـاعته والإعـراض عما سـواه . وعندئـذ تكون أبـواب الصراط المستقيم مفتـوحة للنـاس ، ويستطيـع الجميع أن يجعلوا أنفسهم على مـسـار السعادة الأبدية .

وبإمكاننا أن ندرك جيداً هذه الحقيقة إذا ما علمنا أن لا فاصل بين الدنيا والآخرة ، وأن ليس بإمكاننا أن نفصل البرامج التي تتعلق بالحياة الجسمانية

عن الموازين والقواعد التي تتعلّق بالحياة النفسانية والروحية ، ولا أن نفترض لكل منهما مسؤولاً وحرساً خاصاً ، ولهذا يجب أن تكون تلك الشخصية الطاهرة المعصومة التي اصطفاها الله تمسك بيدها أزمة أمور الدنيا والآخرة، فيحرس المصالح العامة لعالم الإسلام أمام سائر الملل والدول .

وببركة وجود هذا القائد الحق وخليفة الله في الأرض ، يبقى الطريق الوحيد للوصول إلى السعادة الحقيقية مفتوحاً بوجه الناس ، وهو بمعنويته التامة وأسلوبه الحكيم يقودهم في ذلك الطريق الذي ينتهي بهم إلى حيث جميع القيم الطيبة الطاهرة والخالصة الأصيلة بين يدي الله العزيز .

صحيح أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) من بين الأئمة الاثني عشر هو الذي أمسك بيده أزمة أمور الأمة مدة محدودة ، ولم يجلس سائر الأئمة بعده بمسند الحكومة، ولم يدعوهم ليفيدوا المجتمع من موقعيّتهم الاجتماعية لتحكيم مفاهيم القرآن الكريم ونشر الثقافة الإسلامية وتعميق هوية الأمة . . ولكن النقص هذا كان من ناحية الناس أنفسهم الذين لم يمهدوا السبيل لاستقرار هذه الحكومة الحقة فيهم ، فحرموا من ثمار وجود هؤلاء القادة قدوة الإنسانية وأسوتها ، وإلا فإن الله كان قد أتم الحجة بهم على خلقه ، وعرّف هؤلاء الصالحين الذين اختارهم لهم ، المصطفين الذين لم يكن وجودهم مثمراً ومصيرياً لعموم المسلمين فحسب ، بل للإنسانية جمعاء .

ومن ناحية أخرى فإن بركات وجود الإمام لا تتلخص في الحكومة والزعامة فقط، بل هو يؤدي دور اختياره من قبل الله من سائر أبعاده وجوانبه، فهو مسؤول عن حراسة المواقف الحقة وصيانة أحكام الله عن متناول أيدي العابثين بالتحريف ، وهو مكلف من قبل الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)بتعليم الناس الحقائق الدينية والثقافات القرآنية والتعاليم الاجتماعية ، وأن يربّيهم ويزكّيهم ويوجههم . أضف إلى ذلك أن الإمام هو مصب الفيض الإلهي سبحانه .

وعلى هذا ، فإن الناس وإن كانوا قد حرموا من حكومة العدل والقسط على أثر تهاونهم وعدم كفاءتهم للقيام بذلك ، إلا أنهم لم يحرموا من مختلف الآثار الأخرى لوجود أولئك المعصومين ، فإن أولئك الذين كانوا وسائط فيض الله لخلقه سواء جلسوا في مسند الحكم أو منعوهم عن استقرار الحكم فيهم ولم يتركوا لهم إدارة المجتمع الإسلامي، فإنهم لا يزالون منشأ الخير والبركة للناس ، يستثيرون استعداداتهم ويثيرون أفكارهم .

أضف إلى ذلك أن استقرار أساس الدين على أي حال كان يرتبط باتجاهاتهم الخاصة إلى مسار الثقافة الإسلامية وقيادتهم النزيهة ، وإن إحساس الناس بحضورهم بينهم منع من ظهور كثير من التحريفات الأساسية .

إن علي بن أبي طالب (عليه السلام) كان يراقب أوضاع زمانه كمراقب يقظ واع ، فكلما صدر قضاء بالباطل . أو وقع تحريف في حكمه أو أرادوا تنفيذ حدّ غير صحيح ، كان (عليه السلام) يتدارك الموقف ويرشدهم ، وكان له الموقف الجاد في الحفاظ على أصول الإسلام وفروعه ، وكان يبدي بذلك قيادته الواقعية ، وكان على استعداد دائم لإجابة علماء الأديان الذين كانوا يفدون إلى المدينة من مختلف الجهات للحصول على أجوبة مسائلهم .

لقد انتشرت ببركة وجودهم معارف الإسلام وتعاليمه الحقوقية والتربوية والاجتماعية وانتشرت أحكام القرآن وأوامره بين المسلمين ، حتى نبع من ينابيع علومهم هذا الجم الوفير من الأخبار الثرة والغنيّة بالعلم والحكمة والمعرفة في جميع جوانب الدين ، تحت سلطة الحكومات الخشنة والموحشة، وفي مختلف ظروف الخلافة في كل زمان ، ومع خلفاء كانوا قد توغّلوا في الفساد والتعدي والخواء، بل الذين كانوا يحاولون تحديد النفوذ الثقافي لجناح الحق في أئمة أهل البيت (عيهم السلام) وأن يصرفوهم عن استيعاب تلك الثقافة الغنيّة . . وبهذه الطريقة حرسوا الحقيقة وعلموا الناس التعاليم الضرورية .

وبعض الخلفاء كالمأمون سعى سعيه وناصب جهده ليكسر شوكة الإمام العلمية عن طريق تشكيل مجالس البحث والمناظرة بينه وبين علماء الأديان والمذاهب المختلفة ، ولكنه لم ينته إلا إلى ظهور المقام العلمي للإمام وبالتالي إلى مصلحة الإسلام والمسلمين والحق المبين .

وببركة هؤلاء الوارثين لتعاليم الرسالة ، وصل إلى أيدي العلماء والمحققين المسلمين آلاف الأحاديث التي رووها للناس في مختلف المناسبات لتبيين الدين، ولنشر المباني العقائدية الحقة والاستدلال لها ، وفي مختلف أبواب الفقه والأخلاق والسلوك والمعارف الفكرية والباطنية . . . وبهذا الرأسمال استطاعوا أن يوسعوا كثيراً من دائرة العلوم الإسلامية ولا سيما الفقه الصحيح أمام المتفقهين في ذلك الواقع الفقهي المهترىء ، وبذلك حملوا مشعل المعارف الدينية وأوقدوها إلى الأبد .

وبإمكاننا أن ندرك جيداً مدى الجهاد الجاد والخدمات الثقافية الإسلامية لأهل البيت (عليهم السلام) في مختلف فروعها ، وحسب مقتضيات الظروف يومئذٍ ،وأن نعرف الجوانب العظيمة لخدمات هؤلاء القادة العلماء المخلصين عن طريق المقارنة بين أحاديث أهل السنة وبين روايات الأئمة الطاهرين وسعة هذه وشمولها واستيعابها . وحينئذ تتضح الرؤية العميقة والأصالة الفكرية والدينية ومختلف فروع المعرفة لدى أئمة الشيعة . وحتى فقهاء العامة وعلماؤهم لم يحرموا من معارفهم وعلومهم ، بل إن محققيهم قد استفادوا منهم فوائد جمة ، سواء مباشرة أو غير مباشرة ، وبذلك بينوا للناس مقامهم الرسالي كحراس للإسلام عالمين بكل شيء .

إن الإمام الصادق (عليه السلام) كان هو الذي فتح أبواب علوم الفلسفة والكلام والرياضيات والكيمياء ، فكان من تلامذته مفضل بن عمر ، ومؤمن الطاق ، وهشام بن الحكم ، وهشام بن سالم ، متخصصين في الفلسفة وعلم الكلام . وجابر بن حيان في الرياضيات والكيمياء ، وزرارة

ومحمد بن مسلم ، وجميل بن دراج ، وحمران بن أعين ، وأبو بصير ، وعبد الله بن سنان ، متخصصين في الفقه والأصول والتفسير[1] .

وقال ابن شهر آشوب في (المناقب) : « ينقل عنه من العلوم ما لا ينقل عن أحد ، وقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات ، فكانوا أربعة آلاف رجل » .

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه (حلية الأولياء) : « إن جعفر الصادق ، حدّث عنه من الأئمة والأعلام : مالك بن أنس ، وشعبة بن الحجاج ، وسفيان الثوري ، وابن جريج ، وعبد الله بن عمرو ، وروح بن القاسم ، وسفيان بن عيينة ، وسليمان بن بلال ، وإسماعيل بن جعفر ، وحاتم بن إسماعيل ، وعبد العزيز بن المختار ، ووهب بن خالد ، وإبراهيم بن طحّان في آخرين ، وأخرج عنه مسلم في صحيحه محتجّاً بحديثه »[2] .

وابن أبي الحديد وهو يعدّ من كبار علماء أهل السنّة ، كتب بشأن علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول :

« وما أقول في رجل تنتمي إليه كل فضيلة ، وتنتهي إليه كل فرقة ، وتتجاذبه كل طائفة ؛ فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عُذرها وسابق مضمارها ، ومجلّي حلبتها ، كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ وله اقتفى وعلى مثاله احتذى .

وقد عرفت أن أشرف العلوم هو العلم الإلهي ، لأن شرف العلم بشرف المعلوم ، ومعلومه أشرف الموجودات ، فكان هو أشرف العلوم ، ومن كلامه اقتُبس وعنه نُقل وإليه انتهى ومنه ابتدأ ؛ فإن المعتزلة ـ الذين هم أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر ، ومنهم تعلم الناس هذا الفن ـ تلامذته

---

(١) انظر : الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ، للمرحوم الأستاذ الشيخ أسد حيدر النجفي .

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ٤ :٢٤٧ ، ٢٤٨ . وراجع الإمام الصادق والمذاهب الأربعة :٣ .

وأصحابه ؛ لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ ابي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذه (عليه السلام) .

وأما الأشعرية : فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري ، وهو تلميذ أبي علي الجبّائي ، وأبو علي أحد مشايخ المعتزلة ؛ فالأشعرية ينتهون بالآخرة إلى أستاذ المعتزلة ومعلّمهم وهو علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر .

ومن العلوم : علم الفقه ، وهو أصله وأساسه ؛ وكل فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه . أما أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة . وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة . وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي ويرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة ، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وقرأ جعفر على أبيه وينتهي الأمر إلى علي (عليه السلام). وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس ، وقرأ عبد الله بن عباس عن علي (عليه السلام) . وإن شئت رددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك ، كان لك ذلك . فهؤلاء الفقهاء الأربعة . وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر .

وأيضاً فإن فقهاء الصحابة كانوا عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس ، وكلاهما أخذا عن علي (عليه السلام) ، أما ابن عباس فظاهر ، وأما عمر فقد عرف كل أحد رجوعه إليه في كثير من المسائل التي اشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة ، وقوله غير مرة : لولا علي لهلك عمر ، وقوله : لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، وقوله : لا يفْتِينّ أحد في المجلس وعليّ حاضر ، فقد عُرف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه .

وقد روت العامة والخاصة قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

«أقضاكم علي»، والقضاء هو الفقه فهو إذن أفقههم . وروى الكل أيضاً أنه (صلى الله عليه وآله) قال له وقد بعثه إلى اليمن قاضياً : « اللهم اهد قلبه وثبّت لسانه » وقال : فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين .

وهو (عليه السلام) الذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة أشهر ، وهو الذي أفتى في الحامل الزانية ، وهو الذي قال في المنبرية : « بل صار ثمنُها تُسعاً » وهذه المسألة لو فكّر الفرضيّ فيها فكراً طويلاً لاستحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنك بمن قاله بديهةً واقتضبه ارتجالاً ؟! .

ومن العلوم : علم تفسير القرآن ، وعنه أخذ ومنه فُرّع ، وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحة ذلك ، لأن أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس ، وقد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته له وانقطاعه إليه وأنه تلميذه وخِرّيجه ، وقيل له : أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة إلى البحر المحيط .

ومن العلوم : علم النحو والعربية ، وقد علم الناس كافة أنه هو الذي ابتدأه وأنشأه ، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأصوله ، من جملتها : الكلام كله ثلاثة : اسم وفعل وحرف . ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة ، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم . وهذا يكاد يلحق بالمعجزات ؛ لأن القوة البشرية لا تفي بهذا الحصر ولا تنهض بهذا الاستنباط »[1] .

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٦ .

من يفصّل الأحكام الإلهية

إنّ ما ينظّم ويدوّن من القوانين بـالمساعي العلمية والفكرية لجمهرة عظيمة من العلماء، للمجتمعات البشرية ، لا تستغني في مرحلة التنفيذ والتطبيق عمّن يفسّرها ويشرحها من الواعين اليقظين . وهذا أمر عام يشمل حتى القوانين الإسلامية التي تستند إلى الهداية الإلهية بالوحي وبسنة الرسول (صلى الله عليه وآله) .

إن القرآن الكريم وهو المصدر الأوّل لأي نوع من الاجتهاد في الإسلام ، لا تتمتع بعض آياته بالدلالة الناطقة والوضوح الكامل والإفادة القطعية ؛ ولهذا فإنّ الإفادة من التفسير لبيان مجمله حاجة جادّة وضرورية ، ذلك أن القرآن الكريم إنما يبيّن الخطوط العريضة والأصول العامة للبرامج الإسلامية في مختلف المواضيع ، ولا يتعرّض لبيان ما أجمل منها ولا لتفصيل جزئياتها ، فمن أراد أن يحصل على معرفة تامة بالأحكام لم يتمكن من أن يكتفي بالأوامر الإلهية قطعاً .

ويحصل اختلاف في مفاهيم الآيات والروايات ، وتستنبط استنباطات متنوعة من كثير من الآيات القرآنية والأحاديث الدينية ، لها الأثر الكثير في تحريف المفاهيم الإسلامية الأصيلة ، وهنا بإمكان المغرضين من العصابات المرتبطة بالبلاط الحاكم أن يفسّروا طبقاً لمنافع منابع القدرة من أصحاب

السمات الرسمية ، وقد ظهر كثير من هذه العناصر في مختلف الحوادث في خلافة الأمويين والعبّاسيين .

فماذا علينا أن نفعل في خضمّ هذه الأمواج المتلاطمة ؟ أليس من الضروري أن نرجع إلى مرجع علمي فقهي عالم معصوم محيط بعلوم الكتاب السماوي وارث لعلوم الرسول الكريم ؟ مرجع يطبق لنا أوامر القرآن الكريم على موضوعاتها بصور عملية واقعية ، ويعيّن لنا حدود الأحكام الإلهية بصورة لا تقبل التأويل ، ويكون تشخيصه وتوضيحه وتشريحه واستدلاله على مباني الأصول القرآنية باستلهام الوحي الإلهي حجةً قاطعةً للمسلمين ، وحكماً فصلاً ينهي ما قد يبدو من اختلاف في وجهات النظر ، ويكون كبوصلة القطب تنقذ الملّاح التائه عن حيرته .

إنّنا إن لم نر إلى جانب القرآن الكريم مفسّرين محلّلين جامعين لشرائط بيان القرآن ابتلينا بالإبهام والضلال والضياع الفكري ، وابتعدنا بتفاسيرنا غير المشروعة عن محور الحقائق الواقعية للقرآن الكريم .

* * *

إنّ الإمام الصادق (عليه السلام) فتح في عهده أكبر جامعة إسلامية ، وربّى ـ لتعليم الناس وتعرية الخطوط الفكرية لرواة الأكاذيب ـ جماعة عظيمة من العلماء العاملين ، فكان نشاطه الفكري والعلمي العلاج الصحيح لمواجهة التيارات الفاسدة من المفاهيم الخاطئة والنظريات الدينية المغرضة ، تلك التحريفات التي كانت الأوضاع السياسية قد مهدّت لها أرضيةً مساعدة .

وذات يوم ، وجماعة من أصحابه وتلامذته الذين كانوا يستفيدون من أفكاره العلمية والذين أثرت عنهم ثروة ثقافية عظيمة للأمة الإسلامية ، كانوا بين يديه ، وفيهم هشام بن الحكم ، إذ خاطبه الإمام يقول : « يا هشام : ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته ؟

فقال هشام : يابن رسول الله إني أجِلُّك وأستحييك ولا يعمل لساني بين يديك !

فقال أبو عبدالله : إذا أمرتكم بشيء فافعلوا .

قال هشام : بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة ، فعظم ذلك علي ، فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة ، فأتيت مسجد البصرة ، فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد ، وعليه شملة سوداء متزر بها من صوف ، وشملة مرتدٍ بها ، والناس يسألونه .

فاستفرجت الناس فأفرجوا لي ، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتيّ .

ثم قلت : أيها العالم إنّي رجل غريب تأذن لي في مسألة ؟ فقال لي : نعم .

فقلت له : ألك عين ؟ فقال : يا بُنيّ أيّ شيء هذا من السؤال ؟ وشيء تراه كيف تسأل عنه ؟!

فقلت : هكذا مسألتي ! فقال : يا بُنيّ سل ، وإن كانت مسألتك حمقاء !

قلت : أجبني فيها .

قال : سل .

قلت : ألك عين ؟ قال : نعم ،قلت: فما تصنع بها ؟ قال : أرى بها الألوان والأشخاص .

قلت : فلك أنف ؟ قال : نعم ، قلت : فما تصنع به ؟ قال : أشمّ به الرائحة .

قلت : ألك فم ؟ قال : نعم ، قلت : فما تصنع به ؟ قال : أذوق به الطعم .

قلت : فلك أذن ؟ قال : نعم ، قلت : فما تصنع بها ؟ قال : أسمع بها الصوت .

قلت : ألك قلب ؟ قال : نعم ، قلت : فما تصنع به ؟ قال : أميّز به كلّ ما ورد على هذه الجوارح والحواس ! .

قلت : أوليس في هذه الجوارح غنىً عن القلب ؟ فقال : لا ، قلت : وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة ؟

قال : يا بُنيّ ، إن الجوارح إذا شكّت في شيء شمّته أو رأته أو ذاقته أو سمعته ، ردّته إلى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشك .

قال هشام : فقلت له : فإنما أقام الله القلب لشك الجوارح ؟ قال : نعم ، قلت : لا بدّ من القلب وإلاّ لم تستيقن الجوارح ؟ قال : نعم ، فقلت له : يا أبا مروان ! فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح ويتيقنّ به ما شك فيه ، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم ، لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم ، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكّك ؟! قال هشام : فسكت ولم يقل لي شيئاً .

ثم التفت إليّ فقال لي : أنت هشام بن الحكم ؟ فقلت : لا ، قال : أمن جُلسائه ؟ قلت : لا ، قال : فمن أين أنت ؟ قال : قلت : من أهل الكوفة. قال : فأنت إذاً هو ! ثم ضمني إليه وأقعدني في مجلسه وزال عن مجلسه وما نطق حتى قمت . قال : فضحك أبو عبد الله (عليه السلام) وقال : يا هشام من علّمك هذا ؟ قلت : شيء أخذته منك وألّفته . فقال : هذا ـ والله ـ مكتوب في صحف إبراهيم وموسى[1] .

كذلك نقول : إنّ الناس إنّما يتمكّنون من الوصول إلى الأحكام والأوامر الإلهية ، فيما إذا أخذ بقيادة الأمة الإسلامية بعد الرسول من يتبيّن للناس منه جدارته العلمية والمعنوية ، ليبيّن للناس تلك التفاصيل التي لم

---

(١) أصول الكافي ٢ : ١٦٩ ، ١٧٠ ط آخوندي .

تشتمل عليها الأوامر الإلهية بصورة مباشرة والتي لا بدّ منها للناس حين التطبيق والتنفيذ ، وإلاّ فإن الأمّة تنجرف إلى الانحراف عن الرسالة والبعد الثقافي ، وتضلّ السبيل إلى دار السعادة والهدف من الخلقة .

إنّ الأئمة الطاهرين قاموا بعد الرسول بنشر تعاليم القرآن ما أمكنهم طوال سنين ممتدة،وفي الظروف المختلفة في التاريخ، وفي حالات متغيّرة ومضطربة ، وعلّموا المسلمين تطبيق قوانين القرآن ، وكانوا هداة للناس بأقوالهم وأعمالهم ، وخلّفوا مجموعة تعاليم تمثل لنا كنزاً غنيّاً ثريّاً من التراث الإسلامي ، ويتمتع هذا الكنز الغنيّ بالدليل والبرهان والأسناد المعتمدة ، وهي شاملة ومستوعبة يمكن لها أن تحلّ لنا أية مسألة أو مشكلة طارئة

بينما يعلم الجميع بأن الخلفاء بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) كانت معرفتهم بأحكام الإسلام وحاجات الناس الدينية قليلة جدّاً : فالخليفة الأول لم ينقل عنه أكثر من ثمانين حديثاً[1] .

وقال النووي في تهذيبه : روى الصدّيق عن النبيّ ١٤٢ حديثاً ، أورد السيوطي منها في تاريخ الخلفاء ١٠٤ ، وله في البخاري ٢٢ حديثاً[2] .

القائد الديني الذي ينبغي أن يكون منقذاً للأمة في كل غمّة ، وحلاّلاً لمعضلاتها الدينية وغيرها ، كانت ثقافته الإسلامية بمستوى احتاج معه أن يتعلم حكم الله بشأن إرث الجدّة من «المغيرة بن شعبة» ذلك الرجل الضالّ والفاسد[3] .

واعترف هو بكل صراحة يقول : « فإنّي قد وُلّيت عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنتُ فأعينوني ، وإن أسأت فقوّموني . . أطيعوني ما أطعت

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ١ : ٢ ـ ١٤ .

(٢) أضواء على السنة المحمدية : ٢٢٤ ط الثالثة

(٣) موطّأ مالك : ٣٣٥ .

الله ورسوله ، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم »[1] .

أمّا عمر فلم يصحّ عنه إلا حوالي خمسين حديثاً ، كما أثبت ذلك ابن حزم[2] .

وقد رووا عن مستوى الثقافة الدينية للخليفة الثاني : أنـه جاءه رجـل يسأله : وجب عليّ الغُسل فلم أجد مـاءً فماذا عليّ ؟ قـال الخليفة : سقط عنك الصلاة[3] .

بينما قد بيّن القرآن الكريم حكم هذه المسألة صريحاً[4] .

أما عثمان فقد روى البخاري له تسعة أحاديث ، ومسلم خمسة[5] .

إنّ هذه الحقائق الواقعة تبيّن لنا المستوى العلمي والثقافة الدينية لمن كان قد أخذ بزمام قيادة المجتمع الإسلامي ، فكيف يمكن أن نأمل ـ والحال هذا ـ أن يبقى إطار الأحكام الإلهية مصوناً عن التغيير والتحريف ، وأن يتقدم المجتمع الإسلامي باتجاه الأهداف الدينية العالية ؟! .

إنّ الذي يتكفّل بأن يحمل على عاتقه ثقل قيادة الأمة يجب أن تكون ثقـافته الـدينية شـاملة وذات جوانب بعيـدة المدى والغـور ، كي يتمكن من الجواب لكل سؤال . بينما كانت معرفة الخلفـاء بالفقـه الإسلامي الأصيـل والدقيق قليلة ضئيلة ، مع أن العلم بالأحكام الإلهية يعد من الأركان الأساسية لمقام القيادة .

أخرج الإمام مسلم في صحيحـه في باب التيّمم بـأربعة طـرق ، عن

---

(١) طبقات ابن سعد ٣ : ١٥١ والطبري ٣ : ٢١٠ . وسيرة ابن هشام ٢ : ٣٧٤ .

(٢) أضواء على السنة المحمدية : ٢٢٤ ط الثالثة .

(٣) كما في سنن ابن ماجة ١ : ٢٠٠ .

(٤) سورة النساء : الآية ٤٣ وسورة المائدة : الآية ٦ .

(٥) أضواء على السنة المحمدية : ٢٢٥ .

عبد الرحمن بن أبزى : إن رجلاً أتى عمر فقال : إنّي أجنبت فلم أجد ماءً ؟ فقال عمر : لا تصلّ !

فقال عمّار : أما تذكر ـ يا أمير المؤمنين ـ إذ أنا وأنت في سريّة فأجنبنا فلم نجد ماءً ، وأمّا أنت فلم تُصلّ ، وأمّا أنا فتمعّكت في التراب وصلّيت ؟ فقال النبيّ (صلى الله عليه [وآله]) إنّما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثم تنفخ ، ثم تمسح بهما وجهك وكفّيك ؟

فقال عمر : اتّق الله يا عمّار ! قال : إن شئت لم أحدّث به ؟

وفي لفظ : قال عمّار : يا أمير المؤمنين ! إن شئت ـ لما جعل الله عليّ من حقك ـ أن لا أُحدّث به أحداً »[1] .

ويكفي بشأن الثقافة الدينية للخليفة الثاني أن نشير إلى حادثة واحدة هي :

أخرج البيهقي في سننه الكبرى ٧ : ٢٣٣ عن الشعبي قال : خطب عمر بن الخطاب (رض) الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : ألا لا تغالوا في صداق النساء ، فإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو سبق إليه ، إلاّ جعلت فضل ذلك في بيت المال . ثم نزل ، فعرضت له امرأة من قريش فقالت : يا أمير المؤمنين أكتاب الله تعالى أحق أن يتّبع أو قولك ؟ قال : بل كتاب الله تعالى ، فماذاك ؟ قالت : نهيت الناس آنفاً أن يغالوا في صداق النساء والله تعالى يقول في كتابه : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ فقال عمر (رض) : كل أحدٍ أفقه من عمر . مرتّين أو ثلاثاً . الحديث[2]

فهل من المناسب أن نودع أزمة أمور المجتمع الإسلامي بأيدي أُناس

---

(١) الغدير ٦ : ٨٣ وعن أحمد والسنن الأربعة

(٢) سنن البيهقي ٧ : ٢٣٣ . كما في الغدير ٦ : ٩٦ .

بُعداء عن أحكام دين الله إلى هذا الحد حسب اعترافهم الصريح ؟! ذلك الدّين الذي عليهم أن يكونوا أئمته ودعاته ومنفّذي أحكامه في المجتمع ؟ أفهل يُودع الله ـ حقاً ـ مصير وجميع شؤون الأمة التي غذّاها بالوحي ، والتي أسسّها على أساس آخر نسخة من وحيه وعلى يد أسمى ذخيرة في الوجود ، يُودع مصيرها بأيدي أناس لا يستطيعون أن يجعلوا الأمة الإسلامية على مسار السنن الكونية الإلهية ، ولا أن يرفعوا ستائر الإبهام عما تعقّد من المسائل والأحكام ، بل هم أعجز من أن يبيّنوا للناس المسائل الدينية البسيطة ، وأعجز من أن ينفّذوا قانون الشريعة بصورة صحيحة .

كيف يحكم العقل والفكر البعيد عن التعصّب ، والذهن الخالي من الأحكام الإلزامية السابقة لأوانها ؟

الإمامة والهداية الباطنية

ومن خصائص الإمامة والقيادة الشرعية الإلهيـة : الهدايـة الباطنيـة ، والتي هي ليست من نوع الهدايات التشريعيـة الظاهـرية ؛ وإن هـذا المقام الخاص والسامي إنمـا يفاض من قبـل الله الكبير المتعـال على جماعـة من خاصة أصفيائه المصطفين النّبلاء ، وإنّ الأوامر التكوينية الإلهية إنما تتحقق بواسطة شخصيـات سامية، تستطيـع بعلمها بمـراتب إيمان النـاس ومعرفتهم وأعمالهم وسلوكهم أن تؤثر حتى في مجاري أفكارهم ودخائل أمورهم، وأن تنوّر قلوب الناس وتجلوها على اختلاف درجاتها في الإيمان ، وأن تساعدهم على تهذيب نفوسهم وأرواحهم . وعلى الأتباع أن يوفقّوا أنفسهم مع خطوط هـدايتهم ، وأن يعصمـوا أنفسهم عن الـوقـوع في مصـائـد أهـواء النفس ومشتهياتها الذليلة .

إن من الأنبياء من نال مقام الإمامة وهذه الهداية الباطنية بعـد أن وقع موقع مختلف الامتحانات والاختبارات الإلهية ، وثبتت بذلك قدرتهم الروحية والمعنوية وأنهم بلغوا مرتبة اليقين .

ويفهم من عدد من الآيات الكريمة أن الإمـام المعصوم لـه نفس هذه الموقعيّة الحسّاسة من الهداية الباطنية ، وأنه واسطة للفيض الإلهي ، وإنّمـا تفاض هذه الهداية على باطنه من عالم الملكوت الأعلى .

فالقرآن الكريم يذكر شروطاً خاصّة لإحراز مقام الإمامة إذ يقول :

﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[1] .

فالمراد من الهداية هنا هو الهداية التكوينية لا التشريعية ، فإن الهداية الظاهرية والسعي في سبيل إرشاد الناس وتوصيتهم بالحق والصبر من وظائف كل مسلم كما أمر به الشرع ، وليس تنفيذ هذا الأمر مشروطاً بمقام الإمامة والصبر واليقين ، ولا حاجة فيه إلى طيّ هذه المراحل والمقدمات المختلفة ؛ لكن الهداية بأمر الله هي مقام لا يتحقق إلا بجعل من الله ، وإنما يتيسر الوصول إلى هذه المرتبة السامية لمن أوتي من الصبر في مواجهة الحوادث المرّة ما يتمكن معه من الفوز في الامتحانات والاختبارات الإلهية ، فهو صبور في مواجهة الذنوب والآثام ، وعندئذٍ يكون هذا العنصر الفاضل الممتحن قد بلغ مرتبة اليقين السامية ، وحينئذٍ ينال مقام الإمامة . وهذه هي شرائط الهداية الباطنية .

وكذلك يقول القرآن الكريم : **﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾**[2] .

و**﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾**[3] .

وإذ اختبر إبراهيم (عليه السلام) بأمور فأتّمها قال له : **﴿ إنّي جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذرّيتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين ﴾**[4] .

وفي هذه الآية عدة نقاط :

١ ـ إن إمامة إبراهيم (عليه السلام) إنما كانت تتشكل على أثر كيفية

---

(١) سورة السجدة : الآية ٢٤ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ٧٣ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٧١ .
(٤) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

مواجهته لأنواع الاختبارات الإلهية في رسالته ، وإنها كانت مرتبطة بكيفية خروجه من ورطة الامتحانات كفؤاً مرفوع الرأس ؛ فإنه بعد أن قطع كل تلك المراحل بقدرة عالية أوحي إليه بلوغه إلى مقام الإمامة ، وأنه أنيطت إليه مسؤولية الهداية الباطنية وتزكية النفوس والإشراف على الخط المستقيم .

٢ ـ إن إبراهيم (عليه السلام) إنما خوطب بذلك بعد أن قطع كل تلك المراحل الصعبة من الاختبارات والامتحانات الإلهية في حين أنه كان قد قرب من نهايةُ عمره أو كاد ، ولا ريب أنه في تلك الفترة من عمره كان نبيّاً متكفلاً بهداية الناس في العقيدة والفكر والعمل ، ومع ذلك أوكل إليه مقام الإمامة . ومن هنا يفهم أن منصب الإمامة بمعنى النفوذ الباطني في دخائل الناس لعونهم على مسيرتهم الروحية كان منصباً أسمى من النبوّة التي كان قد أحرزها منذ مدة مديدة .

٣ ـ إن العصمة عن المعاصي والتلوث بالآثام من شرائط الإمامة ؛ فإن الآية تعلن : أن الظالمين الذين تخطّوا حريم العصمة والتقوى وتعدّوا حدود الله في الظلم، سواء في ظلم الناس؟ أو ظلم أنفسهم ، تعلن الآية أن هؤلاء محرومون عن الوصول إلى مرتبة الإمامة والولاية على الناس .

٤ ـ إن الإمامة عهد إلهي ، وإنها تخصّ من الناس من كان من العدالة والتقوى في مستوى العصمة والطهارة ، وإن هؤلاء هم الذين لهم أن يرشدوا الناس ويُمدّوهم بالهداية الخاصة حتى المراتب السامية . ومع هذا فلا يكون هذا المنصب من اختيار الناس كي يختاروا من شاؤوا منهم لهذا المقام السامي .

٥ ـ إن الإمامة تجتمع مع النبوّة في الأنبياء ، كما كان ذلك في إبراهيم (عليه السلام) ؛ فإنه كان يتلقى الوحي الإلّهي بنبوّته وأخذ في إصلاح الأفكار المنحرفة ببراهين قاطعة وحجج قوية ، ومن ناحية أخرى حصل على الإمكانات اللازمة لهداية الناس الروحية والمعنوية الباطنية في ظلّ ما قام به

من أعمال خاصّة استثنائية ، وهنا انفتحت بوجهه أبواب الإمامة ونال هذا المنصب السامي .

ويفهم من الآية أن الله يهب مقام الإمامة لغير الظالمين من ذرّية إبراهيم (عليه السلام) ، ولا ريب أن أصلح من يجمع شرائط إحراز هذا المقام من ذرّية إبراهيم هم النبيّ والأئمة المعصومون ، ولهذا فإن هؤلاء القادة المتميزين هم المصداق الأجلى من ذرّية إبراهيم الذين نالوا مرتبة الإمامة والهداية الباطنية بما فيها من علم غيب (مفاض عليهم من الله تعالى) .

روى الكليني في (الكافي) عن الباقر والصادق (عليهما السلام) قالا : « إن الله اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً ، واتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً ، واتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً ، واتّخذه خليلاً قبل أن يتّخذه إماماً . . فلمّا جمع له هذه الأشياء ـ وقبض يده ـ قال له : ﴿ **يا إبراهيم إني جاعلك للناس إماماً** ﴾ فمن عظمها في عين إبراهيم (عليه السلام) قال : يا ربّ ﴿ **ومن ذرّيتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين** ﴾[1] » .

وقد رويت روايات كثيرة عن قادة الإسلام تثبت وتؤكد على ضرورة وجود الإمام لهداية الخلق ، وأنه ما دام يعيش على الأرض بشر فلا بدّ من وجود حجة لله عليهم ، لكي يرسم للأمة المعالم الفكرية والاجتماعية والعقائدية في ظل البرامج التعليمية التي يقوم بها ولّي الله بصفته ممثلاً لدين الله مبيّناً إيّاه للناس .

قال علي (عليه السلام) : « ألا إنّ مثل آل محمد (صلى الله عليه وآله) كمثل نجوم السماء ، إذا ذوى نجمٌ طلع نجم ، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع ، وأراكم ما كنتم تأملون » .

وقال الصادق (عليه السلام) في خطبة له : « إنّ الله أوضح بأئمة

---

(١) أصول الكافي ١ : ١٧٥ ، الحديث ٢ و٤ ط أخوندى .

الهدى من أهل بيت نبيّه (صلى الله عليه وآله) دينه ، وأبلج بهم باطن ينابيع علمه ، فمن عرف من الأمة واجب حق إمامه وجد حلاوة إيمانه وعلم فضل طلاوة إسلامه ، لأنّ الله نصب الإمام علماً لخلقه ، وحجة على أهل أرضه ، ألبسه الله تاج الوقار ، وغشّاه نور الجبّار ، يمدّه بسبب من السمّاء ، لا ينقطع موادّه ، ولا ينال ما عند الله إلا بجهة أسبابه ، ولا يقبل الله معرفة العباد إلا بمعرفة الإمام ، فهو عالم بما يرد عليه من ملتبسات الوحي ومعميّات السنن ، ومشتبهات الفتن ، فلم يزل الله تبارك وتعالى يختارهم لخلقه من ولد الحسين من عقب كل إمام يصطفيهم لذلك ، وكلّما مضى منهم إمام نصب الله لخلقه من عقبه إماماً علماً بيّناً ومناراً نيّراً ، أئمة من الله يهدون بالحق وبه يعدلون ، وخيرة من ذرّية آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل (عليهم السلام) ، وصفوة من عترة محمد (صلى الله عليه وآله) اصطنعهم الله في عالم الذرّ قبل خلق جسمهم عن يمين عرشه، مخبوءاً في علم الغيب عنده ، وجعلهم الله حياة الأنام ودعائم الإسلام[1] » .

وقال (عليه السلام) كما في رواية عنه في (أصول الكافي) : « لو كان الناس رجلين لكان أحدهما الإمام ، وقال : إنّ آخر من يموت الإمام ، لئلا يحتجّ أحد على الله عزّ وجل أنّه تركه بغير حجة لله عليه »[2] .

وأخرج الحمويني بسنده عن الأعمش قال: « قلت لجعفر الصادق (عليه السلام) : كيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور ؟ قال : كما ينتفعون بالشمس إذا سترها سحاب »[3] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : « والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض آدم

---

(١) ينابيع المودة : ٢٣ ، ٢٤ عن المناقب للإمام احمد بن حنبل . وفي أصول الكافي ١ : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ط آخوندي .

(٢) أصول الكافي ١ : ١٨٠ ط آخوندي .

(٣) ينابيع المودة : ٢١ عن الحمويني في فرائد السمطين ط آستانة .

(عليه السلام) ، إلاّ وفيها إمام يُهتدى به إلى الله ، وهو حجّته على عباده ، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده »[1] .

وروى فيه بسنده عن أبي خالد الكابلي قال : سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن قول الله تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا** ﴾[2] ؟ فقال : « يا أبا خالد ، النور ـ والله ـ الأئمة ، يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار ، وهم الذين ينوّرون قلوب المؤمنين ، ويحجب الله نورهم عمّن يشاء فتظلم قلوبهم ويغشاهم بها »[3] .

وروى الشيخ الصدوق في (علل الشرائع) بسنده عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : قلت : لأيّ شيء يحتاج إلى النبيّ والإمام ؟ فقال : لبقاء العالم على صلاحه ؛ وذلك أن الله عزّ وجل يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبيّ أو إمام ؛ قال الله عزّ وجل : ﴿ **وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم** ﴾[4] وقال النبيّ (صلى الله عليه وآله) : « النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض ، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون ، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون » يعني بأهل بيته : الأئمة الذين قرن الله عزّ وجل طاعتهم بطاعته ، فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[5] وهم المعصومون المطهّرون الذين لا يذنبون ولا يعصون ، وهم المؤيَّدون الموفّقون المسدّدون ، بهم يرزق الله عباده ، وبهم يعمر بلاده ، وبهم ينزل القطر من السماء ، وبهم تخرج بركات الأرض ، وبهم يُمْهَل أهل

---

(١) أصول الكافي ١ : ١٧٩ .

(٢) سورة التغابن : الآية ٨ .

(٣) أصول الكافي ١ : ١٩٥ ط آخوندى .

(٤) سورة الأنفال : الآية ٣٣ .

(٥) سورة النساء : الآية ٥٩ .

المعاصي ولا يُعَجّل عليهم بالعقوبة والعذاب ، لا يفارقهم روح القدس ولا يفارقونه ، ولا يفارقون القرآن ولا يفارقهم ، صلوات الله عليهم أجمعين[1] .

وروى الشيخ الكليني في أصول الكافي) بسنده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال : قلت له : أتبقى الأرض بغير إمام ؟ قال : لا ، قلت : فإنّا نروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنها لا تبقى بغير إمام إلاّ أن يسخط الله تعالى على أهل الأرض أو على العباد ، فقال : لا ، لا تبقى ، إذاً لساخت[2] .

---

(١) البحار ٣٣ : ١٩ عن علل الشرائع : ٥٢ .

(٢) أصول الكافي ١ : ١٧٩ .

عصمة الإمام ولزوم الاعتقاد بها

مما يحتوى عليه تاريخ الجدل العقائدي في الإسلام هو البحث والكلام حول ضرورة العصمة في النبيّ والإمام وعدم ضرورتها .

فقد أجمع الشيعة على اعتبار العصمة في الإمام ، وأكّدوا على تحقق هذا الشرط الأساسي في صلاحية من يحرز منصب الإمامة ؛ ذلك لأن مقام الإمامة حسّاس وخطير للغاية . إنّ من يتحمل جمّاً كثيراً من مسؤوليات الرسالة والأمة لَيواجه دائماً خطر الزلّة والانحراف إلى الانحراف من حيث يعلم أو لا يعلم ؛ ولا شك في أن شرف الأمة التي يتزعّمها وقيمها واعتبارها سوف ينجرّ بذلك إلى الانحطاط والسقوط ، وأنّ الآثار السلبية لانحراف القائد سوف تصيب القاعدة أي المجتمع الإسلامي .

إن هذه الانتباهة الخاصة إلى ضرورة العصمة لهي من خصائص التشيّع ، وإنها لدليل على نضج الفكر الديني لديهم وإدراكهم العميق للإسلام ، إذ يسعون للتعرّف على القائد بمنتهى الدقة واليقظة ، ويرون القيادة قلادة لا تليق إلا بإنسان سامٍ عالم معصوم . العصمة فيه كغاية درجات التقوى ونهيه نفسه عن الهوى ، أما العلم فيه والمعرفة فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو نابع من ينبوع علم الله المطلق . وأنّ هذه الخصائص لا تتحقق إلاّ في الأئمة من عترة الرسول . بينما يقبل أهل السنة إمامة وخلافة

كثير من مدّعيها من دون أيّ شرط أو قيد من هذا القبيل ، فهم لا يشترطون فيمن ينال هذا المقام من الخلفاء العصمة من الذنوب والمعاصي .

إنّ العصمة : هي قوة باطنية تعصم صاحبها عن المعاصي ، وهي إنما تنبع من الإيمان والتقوى والمعرفة التامة والدقيقة بالله العليّ العظيم ، وتمنح صاحبها الحصانة أمام أنواع المعاصي والمفاسد الأخلاقية وغيرها . إنّ هذه الصفة النفسانية الذاتية التي تحصل من معرفة حقائق الأشياء في عالم الوجود ،تؤثّر في امتناع الإنسان عن أيّ تمرّد أو عصيان على الخالق ، سواء في الصغائر أو الكبائر ، في العلن أو السرّ .

وإنّ ما نقوله من عدم تأثير دواعي المعاصي في كيان هذا الإنسان ، لا يعني أن هناك ـ بإرادة الله ومشيئته ـ قوة جبريّة تمنعه عن الانجذاب نحو الذنوب ، وتسلبه قدرته على القيام بأية معصية ، بل نريد : أنه ـ ومع تمتّعه بحرية الاختيار والعمل ـ لا تدعه رؤيته الواقعية ومعرفته بالله العظيم وعلمه بإحاطة الله به ، لا تدعه أن يتقرّب إلى منطقة خطر الذنوب ، وأنّه قد بلغ من العلم والمعرفة درجة عميقة لا يتطرق معها إلى حريم فكره الطاهر حتى تصوّر الذنوب ، وأنه في تقواه وتسلّطه على نفسه موفّق توفيقاً يصل معه احتمال ارتكابه المعاصي درجة الصفر لا يتعدّاها .

إنّ ارتكاب الأعمال غير الصالحة ينشأ من الجهل وعدم المعرفة بقبح العمل وآثاره الضّارّة ، وإذا كان معتقداً بقبح العمل إلى حدّ ما ، وكان وجدانه الباطنيّ يحذّره مغبّة عمله،فإنه قد يفتقد قدرته على ضبط نفسه أمام ضغوط الأهواء فينجذب إلى الذنوب والفساد . وعلى هذا فإن التوجّه إلى خسائر وأضرار الأعمال السيّئة مع الشعور بحق طاعة المولى ، وبمعونة قوة التقوى ، يوجد في الإنسان حصانة خاصّة ، لا حاجة معها إلى عامل آخر لضبط النفس عن السوء .

روى الشيخ الصدوق في أماليه بسنده عن محمد بن أبي عمير قال: «ما سمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم في طول صحبتي إياه شيئاً أحسن

من هذا الكلام في صفة عصمة الإمام ؛ فإني سألته يوماً عن الإمام أهو معصوم ؟ قال : نعم ، قلت : فما صفة العصمة فيه ؟ وبأي شيء تُعرف ؟ قال :

إن جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها : الحرص ، والحسد ، والغضب ، والشهوة . فهذه منفيّة عنه ؛ لا يجوز عليه أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهي تحت خاتمه ؛ لأنه خازن المسلمين ، فعلى ماذا يحرص ؟ ولا يجوز أن يكون حسوداً ، لأن الإنسان إنما يحسد من هو فوقه ، وليس فوقه أحد ، فكيف يحسد من هو دونه ، ولا يجوز أن يغضب لشيء من أمور الدنيا إلّا أن يكون غضبه لله عزّ وجل ، فإنّ الله عزّ وجل قد فرض عليه إقامة الحدود ، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا رأفة في دينه ، حتى يقيم حدود الله عزّ وجل . ولا يجوز أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة ؛ لأن الله عزّ وجل حببّ إليه الآخرة كما حببّ إلينا الدنيا ، فهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر إلى الدنيا ، فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح ، وطعاماً طيباً لطعام مُرّ ، وثوباً ليّناً لثوب خشن ، ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية » ؟ !(1) .

ويخضع الناس لدعوة القائد بوصفها تكليفاً شرعياً ، ويتقبّلون تعاليمه بدون أي قيد أو شرط فيما إذا اعتقدوا بأنّ أوامره تمثّل أحكام الله تعالى ، من دون أيّ ريب أو ترديد . أما إن لم نأمن من أحد ارتكاب الذنوب لعدم حصانته من الخطأ والخطل والسهو والزلل فهل لنا أن نعتمد على أقواله بالقطع واليقين ، وأن نطمئن إلى أقواله وأوامره بقلوبنا ؟! .

إنّ الإنسان أمام المظاهر الخلاّبة والميول النفسانية وحبّ الجاه والمال والثروة ، لا يزال في معرض الزلّات والهفوات والعثرات ، وإنما هي قوة العصمة التي لا تدعه يتزلزل أمام عوامل الانحراف ، ولا تتركه ينكسر في مقاومته لها .

---

(1) أمالي الصدوق : ٥٠٥ ط بيروت .

وإن لم يتمكن الإنسان من الاعتماد على القائد مئة بالمئة بقيت رسالة الأديان ـ وهي تكامل الإنسان ـ ناقصة غير تامة ؛ فإنه مع عدم حصانة القائد عن الخطأ والخطل سوف تبتلى الرسالة بتحريفات كثيرة ، وسوف يبتعد دين الله عن هدفه الأصيل ،وسيبتلى الناس في كل أمر من أوامر القائد بالشك والترديد في أن تكون أوامره هذه مبتنية على أساس الوحي ونظر الإسلام الواقعي ؟! .

ولا يمكن أن نقتصر في عصمة قائد المسلمين وطهارته ونزاهته وبعده عن أيّ اعوجاج أو انحراف أو اقتراف ، على عهد إمامته فحسب ، بل يجب أن لا يتلوث قلبه بالإثم في جميع أدوار حياته من قبل نيله مقام الإمامة ؛ فإن المعاصي تسقط بأصحابها عن مقام الكرامة الإنسانية ، على أن الناس لو علموا في القائد سابقة سوء لأصبح في معرض الاتهام لديهم بالآثام دائماً ، ولسرت الشبهة في مشروعية حكمه وقيادته في قلوب الناس ، ولم تعرفه الأمة مثلاً للتقوى والصلاح ، فضلاً عن أن تصبح مغرمة بأعماله وفضائله المعنوية والروحانية .

إن الناس سوف لا ينسون الخواطر المرّة عمّن قد قضى قسطاً من عمره في الآثام والفساد ، ومن هنا يتقوّى موقف المخالفين تقوية تامّة ، فإنهم يتمكنون بذلك من تعييره بكل صراحة واقتدار ، وأن يسقطوه بذلك عن أعين المسلمين ، وبذلك يفصلون بين القائد وقاعدته الشعبيّة . ولا يتمكن هو من الدّفاع عن كرامته الروحية والمعنوية ، وأن يرد هجمات المخالفين بالبيان والاستدلال .

إنّنا لو لاحظنا حياة الأئمة الطاهرين لرأينا أنّ مخالفيهم ـ بما فيهم من الوقاحة والصلافة ـ لم يلجأوا في سعيهم لكسر شوكتهم في أعين الناس إلى اتّهامهم بفساد الأعمال ، ولو كانت فيهم أية فرصة لذلك لما سكتوا عن مثله . وأيضاً لو كان كذلك لما كان الناس يطمئنون إلى كلامهم في الوحي والأحكام الإلهيّة هذا الاطمئنان ، إذ كانوا يحتملون فيهم الكذب والقول

بخلاف الواقع والحقيقة ، وبذلك كان الشك والترديد يتطرق دائماً إلى كلامهم ودعاويهم ، والقيادة الدينية بوصفها مرتبطة بالله تعالى لا تثبت في جوّ يشوبه عدم الوثوق بالقائد .

ونقرأ في آيات الذكر الحكيم أن فرعون الطاغي الباغي لمّا واجه موسى (عليه السلام) وجّه أصابع التهمة إليه بسابقته السيّئة عنده فقال له : **﴿ ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين * قال : فعلتُها إذاً وأنا من الضالّين * ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لي ربّي حكماً وجعلني من المرسلين ﴾**(1) .

ولهذا نقول : إنّ أولى الشرائط الضرورية لإحراز مقام الإمامة هي طهارة باطنه وعصمته . ونزاهة قلبه في جميع أدوار حياته قبل وبعد وصوله إلى مقام إمامة الأمة .

صحيح أن الإنسان مُعرَّضٌ للخطأ والنسيان ؛ ذلك لأن معلوماته إنما هي سلسلة من المفاهيم والتصورات التي حصل عليها بحواسّه ، فهو لهذا ليس في مأمن عن الخطأ والنسيان . أما الإمام الذي يرى بواطن أمور الكون رؤية واقعية ، وله الطريق إلى كنوز المعارف والعلوم الحقيقية ، أما هذا فإنه حينما يدرك الحقائق والواقع كذلك لا بحواسّه ، يكون بمنأى عن الخطأ والخطل والزلل ، فإن الخطأ إنما ينشأ في تطبيق الصور الذهنية على الواقع الخارجي ، وهذا لا يكون فيما لو كان الإنسان يقع على حقائق الأشياء بصورة مباشرة وبلا واسطة ، فإنه هنا لا معنى للخطأ والاشتباه .

إنّ عصمة الإمام التامة في أقواله وأفعاله لهي من آثار علومه الإلهية الغيبيّة ، فإن الإنسان بطبيعة الطرق العادية لا يتمكن من الوصول إلى جميع الواقعيّات ولا أن يدرك الحقائق كما هي . وهذا هو العلم الإلهي والغيبيّ

---

(1) سورة الشعراء : الآيات ١٨ ـ ٢١ .

الذي يصون الإنسان عن الخطأ والنسيان دائماً ، ويهديه إلى حقائق الأمور أبداً .

وإنّ لهذه العصمة ـ التي هي غاية درجات التقوى العملية ـ دوراً أساسياً في تربية نفوس الناس ؛ وإن أثر أفعال وصفات القائد في تغيير وتحويل وتنمية نفوس الناس وتربية التقوى في قلوب أتباعه أكثر بكثير من أقواله وبياناته المختلفة . إن المتكفّل بمسؤولية القيادة المعنوية للأمة لو كان مجرّداً عن الفضائل الروحية ولم نجد فيه النزاهة التامة والتقوى الكاملة ، لم يتمكن من تربية غيره تربية عالية سامية ، ولم يستطع أن يؤدّي دوراً بنّاءً في تغيير وتحويل نفوس الناس ، بل ولا أن يهديهم نحو أهداف التربية الدينية أبداً .

هذا وقد نسب القرآن الكريم إلى الأنبياء الكرام ما يوهم العصيان ، فعلينا أن نستوضح نوعية الذنوب ليتضّح لنا واقع الأمر : إن عصيان الأوامر الإلهية بمعنى التورّط في ورطة السيّئات ، لهو ذنب واقعيّ لا يغتفر وقوعه من الأنبياء ، وبإزائه جزاء خاص مقررّ له . وإنّ ساحة قدس الأنبياء منزّهة عن هذا النوع من الآثام . ولكن هناك نوع آخر من المعاصي قد يطلق عليها الذنوب النسبيّة ، ولا يستتبع ارتكابُها جزاءً عليها ، ولكن صدور مثل هذه المعاصي النسبية أيضاً من ناحية سالكي سبيل الله من أوليائه المقرّبين الذين يرتبطون بمبدأ الوجود برابطة مستقيمة ، وهم يلمسون الحقائق الخفيّة لمساً واقعياً ، لهو خلاف ما يتوقع منهم ، فلا ينتظر منهم ـ مع ما هم عليه من المعرفة التامة ـ أن يغفلوا عن ذكر الحق ولو لحظة واحدة . ولهذا فإن غفلتهم ولو لمدة قصيرة سوف تقصر بهم عن رتبتهم ومقام قربهم في ساحة الحق سبحانه .

إنّ أولياء الله مع ما لهم من الإيمان الراسخ والعلم العظيم ووصولهم إلى الحقائق الواقعية ومنابع المعرفة التامة واليقظة الكاملة ، إن ابتلوا ـ ولو موقتاً ـ بأقل انقطاع عن الحق تعالى ، عُدَّ منهم وكأنّه ذنب ومعصية وزلة وعثرة

لا تستتبع لغيرهم حتى عتاباً فضلاً عن العقاب ، وذلك لعدم مناسبة صدور مثلها من تلك الشخصيات العظيمة المقدسة .

وهذه حقيقة تصدق حتى بالنسبة إلى الشخصيات الاجتماعية بالنظر إلى موقعيتهم في المجتمع ، فإن ما ينتظره ويترقعه الناس من الشخصيات يختلف ويتفاوت بتفاوت مراتبهم في المجتمع ، وعلى كل شخصية أن يراعي ما يتوقعه منه الناس حسب شؤونه ووزنه عندهم . فمثلاً : يتوقعون من عالم أديب من أدب الكلام وعفّته ما لا ينتظرونه من فرد عاميّ أميّ لا يقرأ ولا يكتب .

صحيح أن العلم بالآثار السيّئة لأعمال السوء لا يوجب حصانة عند العالم بها ، ولا أثر لهذا العلم كعامل مانع رادع يُطمأنّ إليه دائماً ؛ ولكن العلم بالواقع وبالشكل الواسع بجميع الآثار الخطيرة للذنوب والخوف من عقاب الله الأليم ، وبكلمة : تلك المعرفة العميقة والرؤية الكاشفة عن الواقع بصورة محسوسة ملموسة بحيث لا تؤثر فيها فواصل الزمان والمكان ، إنّ هذا العلم لهو عامل مهم في انضباط حامله بحيث يجعل صدور المعصية من المعصوم من غير الممكن .

إنّ الطيّار العاقل لا يطير بطيّارة يعلم آنها ستنفجر في الفضاء بفعل قنبلة موقوتة بها ؛ ولا ريب أن هذه الحصانة في هذا الطيار عن هذا العمل الجنوني لا تكون فيه بلا إرادة منه معها، بل إنّه ذو إرادة واختيار في أن يطير أو لا يطير على حدّ سواء ، وإنّ امتناعه وتقواه عن الطيران إنما يبتنى على أساس وعي كامل تام لتلك النتيجة الضرورية الموحشة لهذا العمل (الطيران) ؛ وإنما هو العقل والعلم اللذان لا يسمحان له بالطيران . ويهبطان باحتمال إقدامه على مثل هذا العمل ـ مع علمه بعاقبته ـ إلى الصفر .

هنا لنا أن ندرك جيّداً كيف أن الاطّلاع الواعي والعميق والواضح كالمحسوس الملموس بالنسبة إلى النتائج الخطيرة للأعمال يُوجد لصاحبه

الحصانة من تلك النتائج ،وكيف يكون لهذا الإدراك مظاهر علميّة وقدرة على إيجاد المنعة عند الإنسان .

فالإمام والقائد الدينيّ المعصوم ليس مجبوراً في طاعته لأوامر ربّه واتّصافه بالطهارة والفضائل النفسانية ، والعصمة لا تنفي عنه الإرادة والاختيار بحيث لا يقرب الذنب قهراً وبلا إرادة . ومن ناحية أخرى : فإن توجههم الدائم إلى ذات ربّهم ، وسعيهم الحثيث في سبيله ، وتضحيتهم وتحمّلهم للألم له ، وصرفهم كل إمكاناتهم وقواهم وطاقاتهم لرضاه ، كل ذلك مما يحصّنهم ضد الذنوب ، فهم مع ما لهم من القوة والقدرة على عمل السيّئات لا يلوّثون أنفسهم بها ، بل وحتى إنّ أفكارهم لا تميل إلى جانب الإثم والعدوان .

إنّ معرفتهم التامّة بمفاسد المعاصي من ناحية ، ومعرفتهم التامة بعظمة وقداسة الربّ تعالى من ناحية أخرى ، تجعل جميع ميولهم وأهوائهم النفسية في وجودهم في قبضة إرادتهم واختيارهم ، وتثبّت أقدامهم على الحق والهدى والفضيلة والتقوى وكل ما هو خير للبشر .

وحتى بين الأفراد غير المعصومين يوجد أناسٌ متيّمون بحب ربّهم يضحّون بكلّ كيانهم لرضا الحق وفي سبيل الوصول إلى الدرجات المعنوية العالية ، ومن أجل بلوغ المقام السامي في الإنسانية والحصول على رضا الحق تعالى يعتصمون به عن كثير من المعاصي ، وتصبح دوافع التخلّف عندهم عن الأوامر الإلهية باهتة لديهم جدّاً . ومن الممكن أن تكون لهم هذه الحالة من دون بصيرة واعية ومعرفة تامّة بالقيم والمُثل ، بل يكون حسّ الطاعة فيهم لأوامر الله تعالى وطهارة أفكارهم وأذهانهم هما ما يدفعانهم إلى سلوك هذا السبيل ، وهما اللذان يحوّلانهم ذلك التحوّل الذي يقتل فيهم روح التمرد والعصيان والطغيان والميول الهوجاء ، ويجرّهم إلى حيث يتّخذون هذه المواقف الحاسمة في طاعة ربّهم .

ومن جانب آخر : فإنّ العناية الإلهية بتبليغ رسالته إلى الناس تنفي

السهو والخطأ عن حاملها ؛ فكما أنّ تلقّي الرسول لأحكام الله بالوحي يتم بعناية الله ومراقبته ، فتتحقق العصمة في هذه المرحلة من الرسالة بعناية الله ، إذ يجب أن تصل أوامر الله إلى الناس بعيدةً عن التحريفات العمدية والسهوية وبدون أدنى زلّة فيها . . .

وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ **ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يضلّوك ، وما يضلّون إلاّ أنفسهم ، وما يضرّونك من شيء . وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾[1] . .

كذلك يجب أن يكون إبلاغ وتنفيذ الأحكام الموحى بها إليه يتمتع بهذه الميزة أيضاً ، وإنّ حقيقة امتداد خطّ الرسالة تستوجب أن يكون الإمام القائد كذلك في حصار من الحصانة والعصمة قولاً وعملاً وفكراً ؛ فإنّ الخطأ في بيان أحكام دين الله سوف يُحبط أهداف الإمامة ، كما أنّ الحاكم الظالم والفاسد يشكل خطراً حقيقياً على أهداف الرسالة .

لا ريب في أن مسؤولية صيانة وتنفيذ القوانين الإلهية إن لم يتعهّد بها معصوم بعيد عن السهو والخطأ ، يكون على رأس القوة التنفيذيّة لكي ينفّذها بدقة وأمانة وإخلاص ، لم تبق أحكام دين الله بمأمن من التحريف والتغيير ، إذ يحتمل حينئذٍ ـ إن لم يكن الإمام معصوماً ـ أن يخطىء منفّذ الأحكام في مقام التنفيذ ، أو يخطىء في فهم الحكم ، بل أن يغيّرها ويحرفها حسب مصلحته الشخصية عمداً .

أضف إلى ذلك أن كثيراً من آيات القرآن الكريم بحاجة إلى التفسير والتوضيح ، وهذا من وظائف إمام المسلمين ، فهو الذي عليه أن يبيّن ويوضح الحقائق لهم .

إنّ من بلغت الكمالات الإنسانية فيه من القوة إلى الفعل فهو الإنسان

---

(١) سورة النساء . الآية ١١٣ .

الكامل ، وهو غاية الحركة التكاملية للبشر ، وهـو الذي يكـون على صراط مستقيم في الدين ، وعليه أن يكون عاملاً بأوامر الشريعة في جميع عمره ، وأن لا يتلوث بلوث الآثام في كل دهره ، إذ لو كان يقضي ولو شيئاً يسيراً من عمره في الآثام منحرفاً في حركته عن متن الصراط المستقيم ولو لمدة قصيرة كان عاصياً لله فيها ، فهـذا لا يمكن أن يعتبر شخصـاً نموذجيّـاً وأسوة دينيـة كاملة ، وعلى هذا فلا يتحقق فيه الهدف الإلهي في تنمية قابليّات البشر عن طريق طاعتهم لأوامر الله تعالى .

لهذه الحقائق ، لا يمكننا أن نغضّ النظر عن ضرورة العصمة التامّة في مبيّن القوانين الإلهية ومنفّذها حتى من قبل تصدّيه لمقام الإمامة ؛ فإن الأمة لا تستطيع أن تخضع مطمئنةً لمن لم تتحقق فيه شرائط الإمامة وأن تـستسلم لهدايته وإرشاداته .

تأييد وجوب العصمة من الكتاب والسنّة

إن آية التطهير تدلّ على عصمة أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فإنها ترسم لنا عنهم صورة ظاهرة نزيهة ، وتقدس شخصيّاتهم وتنزّهها عمّا يشينها فتقول : ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً** ﴾[1] .

أما الرّجس فقد جاء في اللغة العربية بمعنى كلّ ما يلوّث الإنسان سواء كان لوثاً ظاهريّاً أم باطنيّاً والذي يُعبّر عنه بالإثم ، وكذلك جاء في القرآن الكريم بالمعنيين ، ففي مورد جاء بمعنى اللوث الظاهري إذ قال : ﴿ **ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ، فإنّه رجسٌ** ﴾[2] .

وجاء في مورد آخر بمعنى النجاسة الباطنية والذّاتية إذ يقول : ﴿ **وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** ﴾[3] .

أما في الآية الكريمة التي نطقت بإذهاب الرجس عن أهل بيت النبوّة ؛

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٤٥ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١٢٥ .

فلا يمكن أن يفَسر بمعنى اللوث الظاهري ؛ إذ الابتعاد عن النجاسة الظاهرية وظيفة دينية عامّة لجميع المسلمين ، فكلهم مكلّفون بأن يتطهّروا من النجاسات الظاهرية ، ولا يخص هذا الأمر بأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) بينما الآية تتضمّن ميّزة خاصة لأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) . ثم إنّ الاجتناب الظاهريّ من النجاسة الظاهرية لا تعدّ فضيلة لهم حتى يخصّ القرآن الكريم بها أفراداً معيّنين . إذن فلا يمكن أن نتصوّر للآية مفهوماً صحيحاً واضحاً سوى أن نفسّر الرجس في آية التطهير بمعنى نجاسة الروح والباطن فقط .

أما إرادة الله أن يذهب الرجس عن حريم أهل بيت النبوة فهي إرادة تكوينيّة ، بمعنى أن الله أراد في نظام التكوين أن تكون ساحة أهل هذا البيت بريئة من كل رذيلة متحلية بكل فضيلة . إذ لو فسّر إرادة الحق تعالى في الآية بالإرادة التشريعية فهم من الآية أن الله في قانونه وتشريعه قد قررّ أن لا يدنّس أهلُ البيت أنفسهم بلوث الآثام ، أو أن يجتنبوا الأرجاس والأنجاس ؛ ولا ريب أن هذا المعنى بعيد عن الواقع جدّاً ولا يمكن قبوله ؛ إذ ترك الذنوب والتطهّر من النجاسات وظيفة دينية وتكليف شرعي ، وليس فخراً خاصاً بأحد ولا ميّزة له ، حتى يعمل الرسول له ما لم يعمله من قبل فيضع على رؤوس أهل بيته كساءً ويمنع غيرهم من الدخول فيه .

إنّ نزول آية التطهير دوّى بين أصحاب الرسول على عهده (صلى الله عليه وآله) وهم الذين أطلقوا بالفعل على هؤلاء الخواص المشمولين للآية عنوان : أصحاب الكساء ، ولم يتردّدوا في قداستهم وإخلاصهم . وكذلك أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله) كانوا إذا رأوا ضرورة لبيان موقعهم المعنوي والروّحاني الخاص استندوا إلى نزول آية التطهير فيهم كسند فخار خاصّ بهم .

فلقد احتجّ أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في الشورى الذي انعقد بعد قتل عمر لتعيين الخليفة فقال :

« نشدتكم بالله هل فيكم أحد أذهب الله عنه الرجس وطهّره تطهيراً غيري ؟ قالوا : لا »[1] .

وروى السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) رواية طريفة عن ابن عباس أنه قال : « شهدنا رسول الله (صلى الله عليه [وآله]) وسلم تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت **﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً ﴾** » .

ورواه أيضاً عن الطبراني عن أبي الحمراء ولفظه : رأيت رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) يأتي باب علي وفاطمة ستة أشهر فيقول **﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً ﴾** .

وأيضاً عن ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء ولفظه : حفظت من رسول الله ثمانية أشهر بالمدينة ليس مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلاّ أتى إلى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال : الصلاة الصلاة **﴿ إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً ﴾**[2] .

ففي هذه الرواية نرى الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) قد فسّر آية التطهير ببيت فاطمة بكل صراحة .

وأما سبب نزول الآية وشأنها ، فإن أم سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المعروفة بالفضل والتقوى والتي وقع الأمر في بيتها ، قد روت قصة نزول الآية للناس كما يلي :

« في بيتي نزلت: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

---

(١) الاحتجاج ١ : ١٩٥ط النجف عن الباقر (عليه السلام) بهامشه عن مناقب الخوارزمي : ٢١٧ بسنده عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن علي (عليه السلام) قال : فأنشدكم بالله هل فيكم أحد أنزل الله فيه آية التطهير حيث قال : **﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾** غيري ؟ قالوا : اللهم لا ، وفي غاية المرام : ٢٩٥ .

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٩٩ .

ويطهركم تطهيراً » جاءت فاطمة ببرمة فيها ثريد ، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) لها : ادعي لنا زوجك وحسناً وحسيناً . فدعتهم . فبينا هم يأكلون إذ نزلت هذه الآية ، فغشاهم بكساء خيبري كان عليه وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وحاميتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . ثلاث مرات »[1] .

ونقل القندوزي في ينابيع المودة عن جواهر العقدين : أخرج أحمد في المناقب وابن جرير والطبري عن أبي سعيد الخدري قال : نزلت هذه الآية في خمسة : النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي وفاطمة والحسن والحسين [2] .

ويفصل القصة عمر بن أبي سلمة ربيب النبي (صلى الله عليه وآله) فيقول : نزلت ﴿ إنما يريد ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ في بيت أم سلمة (أمه) فدعا النبي (صلى الله عليه وآله) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فجلّلهم بكساء ، وعلي خلف ظهره ، فجلّلهم بكساء ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . قالت أم سلمة : وأنا معهم يا نبي الله ؟ قال : أنت على مكانك وأنت إلىٰ خير . ثم قال : هذا حديث حسن صحيح وهو أحسن شيء روي في هذا الباب[3] .

وفي صحيح مسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: خرج النبي (صلى الله عليه وسلم) غداة غدوة وعليه مرط مرجَّل من شعر أسود ، فجاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

---

(١) ينابيع المودة : ١٠٧ط استانبول ، عن ابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم .

(٢) ينابيع المودة : ١٠٨ ط استانبول .

(٣) ينابيع المودة : ١٠٧ط استانبول . أخرجه عن سنن الترمذي في مناقب أهل البيت بعد ذكر مناقب الأصحاب . ورواه جامع الأصول ١ : ١٠١

ويطهركم تطهيراً »[1] .

وحيث كان من شهد حديث الكساء أناساً معـدودين ، لذلك، ولأهمية الموضوع وعناية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بنشر الخبر بين الناس لتبيين مصداق أهل البيت ، ولئلا يبقى الخبر محصوراً في نطاق محدود بل يطلع الأصحاب على ما جرى في ذلك ، وليبلغ الشاهد الغائب بذلك ، كان يتابع هذا الموضوع إلى مدة مديدة ، وكما روى أنس بن مالك إلى مدة ستة أشهر : كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : الصلاة يا أهل البيت يرحمكم الله . ثلاثاً .[2] .

وروى مثله السيد البحراني في كتابه « غاية المرام » عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) [3] .

وحاول البعض أن يقول : بأن آية التـطهير إنمـا نزلت ضمن مـوضوع الآيـات المتعلقة بنسـاء النبي (صلى الله عليه وآلـه وسلم) وقرينـة السيـاق تقتضي أن تكون الآية ترتبط بنساء النبي أيضاً ، أو أن لا نخرجهن عن شمول هذه الآية . ولـوكانت الآيـة على العصمة للزم أن يكـون نسـاء النبي جميعـاً معصومات ، في حين لم يقل بعصمتهن أحد ، إذن فعلينا أن نرى هذه الآية مرتبطة بنسـاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا دليلاً على العصمة فيهن أو في سائر أهل البيت .

ولا يرد هذا الإشكال ، ولا يتفق هذا الاستنباط وتركيب الآية ذاتها ، إذ

---

(١) ينابيع المودة : ١٠٧ ط استانبول ، ثم قال : وأخرجه الحاكم أيضاً .

(٢) ينابيع المودة : ١٠٨ ط استانبول أخرجه عن أحمد بن حنبـل وابن ابي شيبة نقـلاً عن شرح الكبريت الأحمر للشيخ علاء الـدولة السمنـاني وص ١٧٤ وروى مثله الكنجي الشافعي في كفـايـة الـطالب : ٢٣٢ عن ابن عبـاس ، وفي صحيـح الترمـذي ٢ : ٣٠٨ ومستـدرك الحاكم ٣ : ١٥٨ وكنز العمال : ١٠٢ والفصول المهمة : ٨ وتفسير الطبري ٢٢ : ٥ وابن كثير ٣ : ٤٨٣ .

(٣) غاية المرام : ٢٩٥ .

لو كانت الآية تتعلق بنساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للزم أن يكون الخطاب للمؤنث لا لجمع المذكر ، بينما الآية تقول «عنكم» و«يطهركم» .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر : فقد صرحت روايات كثيرة بشأن نزول الآية ، وفيها : أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في جواب أم سلمة وزينب وعائشة اللواتي كنّ يسألنه : هل هن من أهل بيته ؟ كان يقول : لا تقربي ، كوني بمكانك ، وأنت على خير . . أما إذا تلقينا آية التطهير كجملة معترضة بين الآيات المتعلقة بنساء النبي فلا إشكال في ذلك ، إذ مثل ذلك كثير بين كلمات الفصحاء ، وفي القرآن الكريم أيضاً لا يختص بهذا الموضوع فقط .

على أن التطهير هنا كأنه مرادف للعصمة ، ولم تكن نساء النبي بهذه المرتبة بإجماع جميع المحدثين والمؤرخين المسلمين ، بل إنهنّ آذين رسول الله مراراً حتى بلغ الأمر بالنبي أن هجرهن شهراً كاملاً وهددهن بطلاقهن . وأكثر من هذا ، فقد توقف رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع جمع من أصحابه عند بعض حُجَر نسائه وأشار إليه يقول : من هنا الفتنة . من هنا الفتنة[1] .

ويطرح العلامة السيد شرف الدين هنا احتمالاً يقول : « الرابع : أن القرآن لم يترتب في الجمع على حسب ترتيبه في النزول بإجماع المسلمين كافة . وعلى هذا فالسياق لا يكافىء الأدلة الصحيحة عند تعارضهما ، لعدم الوثوق حينئذ بنزول الآية في ذلك السياق . ولذا كان الواجب في مقامنا هذا ـ آية التطهير ـ ترك فحوى السياق لو سُلّم ظهوره بما زعموا »[2] .

فمع هذا ، كيف لنا أن نرى نساء النبي مشمولة لعموم آيات التطهير ؟ .

---

(١) صحيح البخاري ١ : ١٨٩ .

(٢) الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء ، بهامش الفصول المهمة في تأليف الأمة .

ومن ناحية أخرى فإن الروايات التي تبيّن عصمة الأئمة (عليهم السلام) بصراحة ليست بقليلة ، فعن عليّ (عليه السلام) أنه كان يقول : « فأين تذهبون ، وأنّى تؤفكون ؟ والأعلام قائمة ، والآيات واضحة ، والمنار منصوبة . فأين يُتاه بكم وكيف تعمهون ؟! وبينكم عترة نبيّكم ، وهم أزمّة الحق ، وأعلام الدين ، وألسنة الصّدق ! فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن ، ورِدوهم ورود الهيم العطاش .

أيها الناس ! خذوها عن خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إنه يموت من مات منا وليس بميت ، ويبلى من بلي منا وليس ببال » فلا تقولوا بما لا تعرفون ، فإن أكثر الحق فيما تنكرون ، واعذروا من لا حجة لكم عليه »[١] .

وقال الرضا (عليه السلام): « الإمام : المطهر من الذنوب ، والمبرّأ عن العيوب ، المخصوص بالعلم ، والموسوم بالحلم ، نظام الدين وعزّ المسلمين ، غيظ المنافقين وبوار الكافرين »[٢] .

وقال الصادق (عليه السلام) : « الأنبياء وأوصياؤهم لا ذنوب لهم لأنهم معصومون مطهرون »[٣] .

ويوضح الموضوع أكثر من هذا فيقول بهذا الصدد : « فالإمام هو المنتخب المرتضى ، والهادي المنتجى ، والقائم المرتجى . اصطفاه الله بذلك واصطنعه على عينه في الذرّ حين ذرأه ، وفي البرية حين برأه ، ظلاً قبل خلق نسمة عن يمين عرشه ، محبوّاً بالحكمة في علم الغيب عنده . اختاره بعلمه وانتجبه لطهره . بقية من آدم ، وخيرة من ذرية نوح ، ومصطفى من آل

---

(١) نهج البلاغة ١ : ١٢٠ خطبة ٨٧ ط صبحي الصالح .
(٢) أصول الكافي ١ : ٢٠٠ ط آخوندي .
(٣) البحار ٢٥ : ١٩٩ عن الخصال للصدوق ٢ : ١٥٤ .

إبراهيم ،وسلالة إسماعيل ، وصفوة من عترة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) . لم يزل مرعياً بعين الله يحفظه ويكلأه بستره ، مطروداً عنه حبائل إبليس وجنوده ، مدفوعاً عنه وقوب الغواسق ، ونفوث كل فاسق . مصروفاً عنه قوارف السوء ، مبرأً من العاهات ، محجوباً عن الآفات ،معصوماً من الزلّات، مصوناً عن الفواحش كلها، معروفاً بالحلم والبر في يفاعه ، منسوباً إلى العفاف والعلم والفضل عند انتهائه ، مسنداً إليه أمر والده ، صامتاً عن المنطق في حياته .

فإذا انقضت مادة والده إلى أن انتهت به مقادير الله إلى مشيئته ، وجاءت الإرادة من الله فيه إلى محبته ، وبلغ منتهى مدة والده (عليه السلام) ، فمضى وصار أمر الله إليه من بعده وقلده دينه ، وجعله الحجة على عباده ، وقيّمه في بلاده ، وأيده بروحه وآتاه علمه ، وأنبأه فصل بيانه ، واستودعه سرّه ، وانتدبه لعظيم أمره ، وأنبأه فضل بيان علمه ، ونصبه علماً لخلقه ، وجعله حجة على أهل عالمه ، وضياءً لأهل دينه ، والقيّم على عباده ، رضي الله به إماماً لهم ، استودعه سرّه واستحفظه علمه ، واستخبأه حكمته ، واسترعاه لدينه ، وانتدبه لعظيم أمره ، وأحيا به مناهج سبيله وفرائضه وحدوده ، فقام بالعدل عند تحيّر أهل الجهل وأهل الجدل ، بالنور الساطع والشفاء النافع ، بالحق الأبلج والبيان اللائح من كلّ مخرج على طريق المنهج ، الذي مضى عليه الصادقون من آبائه (عليهم السلام) ، فليس يجهل حقّ هذا العالم إلّا شقيّ ، ولا يجحده إلّا غويّ ، ولا يصدّ عنه إلّا جريّ على الله جلّ وعلا »[1] .

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله قال : « إني أوشك أن أدعى فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي . وإن اللطيف

(۱) أصول الكافي ۱ : ٢٠٤ ط آخوندي .

الخبير أخبرني : أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما »[1] .

هذا الحديث هو الحديث المعروف بالثقلين الذي رواه كبار علماء الشيعة والسنة في كتبهم بأسانيد عديدة بل متواترة ، ولنا أن نستفيد من هذا الحديث عدة نقاط مهمة :

أول ما في هذا الحديث مما ينبغي التوجه والالتفات إليه هو أن السيرة العملية للأئمة المعصومين ليست ممّا ينبغي الاقتداء به فحسب ، بل من اللازم والواجب والضروري أن نجعل سيرتهم أسوة وقدوة لعملنا ، وأن الإعراض عن سيرتهم ممّا يوجب الضلال عن الحق والهدى . وهذا إنما يصحّ فيما لو كانت خطاهم لا تزلّ عن طاعة الرحمان إلى سبيل العصيان ، بل كانوا مستقرين ثابتين على عصمتهم ، إذ لو لم يكونوا كذلك كان من الطبيعي أن تقع الأمة باتّباعها لهم في مهاوي الضلال . بينما يعلن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أن اتّباع عترته لا ضلال فيه ، إذ هم الإسلام المجسّد ، ولهذا كان على الأمة أن تتبع سيرتهم كأسوة للعمل ، وعليهم أن يجسدوا ذلك عملياً في حياتهم اليومية .

والمطلب الثاني في هذا الحديث : أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) يرى أن القرآن والعترة لا ينفصلان حتى يوم القيامة، فكما أن القرآن الكريم قد تضمن الله ببقائه حتى يوم القيامة ، كذلك لا تخلو الأرض من وجود الإمام حتى يوم النشور ، وهم كما يراهم الرسول الأكرم مرجع علمي على كافة المسلمين أن يرجعوا إليهم في أحكام دينهم في مختلف الأزمنة .

يقول الإمام الرضا (عليه السلام) : « وإن العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده ، شرح صدره لذلك ، وأودع قلبه ينابيع الحكمة ، وألهمه العلم إلهاماً ، فلم يَعْيَ بعده بجواب ، ولا يحير فيه عن الصواب ، فهو

---

(١) ينابيع المودة : ٣٦ ط استانبول .

معصوم مؤيد ، موفق مسدد ، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار ، يخصّه الله بذلك ليكون حجته على عباده ، وشاهده على خلقه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »[1] .

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٠٢ ط آخوندي .

جامعيّة علم الإمام بالمعارف الإسلامية

إن الإمام هو ذلك الوجود منبع الخير والبركة ، والمطلع على حاجات الأمة في جميع الأصعدة ، وله علم بجميع أسباب الشرف والسعادة للإنسان في الدارين ، وبكل ما له دور في سعادة البشر المادية والمعنوية ، ويفهم كل ما يلزم فهمه لإدارة أمور الناس وهدايتهم ، وله خبر عن جميع الجزئيات والتفاصيل لجميع هذه الأمور بكل ما لها من سعة واستيعاب وشمول ، مما له دخل في إنقاذ الإنسان من محيط الحياة سعيداً شريفاً ، وإيصاله كذلك إلى أوج الرفعة والكرامة . إن علم الإمام بالمعارف الإسلامية وعلى أعلى المستويات في الرؤية الدينية والمعرفة القرآنية ، إنما هو جانب من جامعية شخصيته التي هي في الواقع امتداد لشخصية الرسول الكريم (صلى الله عليه واله وسلم) ، فهو في العلم والمعرفة وسائر المزايا صورة مصغرة عن الرسول الكريم . وهذه خصيصة من الألطاف الإلهية التي يهبها لأكمل عباده فقط .

إن القائد الديني البالغ باطن الحقيقة ، والذي هو على الصراط المستقيم ، والذي علمه بمعارف الدين عن قطع ويقين لا عن رأي واجتهاد ، لا يمكن أن نتصور فيه الجهل أو قلة المعرفة . وكيف نجرؤ على نسبة قلة

المعرفة بقوانين الشريعة الإلهية مثلاً إلى من هو مصب الفيوضات الإلهية ؟ ولذلك فهو هادي البشر جميعاً .

وإن ذلك الإنسان المعصوم الذي أوكل الله إليه صيانة دينه ، وهو خازن أحكام الله للناس ، سوف يمهد الأرضية لتربية وتكامل البشر ، وسيجعل الصراط المستقيم الذي هو مسيرهم نحو الكمال بمتناول أيديهم وأرجلهم ، ومن تكاليفه صياغة المناهج الكفيلة بحفظ ما هو لصالح الأمة عقائدياً واجتماعياً ، فإن لطف الله اللانهائي يقتضي أن لا يترك الإنسان سدى ، ولهذا فإن زعيم الدين والدنيا يجب أن يكون المرجع الروحي والفكري للناس ، العالِم بجميع البرامج اللازمة لذلك ، وأن يكون طريق الوصول إلى الأحكام الإلهية مفتوحاً له دائماً ، كي يتمكن عن طريق تعاليمه وإرشاداته أن يهدي المجتمع نحو أهداف الدين في تنمية قابليّاتهم. وهكذا يكون مفتاح حل المشاكل بيد البشر ، وتتم عليه الحجة ، ولئلا يقول أحد : لولا أرسلت إلينا رسولاً وأقمت لنا علماً هادياً فنتّبع آياتك من قبل أن نَذِلّ ونخزى. وقد اتضحت هذه المفاهيم بكثير من أبعادها ضمن مئات بل الاف النصوص الواصلة إلينا من الأئمة الطاهرين ، إن مستواهم العلمي في إجاباتهم الثابتة والقطعية على الأسئلة الدينية والشبهات والأفكار الإلحادية ، وبيانهم للحقائق في مناظراتهم ، وأبحاثهم العلمية ومقالاتهم الموضوعية ، كلها تبين سعة مستوى الرؤية الدينية والفكرة الإسلامية لديهم .

أجل ؛ إن من كانت ذاته منوّرة بالنور الإلهي ، مجهزاً بعلم أوسع ، وعمق نظر أبصر وأسرع ، وعقل أوعى وأجمع ، والتفات وتوجه أعمق ، وفوق كل ذلك موسوماً بالعصمة ؛ لهو أحق أن يتّبع من كل من عداه وما سواه .

فإن الإنسان الجاهل والمحدود في رؤيته الدينية في معرض مخالفة القرآن الكريم ، ولا ضمان لانطباق أقواله وأعماله على قوانين كتاب الله وشريعته ، ولهذا فإن تبعية الناس له سوف تؤدي إلى مخالفة القرآن الكريم

في كثير من أحكامه ومعارفه ، وذلك لـظنية معـرفة الإنسـان العاديّ بـه في كثير من الموارد والمسائل والمواضيع ، ولا شك في أن كثيراً ممن يختارون أرجح الاحتمالات وأقربها إلى القرآن الكريم سوف تقع الفجوة عندهم عن مسير القرآن في كثير من الأحيان ، فضلاً عن غيرهم .

في خبر عن الإمام الصادق (عليه السلام) يقول : « إن الله عزّ وجل أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا عن دينه ، وأبلج بهم عن سبيل منهاجه ، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه . فمن عرف من أمة محمد واجب حق إمامه وجد طعم حلاوة إيمانه ، وعلم فضل طلاوة إسلامه ، لأن الله تبارك وتعالى نصب الإمام علماً لخلقه ، وجعله حجة على أهل مواده وعالمه ، وألبسه الله تاج الوقار ، وغشاه من نور الجبار ، يمد بسبب إلى السماء ، لا ينقطع عنه مواده ، ولا يُنال ما عند الله إلا بجهة أسبابه ، ولا يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفته ، فهو عالم بما يرد عليه من ملتبسات الدجى ومعميات السنن ومشتبهات الفتن ، فلم يزل الله تبارك وتعالى يختارهم لخلقه من ولد الحسين (عليه السلام) من عقب كل إمام ، يصطفيهم لذلك ويجتبيهم ، ويرضى بهم لخلقه ويرتضيهم . كلّما مضى منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماماً علماً بيناً وهادياً نيراً وإماماً قيماً وحجة عالماً ، أئمة من الله ، يهدون بالحق وبه يعدلون ، حجج الله ودعاته ورعاته على خلقه ، يدين بهديهم العباد ، وتستهلّ بنورهم البلاد ، وينمو ببركتهم التلاد . جعلهم الله حياة للأنام ومصابيح للظلام ومفاتيح للكلام ودعائم للإسلام . جرت بذلك فيهم مقادير الله على محتومها »[1] .

وقد جاء في النصوص الإسلامية عنهم : أن الله علّم نبينا وأوصياءه كل ما كان قد علّمه الأنبياء والمرسلين السابقين الأولين جميعاً :

فقد روى الشيخ الصدوق في كتابه «التوحيد» بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال :

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٠٣ ط آخوندي

« إن لله علماً خاصاً وعلماً عاماً ، فأما العلم الخاص فالعلم الذي لم يطلع عليه ملائكته المقربين وأنبياءه المرسلين ، وأما علمه العام فإنه علمه الذي أطلع عليه ملائكته المقربين وأنبياءه المرسلين ، وقد وقع إلينا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) »[1] .

وروى في « معاني الأخبار » بسنده عن علي بن يقطين عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) قال :

« والله أوتينا ما أوتي سليمان وما لم يؤت سليمان ، وما لم يؤت أحد من العالمين ، قال الله عزّ وجل في قصة سليمان : ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾[2] . وقال في قصة محمد (صلى الله عليه وآله) : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ »[3] .

وروى القمي في تفسيره بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال : « إن الذي عنده علم الكتاب هو أمير المؤمنين (عليه السلام) » . وسئل عن الذي عنده علم من الكتاب أعلم ؟ أم الذي عنده علم الكتاب ؟ فقال : « ما كان علم الذي عنده علم من الكتاب عند الذي عنده علم الكتاب إلاّ بقدر ما تأخذ البعوضة بجناحها من ماء البحر » .

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « إن العلم الذي هبط به آدم من السماء إلى الأرض وجميع ما فضلت به النبيون إلى خاتم النبيين في عترة خاتم النبيين »[4] .

وروى الكليني في «الكافي» بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : « إن لله تبارك وتعالى علمين : علماً أظهر عليه ملائكته وأنبياءه ورسله ،

---

(١) البحار ٢٦ : ١٦٠ عن التوحيد : ١٢٨ . وكذلك رواه الصفار في بصائر الدرجات : ٣١ .
(٢) سورة ص : الآية ٣٩ .
(٣) البحار ٢٦ : ١٥٩ عن معاني الأخبار : ٣٥٣ والآية في الحشر : الآية ٧ .
(٤) البحار ٢٦ : ١٦٠ عن تفسير القمي : ٣٤٣ ط حجر .

فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه ، وعلماً استأثر به ، فإذا بدا لله في شيء منه أعلمنا ذلك ، وعرض على الأئمة الذين كانوا قبلنا »(1) .

وروى فيه بسنده عنه(عليه السلام) أيضاً قال : « إن لله علمين علماً عنده لم يطلع عليه أحداً من خلقه ، وعلماً نبذه إلى ملائكته ورسله ، فما نبذه إلى ملائكته ورسله فقد انتهى إلينا »(2) .

وروى فيه بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام)قال : « إن العلم الذي نزل مع آدم (عليه السلام) لم يُرفع ، والعلم يُتوارث . وكان علي (عليه السلام) عالم هذه الأمة ، وإنه لم يهلك منا عالم قط إلا خلفه من أهله من علم مثل علمه أو ما شاء الله »(3) .

وروى السيد هاشم البحراني في كتابه «غاية المرام في حجة الخصام » بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) أيضاً أنه كان يقول : نحن خزنة علم الله ، لا أقول خزنة الذهب والفضة ولكن خزنة علم الله (4) .

وروى الشريف الرضي في « نهج البلاغة » عن علي (عليه السلام) أنه قال لكميل بن زياد :

« اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهراً مشهوراً وإما خائفاً مغموراً ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم ذا وأين أولئك ؟ ! أولئك والله الأقلون عدداً ، والأعظمون عند الله قدراً ، يحفظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم . هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، وباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى . أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة إلى

(1، 2) أصول الكافي 1 : 255 ط آخوندي .

(3) أصول الكافي 1 : 222 ط آخوندي .

(4) غاية المرام : 914

دينه . آه آه شوقاً إلى رؤيتهم ! انصرف يا كميل إذا شئت »[1] .

وفي كثير من الموارد التي يشكل حلّ بعض المعضلات من المسائل الدينية على الخلفاء ، كان علي (عليه السلام) هو ا لمرجع لحل هذه المعضلات ، فكانوا يضطرون للرجوع إليه (عليه السلام) ، وليس بالعكس ، فلا نجد في تاريخ الإسلام حتى مورداً واحداً راجع فيه الإمام (عليه السلام) لمعرفة نظرية الإسلام إلى أي شخص آخر غيره .

بينما ينبغي أن يكون رأي من يتعهد بمسؤولية إدارة الحكومة الإسلامية ، هو المقياس والملاك لمعرفة قوانين الإسلام للمسلمين ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتّبع أم من لا يَهِدّي إلا أن يُهدى** ﴾؟![2] .

إن هذه الآية الكريمة خاطبت الضمير الإنساني وردت إليهم الحكم في هذه المسألة ، وبدهي أن وجدان الإنسان إنما يحكم بأن من هو جدير بأن يتّبع إنما هو من قد عرف الحق فيهدي المجتمع إليه ، ولا يستحق الطاعة من هو في هدايته يحتاج إلى غيره ليأخذ بيده في تشخيص الصراط الحق ، إذن فلا تحق الطاعة والتبعية إلا لمن هو غني في نفسه عن الاهتداء بغيره في معرفة الحق في مسائل الإسلام وأحكامه .

روى الكليني في «الكافي» بسنده عن هشام بن الحكم : أنه لما جاء مع بريهة إلى أبي عبد الله جعفر الصادق (عليه السلام) لقي في الطريق أبا الحسن موسى بن جعفر الكاظم ، فحكى له هشام حكاية صاحبه بريهة ، فلما فرغ قال أبو الحسن موسى بن جعفر الكاظم لبريهة : يا بريهة كيف

---

(١) الكلمة ١٤٧ من الكلمات القصار في ج ٣ من نهج البلاغة ط صبحي الصالح ص ١١٢ من المعجم المفهرس .

ورواه الخورازمي في مناقبه : ٢٦٤ وقد ذكروا في المعجم المفهرس له ١٣ مصدراً : ١٤٠٧ .

(٢) سورة يونس : الآية ٣٥ .

علمك بكتابك ؟ قال : أنا عالم به ؟ فقال : فكيف ثقتك بتأويله ؟ قال : ما أوثقني بعلمي فيه ؟ ! فابتدأ الإمام الكاظم (عليه السلام) يقرأ الإنجيل ، فقال بريهة : إياك كنت أطلب منذ خمسين سنة أو مثلك ، ثم آمن بريهة وآمنت المرأة التي كانت معه .

ودخل هشام وبريهة على أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فحكى له هشام الكلام الذي جرى بين أبي الحسن موسى وبين بريهة ، فقال أبو عبد الله (عليه السلام) : « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » فقال بريهة : أنّى لكم التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء ؟ ! قال : هي عندنا وراثة من عندهم ، نقرأها كما قرأوها ونقولها كما قالوا ، إن الله لا يجعل حجة في أرضه يسأل عن شيء فيقول لا أدري »[1] .

وروى الشيخ الصدوق بسنده عن الحسن بن محمد الهاشمي النوفلي العراقي قال : لما قدم علي بن موسى الرضا (عليه السلام) على المأمون ، أمر الفضل بن سهل : أن يجمع له أصحاب المقالات مثل الجاثليق (الكاثوليك = رئيس النصارى) ورأس الجالوت (الكهنوت = رئيس اليهود) ورؤساء الصابئين ، والهربَذ الأكبر أكبر أصحاب زرادشت ، ونسطاس الرومي ؛ والمتكلمين . ليسمع كلامه وكلامهم . فجمعهم الفضل بن سهل ثم أعلم المأمون باجتماعهم ، فقال : أدخلهم عليّ ، ففعل .

فرحّب بهم المأمون ثم قال لهم : إني إنما جمعتكم لخير ، وأحببت أن تناظروا ابن عمي هذا المدني القادم عليّ ، فإذا كان بُكرة فاغدوا عليّ ولا يتخلّف منكم أحد . فقالوا : السمع والطاعة .

قال الحسن بن محمد النوفلي : فبينا نحن في حديث لنا عند أبي الحسن الرضا (عليه السلام) ، إذ دخل علينا ياسر الخادم ، وقال له : يا سيدي ، إنّ أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول : فداك أخوك ، إنه اجتمع

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٢٧ ط آخوندي .

إليّ أصحاب المقالات وأهل الأديان والمتكلمون من جميع الملل ، فرأيك في البكور إلينا إن أحببت كلامهم . فقال أبو الحسن : أبلغه السلام وقل له : قد علمت ما أردت ، وأنا صائر إليك بكرة إن شاء الله .

قال الحسن بن محمد النوفلي : فلما مضى ياسر الخادم التفت إلينا . . وتبسّم وقال لي :

يا نوفلي ! أتخاف أن يقطعوا عليّ حجّتي ؟! .

فقلت : لا والله ، ما خفت عليك قط ، وإنّي لأرجو أن يظفرك الله بهم إن شاء الله تعالى .

فقال لي : يا نوفلي أتحب أن تعلم متى يندم المأمون ؟ قلت : نعم ، قال : إذا سمع احتجاجي على أهل التوراة بتوراتهم ، وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وعلى أهل الزبور بزبورهم ، وعلى الصابئين بعبرانيّتهم ، وعلى الهرابذة بفارسيتهم ، وعلى أهل الروم بروميّتهم ، وعلى أصحاب المقالات بلغاتهم ، فإذا قطعت كل صنفٍ ودحضت حجته وترك مقالته ورجع إلى قولي علم المأمون أن الموضع الذي هو بسبيله ليس بمستحِقّ له ، فعند ذلك تكون الندامة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فلما أصبحنا أتانا الفضل بن سهل وقال له : جعلت فداك ، إنّ ابن عمك ينتظرك ، وقد اجتمع القوم فما رأيك في إتيانه ؟ فقال له الرضا (عليه السلام) : تقدّمني فإنّي صائر إلى ناحيتكم إن شاء الله .

ثم خرج وخرجنا معه ، حتى دخل على المأمون ، وإذا المجلس غاصّ بأهله ، وجماعة من الطالبيين والهاشميين والقواد حضور. فلما دخل الرضا (عليه السلام) قام المأمون وقام جميع بني هاشم ، فما زالوا وقوفاً والرضا (عليه السلام) جالس مع المأمون حتى أمرهم بالجلوس فجلسوا .

ثم التفت المأمون إلى الجاثليق وقال : يا جاثليق هذا ابن عمي

عليّ بن موسى بن جعفر ، وهو من ولد فاطمة بنت نبيّنا وابن علي بن أبي طالب . فأحب أن تكلمه أو تحاجه وتنصفه .

فقال الجاثليق : يا أمير المؤمنين كيف أحاجّ رجلاً يحتجّ علي بكتاب أنا منكره ونبيّ لا أؤمن به ؟!

فقال الرضا (عليه السلام) : يا نصراني ؛ فإن احتججت عليك بإنجيلك أتقرّ به ؟ .

قال الجاثليق : وهل أقدر على دفع ما نطق به الإنجيل ؟! نعم والله أقرّ به على رغم أنفي !

فقال له الرضا (عليه السلام) : سل عما بدا لك واسمع الجواب . .

ثم أخذ الإمام (عليه السلام) يستدل بكتب الأنبياء السالفين لإثبات نبوّة نبيّ الإسلام ، فكانت براهين الإمام (عليه السلام) من الوضوح والعمق والاستقامة بحيث لم تدع لأحدٍ أي شبهة أو إشكال ، وحتى قال الجاثليق : ليسألك غيري ، فلا وحق المسيح ما ظننت أنّ في علماء المسلمين مثلك !

فالتفت الرضا (عليه السلام) إلى رأس الجالوت فقال له : تسألني أو أسألك ؟

فقال : بل أسألك ، ولست أقبل منك حجة إلاّ من التوراة أو من الإنجيل أو من زبور داود أو بما في صحف إبراهيم وموسى .

فقال الرضا (عليه السلام) : لا تقبل مني حجة إلا بما تنطق به التوراة على لسان موسى بن عمران ، والإنجيل على لسان عيسى بن مريم ، والزبور على لسان داود . .

ثم استدل عليه الرضا (عليه السلام) من هذه الكتب لإثبات نبوّة نبيّنا حتى لم يحر رأس الجالوت جواباً . .

فدعا (عليه السلام) : بالهربذ الأكبر . . واستدل عليه حتى انقطع الهربذ مكانه . .

فقال الرضا (عليه السلام) : يا قوم إن كان فيكم أحد يخالف الإسلام وأراد أن يسأل فليسأل غير محتشِم .

فقام إليه عمران الصابىء ـ وكان من المتكلمين أوحدّياً فيهم ـ فقال : يا عالم الناس لولا أنك دعوت إلى مسألتك لم أقدم عليك بالمسائل ، فلقد دخلت الكوفة والبصرة والشام والجزيرة ولقيت المتكلمين فلم أقع على أحد يثبت لي واحداً ليس غيره قائماً بوحدانيّته ! أفتأذن لي أن أسألك ؟

قال الرضا (عليه السلام) : إن كان في الجماعة عمران الصابىء فأنت هو ؟ قال : أنا هو . قال : سل يا عمران ، وعليك بالنصفة وإياك والخطل والجور .

فقال : والله يا سيّدي ما أريد إلّا أن تثبت لي شيئاً أتعلق به فلا أجوزه .

قال : سل عما بدا لك . فازدحم الناس وانضم بعضهم إلى بعض . وأخذ عمران يسأل . . والإمام يجيب ، حتى قال الرضا في آخر جواب له : أفهمت يا عمران ؟ قال : نعم يا سيدي قد فهمت ، وأنا أشهد أن الله تعالى على ما وصفت ووجدت ، وأشهد أن محمداً عبده المبعوث بالهدى ودين الحق ، ثم خرّ ساجداً نحو القبلة وأسلم .

قال الحسن بن محمد النوفلي : فلما نظر المتكلمون إلى كلام عمران الصابىء ، وكان جدلاً لم يقطعه عن حجة أحد منهم قط ، لم يدن من الرضا (عليه السلام) أحد منهم ولم يسألوه عن شيء . وأمسينا فنهض المأمون والرضا (عليه السلام) فدخلا ، وانصرف الناس[1] .

---

(١) عيون أخبار الرضا ١ : ١٥٤ ـ ١٧٧ . وكتاب التوحيد للصدوق أيضاً : ٤٢٧ ـ ٤٢٩ . ورواه الحر العاملي في إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات ٦ : ٤٥ ـ ٤٩ .

ما هي منابع علوم الإمام؟

إنّ أعمق وأدق ما للإمام من علم إنما هو يحصل من طريق الإلهام من عالم الغيب . والقرآن الكريم بحدّ ذاته منبع ثريّ لإفادة الأئمة الأطهار ، فإنّهم بما كان لهم من العقلية الواسعة والكاملة من الناحية العلمية ، وبما كان لهم من سعة أفق الفكر والرؤية الدينية كان بإمكانهم أن يستنبطوا الأحكام وجوابات المسائل ، ويستخرجوا مختلف الحقائق العلمية من باطن هذا الكتاب الإلهي والمنبع الإسلامي الأصيل . ولهم ـ في الرتبة الثالثة ـ لمزيد قدرتهم العلمية وتوسعة رقعة معرفتهم بالدين إفادتهم من الكتب أي الصحائف التي كانوا يتوارثونها عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) .

وقد وردت في هذه الموارد الثلاثة روايات كثيرة نعرض لذكر بعضها فيما يلي :

روى الشيخ الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال لأبي بصير :

«يا أبا محمد إنّ الله عزّ وجل لم يُعط الأنبياء شيئاً إلاّ وقد أعطاه محمداً (صلى الله عليه وآله) قال : وقد أعطى محمداً جميع ما أعطى الأنبياء ، وعندنا الصحُف التي قال الله عزّ وجل « صحف إبراهيم وموسى » قلت :

جعلت فداك هي الألواح ؟ قال : نعم »[1] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال : « وإنّ العبد إذا اختاره الله عزّ وجل لأمور عباده ، شرح صدره لذلك ، وأودع قلبه ينابيع الحكمة ، وألهمه إلهاماً ، فلم يَعْيَ بعده بجواب ، ولا يحير فيه عن الصّواب ، فهو معصوم مؤيَّد ، موفَّقٌ مسدَّد ، قد أمِن من الخطايا والزَّلل والعثار ، يَخُصّه الله بذلك ليكون حجتّه على عباده ، وشاهده على خلقه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[2] .

وكتب الحسن بن العباس المعروفي إلى الرضا (عليه السلام) : جعلت فداك أخبرني ما الفرق بين الرسول والنبيّ والإمام ؟ فكتب : « الفرق بين الرسول والنبيّ والإمام : أن الرسول : الذي ينزل عليه جبرئيل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحي ، وربّما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم ، والنبيّ : ربّما سمع الكلام وربّما رأى الشخص ولم يسمع ، والإمام : هو الذي يسمع الكلام ، ولا يرى الشخص »[3] .

وروى فيه بسنده عن الإمام الكاظم (عليه السلام) قال : « مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه : ماضٍ وغابر وحادث ، فأمّا الماضي فمفسّر ، وأما الغابر فمزبور ، وأما الحادث فقذف في القلوب ونقر في الأسماع ، وهو أفضل علمنا . ولا نبيّ بعد نبيّنا »[4] .

إذن فالإفاضات الروحية التي كانت للرسول (صلى الله عليه وآله) سوف تستمّر في الأوصياء المعصومين ، ولا تنقطع العلاقة بين الخالق والمخلوقين بموت الأنبياء والمرسلين .

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٢٥ ط آخوندي .
(٢) أصول الكافي ١ : ٢٠٢ ط آخوندي .
(٣) أصول الكافي ١ : ١٧٦ ط آخوندي .
(٤) أصول الكافي ١ : ٢٦٤ ط آخوندي .

وبشأن إفادة الأئمة الأطهار من القرآن الكريم لنستمع من لسانهم :

روى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال : « إنّ من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه ، وعلم تغيير الزّمان وحدثانه . إذا أراد الله بقوم خيراً أسمعهم ، ولو أسمع من لم يسمع لولّى مُعرضاً كأن لم يسمع ، ثم أمسك هنيئة ، ثم قال : ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا . والله المستعان »(١) .

وروى فيه بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال يخبر عن القرآن :

« إنّ فيه علم ما مضى وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة ، وحكم ما بينكم ، وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون ، فلو سألتموني عنه لعلّمتكم »(٢) .

وروى فيه بسنده عن الصادق (عليه السلام) أيضاً قال : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وفصل ما بينكم ونحن نعلمه »(٣) .

وروى فيه بسنده عن سماعة بن مهران قال : قلت لأبي الحسن موسى (عليه السلام) : أكلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه (صلى الله عليه وآله) ؟ أو تقولون فيه ؟ قال : بل كل شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه (صلى الله عليه وآله) »(٤) .

إنّ علم تأويل القرآن من العلوم الغيبيّة ، أي هو علم لا يمكن تعلّمه من الطرق الطبيّعية ، وعلى هذا فتأويل القرآن ـ أي كشف الستار عن الصورة الحقيقية الواقعية لمراد الله تعالى ـ يُعدّ نوعاً من علوم الغيب ، ولذلك فلا يمكن التوصّل إليه إلاّ بإفاضة الله تعالى .

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٢٩ ط آخوندي .
(٢) أصول الكافي ١ : ٦١ ط آخوندي
(٣) أصول الكافي ١ : ٦٢ ط آخوندي .
(٤) أصول الكافي ١ : ٦٢ ط آخوندي .

وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلاّ الله والرّاسخون في العلم** ﴾[1] .

وعلى هذا ، فالرّاسخون في العلم هم من لهم علم بتأويل الآيات المتشابهة كما أراد الله تعالى ، وقد وردت روايات كثيرة عنهم (عليهم السلام) تثبت علم الإمام بتأويل القرآن الكريم .

ففي تفسير العيّاشي عن الفضيل بن يسار قال : سألت أبا جعفر الإمام الباقر (عليه السلام) عن هذه الرواية : ما في القرآن آية إلاّ ولها ظهر وبطن ، وما فيه حرف إلاّ وله حدّ ، ولكلّ حدّ مطلع ، ما يعني بقوله : ظهر وبطن ؟ قال : ظهره تنزيله ، وبطنه تأويله ، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد ، يجري كما يجري الشمس والقمر ، كلما جاء منه شيء وقع ، قال الله : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والرّاسخون في العلم** ﴾ نحن نعلمه »[2] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمام الباقر أو الصادق (عليهما السلام) قال :

« إنّ رسول الله أفضل الراسخين في العلم ، قد علّمه الله عزّ وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل ، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله ، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه ، والذين لا يعلمون تأويله إذا قال العالم فيهم بعلم ، فأجابهم الله بقوله : ﴿ **يقولون : آمنا به كلّ من عند ربّنا** ﴾ والقرآن خاصّ وعام ، ومحكم ومتشابه ، وناسخ ومنسوخ ، فالرّاسخون في العلم يعلمونه »[3] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٧ .

(٢) تفسير الميزان ٣ : ٧٢ .

(٣) أصول الكافي ١ : ٢١٣ ط آخوندي .

والمصدر الآخر لاستفادة قادة الدين خلفاء الرسول الأمين في كتب ، أي صحائف توارثها منه الأئمة (عليهم السلام) .

روى الكليني في (أصـول الكـافي) بسنـده عن الإمـام الصـادق (عليه السلام) قال : « إنّ عندنا ما لا نحتاج معه إلى النـاس ، وإنّ الناس ليحتـاجـون إلينـا ، وإنّ عنـدنـا كتـابـاً إمـلاء رسـول الله وخطّ علي (عليهما السلام) ، صحيفة فيها كـلّ حلال وحـرام . وإنكم لتأتـونا بـالأمر فنعرف إذا أخذتم به ونعرف إذا تركتموه »[1] .

وروى الصفـار في (بصائـر الدرجـات) بسنده عن محمـد بن مسلم قال : سألته عن ميراث العلم ، ما بلغ ؟ أجوامع هو من العلم ؟ أم فيه تفسير كـل شيء من هذه الأمـور التي يتكلم فيها النـاس من الطلاق والفـرائض ؟ فقال : إن علياً (عليه السلام) كتب العلم كله القضاء والفرائض ، فلو ظهر أمرنا فلم يكن شيء إلاّ وفيه سنّة نمضيها »[2] .

وروى فيه بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال : قال رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه) لأمير المؤمنين (عليـه الســلام) : اكتب مـا أملي عليك . قال علي (عليه السلام) يا نبيّ الله وتخاف عليّ النسيان؟قال: لست أخاف عليك النسيان وقد دعـوت الله أن يُحفّظَك ولا ينسيـك ، ولكن اكتب لشركائك . قال : قلت : ومن شركائي يا نبيّ الله ؟ قال : الأئمة من ولدك ، بهم تُسقى أمتي الغيث ، وبهم يستجـاب دعـاؤهم ، وبهم يُصـرف البـلاء عنهم ، وبهم تنـزل الـرحمـة من السمـاء ، وهـذا أولهم . وأومـأ بيـده إلى الحسن . ثم أومأ بيده إلى الحسين ثم قال : الأئمة من ولدك »[3] .

وروى فيه بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : « إنّ الكتب

---

(1) أصُول الكافي ١ : ٢٤١ و ٢٤٢ ط آخوندي .

(2) جامع أحاديث الشيعة ١ : ١٣٨ .

(3) جامع أحاديث الشيعة ١ : ١٤١ .

كانت عند علي (عليه السلام) ، فلما سار إلى العراق استودع الكتب أمّ سلمة ، فلما مضى (عليه السلام) كانت عند الحسن (عليه السلام) ، فلما مضى الحسن كانت عند الحسين (عليه السلام) ، فلما مضى الحسين كانت عند علي بن الحسين (عليه السلام) ، ثم كانت عند أبي »[1] .

وروى فيه بأسناد ثلاثة عن جابر قال : قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام) « يا جابر لو كنّا نفتي الناس برأينا وهوانا ، لكنّا من الهالكين ، ولكنّا نفتيهم بآثار من رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وأصول علم عندنا نتوارثها كابر عن كابر، نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضّتهم »[2] .

ونقل القندوزي الحنفي في (ينابيع المودة) عن (المناقب) لابن المغازلي عن يحيى بن أم الطويل ، قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : « ما بين لوحي المصحف من آية إلاّ وقد علمت فيمن نزلت وأين نزلت ، وإنّ بين جوانحي لعلماً جمّاً ، فسلوني قبل أن تفقدوني ، وقال : إذا كنت غائباً عن نزول الآية كان يحفظ علي رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما كان ينزل عليه من القرآن ، وإذا قدمت عليه أقرأنيه ويقول : يا علي ، أنزل الله عليّ بعدك كذا وكذا ، وتأويله كذا وكذا . ويعلّمني تأويله وتنزيله »[3] .

وعنه (عليه السلام) فيما قاله لكميل بن زياد : « ها إنّ ها هنا لعلماً جمّاً (وأشار بيده إلى صدره) لو أصبت له حَمَلَةً ! بلى أصبت لَقِناً غير مأمون عليه ، مستعملاً آلة الدين للدّنيا ، ومستظهراً بنعم الله على عباده وبحججه على أوليائه . أو منقاداً لحَمَلَةِ الحقّ لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة . ألا لاذا ولا ذاك ! ومنهوماً باللذّة ، سلس القياد للشهوة . أو مُغرماً بالجمع والادّخار ، ليسا من رُعاة الدين في شيء ،

---

(١) جامع أحاديث الشيعة ١ : ١٤١ .

(٢) جامع أحاديث الشيعة ١ : ١٣٠ .

(٣) ينابيع المودة ١ : ٧٢ .ط استنابول .

أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة ! كذلك يموت العلم بموت حامليه »[1] .

وقد رووا عنه (عليه السلام) أنه كان يقول : « علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كلّ باب ألف باب » .

ولا ريب في أن هذا التعليم لا يمكن أن يكون من نوع التعليم العادي والمعمول بين أرباب العلوم والعقول ، أن يفتح الرسول في فرصة محدودة بكلماته ونصوصه المتوالية ألف باب من العلم لعلي (عليه السلام) ، وهكذا يجعل قلبه عيناً فيّاضاً بالعلوم والمعارف الإلهية ؛ بل إنّ هذا التعليم وتنمية درجة المعارف لديه وتجهيزه له ، إنما تحقق بكيفية نابعة من الهداية الباطنية الخاصة برسالة الرسول الكريم ، أجل ، هكذا ملأ قلب علي (عليه السلام) بحقائق المعارف ، تلك الحقائق التي كانت تتناسب وسعة أفق العقل والفكر والنظرة المتسامية لديه .

وقد روى سليم بن قيس الهلالي العامري عنه (عليه السلام) أنه كان يقول : « وليس كل أصحاب رسول الله كان يسأله عن الشيء فيفهم ، وكان منهم من يسأله ولا يستفهم ، حتى أن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطاري فيسأل رسول الله حتى يسمعوا . وقد كنت أدخل على رسول الله كل يوم دخلة ، وكل ليلة دخلة ، فيخليني فيها أدور معه حيث دار ـ وقد علم أصحاب رسول الله أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري ـ فربّما كان في بيتي يأتيني رسول الله ، أكثر ذلك في بيتي . وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عنّي نساءه ، فلا يبقى عنده غيري ، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عنّي فاطمة ولا أحد من بَنيّ . وكنت إذا سألته أجابني وإذا سكتّ عنه وفنيت مسائلي ابتدأني . فما نزلت على رسول الله آية من

---

(١) الحكمة : ١٤٧ من الكلمات القصار في القسم الثالث من نهج البلاغة ط الصالح ص ١١٢ من المعجم المفهرس وذكروا لها في ص ١٤٠٧ أربعة عشر مصدراً . وقريب منها في غاية المرام : ٥١٨ .

القرآن إلاّ اقرأنيها، وأملاها عليّ فكتبتها بخطّي، وعلمنّي تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها وخاصّها وعامّها ، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها ، فما نسيت آية من كتاب الله ، ولا علماً أملاء عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا ، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال وحرام ، ولا أمر ولا نهي ، كان أو يكون ، ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علّمنيه وحفظتُه ، فلم أنس حرفاً واحداً . ثم وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً ، فقلت : يا نبيّ الله بأبي أنت وأمّي منذ دعوتَ الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ، ولم يفُتني شيء لم أكتبه ، أفتتخوّف عليّ النسيان فيما بعد ؟ فقال : لا ، لست أتخوّف عليك النسيان والجهل »[1] .

أجل ؛ إنّ وجود هذه الخصائص لعلي (عليه السلام) كان السبب في أن يقول الرسول الأكرم بشأنه : « أنا مدينة العلم وعليّ بابُها ، فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها »[2] .

ونقل القندوزي الحنفي في (ينابيع المودة) عن (المناقب) لابن المغازلي بسنده عن الإمام المرضا (عليه السلام) عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : يا علي أنا مدينة العلم وأنت بابها ، كذب من زعم أنه يصل إلى المدينة إلاّ من قبل الباب »[3] .

إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلمه بحاجة المجتمع إلى المرجع العلميّ سعى ليودع علومه إلى من يتمكن من الإجابة الكاملة على مراجعاتهم الدينية ، وأن يجعل الأحكام الإلهية بمتناول أيدي الناس من دون

---

(١) أصول الكافي ١ : ٦٤ . وفي كتاب سليم بن قيس من ص ١٠٣ إلى ص ١٠٨ اقتطعه الكليني في الكافي إلى ص ١٠٦ ولم يكمله .

(٢) المناقب للخوارزمي : ٤٠ وكتبه من المصادر الأخرى .

(٣) ينابيع المودة : ٧٢ و ٧٣ ط استانبول .

أي تبـدّل أو تغييـر . ولهـذا أيضـاً أمـره لله ليسعى في تـربيـة علي (عليه السلام) ، أي تلك الشخصية اليقظة الواعية التي كانت تشكل النواة الأصيلة لتربية النـاس على دين الله ، والذي كـان ذا استعداد كـافٍ لحفظ وصيانة الأحكام الإلهية ، والذي كان يستجمـع جميع الشـروط المعتبرة في القائد الفذّ . . أجل ، كان النبيّ مأمـوراً بأن يُعـدّ علياً لتقبّـل وتحمّل هـذه المسؤولية الكبرى .

نقـل القندوزي الحنفي في (ينـابيـع المـودة) عن ابن المغـازلي في (المنـاقب) بسنده عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال : قـال رسـول الله (صلى الله عليـه وآله) : « لمـا صرت بين يـدي ربّي كلّمني وناجـاني فما علمت شيئاً إلاّ علّمته علياً ، فهو باب علمي »[1] .

ونقـل فيـه عنـه بسنـده عن أبي الجـارود عن الإمـام محمـد البـاقـر (عليه السلام) عن أبيه عن جده الحسين (عليه السلام) قال : « لما نزلت هذه الآية : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾[2] قالوا : يا رسول الله أهو التوراة أو الإنجيل أو القرآن ؟ قال : لا ، فأقبل إليه أبي (عليه السلام) فقال (صلى الله عليـه وآله) : هـو هذا الإمـام الـذي أحصى الله فيـه علم كـل شيء »[3] .

وقال أمير المؤمنين علي (عليه السلام) : « ولقد كان يجـاورُ في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ـ صلى الله عليه وآلـه ـ وخديجـة وأنا ثـالثهما . أرى نـور الوحي والرسالة ، وأشمُّ ريح النبـوّة . ولقد سمعت رنّـة الشيطان حين نـزل الوحي عليه ـ صلى الله عليه وآله ـ فقلت : يا رسول الله ما هذه الرنّة ؟ فقال : « هذا

---

(١) ينابيع المودة : ٦٩ط استانبول .

(٢) سورة يس : الآية ١٢ .

(٣) ينابيع المودة : ٧٦ ـ ٧٧ ط استانبول .

الشيطان قد آيس من عبادته ، إنك تسمع ما أسمع ، وترى ما أرى ، إلّا أنك لست بنبيّ ولكنّك لوزير »[1] .

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٢ ط الصالح وذكروا لها في المعجم المفهرس ستة مصادر ص ١٣٩١ .

كلام حول الغيب والشهود

عـالم الغيب يقابـل عالم الشهـادة ؛ فكل مـا يخرج عن دائـرة حيطة حـواسّ الإنسان ولا يـدرك ظاهـراً يحسب من الغيب . نحن لا نعلم شيئاً من أحوال وأهوال يـوم البعث والنشور وكيفيـة الثواب والعقـاب ، وكيفية وجـود الملائكة ، وكنه الذات وحقيقة الصفات لحضرة الحق سبحانـه وتعالى ، لا بسبب أن هذه الوجودات هي من الأجسام اللطيفـة وفي غايـة الدّقـة ونهايـة الصغر مثلاً ، بل لأنّها أسمى من أفق إدراكنا ، أي خارجة عن محيط المكان والزمان .

وينقسم الغيب إلى قسمين : الغيب المـطلق والغيب النّسبيّ ، فمن الغيب ما هو غيب مطلقاً ، أي لكل أحد وفي كل زمان، فلا يدخل في حيطة الحواسّ الظاهرية أبداً ، كالعلم بكنه ذات الحق تعالى . وقـد يكون الغيب نسبيّاً فهو غيب بالنسبة لبعض وشهود لآخريـن .

أمّـا الشهود فهـو كلّ مـا يمكن إدراكه عن طـريق الحواسّ الخمس ؛ وبعبـارة أخرى نقـول : إنّ الشهـود هـو أن يكـون الشيء داخـلاً في حيطة الحواسّ الظاهرة للإنسان . فالمادّة وآثارهـا هي من عالم الشهـادة لأنها من الممكن إدراكها عن طريق إحدى حواسّ الإنسـان ، وحتى لو كـانت مما لا يمكن رؤيتهـا بالعين غير المسلّحة لصغر حجمها كـالذرّات والميكـروبات

والفايروسات ، فهي كلّها من عالم الشهود ، وإن كانت حواسّنا لا يمكنها أن تدركها لصغر حجمها ، إلاّ أنّها غير خارجة عن إمكان إدراكاتنا ولو بوسائل خاصّة ، تكبّر حجمها ملايين المرّات . وكذلك لا يُعد من الغيب ما يكتشفه العلماء والمحققون من حقائق موجودة في هذا العالم المليء بالأسرار والرموز ، كقوة الجاذبية ، وأشعة إيكس ، وأشعة لايزر ، وإن كانت لا تُرى في الظاهر ، إلا أنها حيث ندركها بالوسائل الطبيعية ويمكن أن يطلّع عليها الناس بعد اكتشافها فهي ليست من علوم الغيب فعلاً .

وهنا ندرك أن النقص في إدراكنا إنّما هو من ناحية حواسّنا المحدودة ، التي لا تستطيع إلى هذه الدرجة أن تستوضح لنا واقعية الأمور بصورة طبيعية .

بل قد تكون قدرة إحساس بعض الحيوانات أكثر منّا بكثير ، فإن بإمكان بعضها أن ترى ما يخفى علينا ، أو أن تدركه بسائر حواسّها ، بينما نحن لا يمكننا أن نطلّع على وجوده إلاّ عن طريق آثاره وثمراته .

وعلى هذا ، فما كان من عالم الغيب لا نقدر نحن أن نتصوّره إلاّ عن طريق الدلائل العقلية ، أو إخبارنا وإعلامنا من قبل مَن له الإحاطة والسلطة على عالم الغيب وعلم بالأمور المستورة والخفيّة ؛ وذلك لعدم إحاطتنا نحن بعالم الغيب . بخلاف المظاهر والظواهر المادية التي تتجانس وحواسّنا ، أو هي مما نستطيع الاطّلاع عليه بالوسائل العلمية وبشرائط خاصّة وفي أفق محدود . أما بالنسبة إلى الحقائق التي لا خبر لنا عنها فبإخبار من يهدوننا إليها نستطيع أن نصل إلى العلم بها ، وأن نقرّر إيماننا واعتقادنا على أساس إخبار أولئك المخبرين الغيبيّين . ولهذا نقول : إن ما يمكن أن نتصوّره من عالم الغيب إنّما هو ما يمكن تصوّره عن طريق الإخبار عن أيّ مفهوم علميّ عنه .

فنحن بما أنّنا بوجودنا الناقص المحدود محبوسون في إطار عالم المادة ، لذلك يخرج عن حيطة إدراكنا كثير من الحقائق غير المادية وغير المحسوسة ، ونحرم من الوصول إلى كثر من الأسرار والرموز ، بل ليست لنا

القدرة الكافية لإدراك ظواهر هذا العالم المحسوس مع ما له من مجانسة مع وجودنا المادي بلا قيد أو شرط . ولهذا فإن عالم الوجود ينقسم علينا إلى قسمين : ظاهر وباطن : غيب وشهادة. ونفس هذه الأمور المستورة اللامحسوسة لنا والمخفية عن أبصارنا والتي لا يمكننا إدراكها ، هي ظاهرة وحاضرة لدى مالك الكون والوجود ربّ الكائنات والذي هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط أبداً وسرمداً ، ولا شيء يمنع عن إحاطة علمه الواسع ، ولا شيء يحدّ من قدرته المطلقة .

إن كل حادثة اتفق وقوعها في التاريخ السحيق ولم يبق في خواطر البشر منها شيء ، وحتى لم تنعكس على صفحات التاريخ ، هي حاضرة لدى الربّ سبحانه ، والجنة والنار اللتان إنما تتحققان بالنسبة إلينا في المستقبل البعيد والمجهول لنا ولا يتراءى اليوم لنا أيّة صورة عنهما ، هما حاضرتان بالنسبة إلى الله تعالى ؛ فإنّ الخالق المطلق اللامحدود والذي لا يخلو منه مكان لا يخفى عليه شيء كذلك ، فهو مشرف على جميع الحقائق والأمور ، ولا يخرج عن محيط علمه ما مرت عليه مليارات السنين أو تمرّ عليه بعد اليوم .

إن تصوّر الحوادث السالفة إنما يتحدّد بإمكاناتنا في آفاق أفكارنا ووجودنا المحدود ، والذي حاز لنفسه زماناً ومكاناً خاصاً ، ذلك لأننا موجودات مادّية ، والمادة ـ حسب قانون النسبية الفيزياوي ـ تحتاج في تغييراتها المستمرة وتكاملها التدريجي إلى المكان والزمان دائماً .

إنّ علمنا بالنسبة إلينا حاضر لدينا فهو من شهودنا ، وكذلك علم الله تعالى ، إلاّ أنّه حضوريّ له بصورة مطلقة . وذات الله تعالى ليس عين أفعاله ، إلاّ أنّه ليس غيرها بالمباينة ، وبكلمة : الماضي والحاضر والمستقبل حاضر لديه بلا واسطة في علمه به .

قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « كل سرّ عندك علانية ، وكلّ

غيب عندك شهادة »[1] .

أجل ، إنه يعلم بجميع ذرّات الوجود في السموات والأرضين ، وبحركات مليارات الموجودات الصغار والكبار في جميع الوجود ، ويعلم بظاهر كل شيء وباطنه ، ولا ينحصر علمه وإحاطته الكاملة بالماضي والحاضر من الوجود الفعلي والحوادث الحاضرة ، بل إنّ علمه بالمستقبل كعلمه بالحاضر تماماً .

إنّنا لو كنّا حاضرين في كل مكان غير شاغرين لنقطة خاصة لكنّا كذلك مطلّعين على جميع الحقائق واقفين على جزئيات الأمور ، ولم يكن ليخفى علينا شيء صغير أو كبير ، وما من شيء إلّا وكان تحت إشرافنا وبمرآنا ومسمعنا .

ولا شباهة بين علمه وعلم الإنسان ، وليس بالإمكان قياس أحدهما إلى الآخر ، ولا نستطيع أن نتعرف على علمه عن طريق التحقيق في علوم مخلوقاته ، إذ علم الإنسان يتوقف على وجود المعلوم في الخارج . فلا بدّ أن يكون المعلوم موجوداً ليتعلق علم الإنسان به (أو مركّباً من بعض الوجودات الخارجية والتصورات الانتزاعية عنها) في حين أن علم الله ليس هكذا أبداً ؛ إذ لا غيب بالنسبة إليه ولا يستر عنه شيء شيئاً ، بل العالم كلّه عنده عالم الشهادة .

وفي القرآن الكريم : ﴿ **هو الله الذي لا إله إلّا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم** ﴾[2] .

﴿ **عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾[3] .

---

(1) نهج البلاغة : الخطبة ١٠٩ ط الصالح . ورواه الآمدي في غرر الحكم في صفة النبيّ . والزمخشري في ربيع الأبرار في صفة الملائكة . وابن عبد ربه في العقد الفريد ٤ : ٧٦ .

(2) سورة الحشر : الآية ٢٢ .

(3) سورة الرعد : الآية ٩ .

﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴾[١] .

﴿ ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾[٢] .

﴿ ثم تُرَدُّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبِّئكم بما كنتم تعملون ﴾[٣] .

﴿ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾[٤] .

وروى الشيخ الصدوق في كتابه (التوحيد) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال :

« الحمد لله الذي . . . . وعلمها لا بأداةٍ لا يكون العلم إلاّ بها ، وليس بينه وبين معلومه علمُ غيرِه ﴾[٥] .

وهنا نطرح هذا السؤال : هل أنّ علم الغيب من خصائص الخالق المنحصرة بذاته سبحانه ؟ وهل الغيب والشهود سواء بالنسبة إلى وجوده المطلق من حيث إحاطته بجميع عالم الوجود ؟ أم من الممكن إقامة هذه العلاقة العلمية بين أيّ إنسان وبين عالم الغيب ؟

يُصرّ بعض أرباب النظر على أن العلم بالغيب والاطّلاع على خفايا الحقائق من خصائص الله فقط ؛ يذهب هؤلاء في عقيدتهم إلى عدم إمكان التوصل إلى أمور الغيب حتى للأنبياء والمرسلين وأئمة الدين المبين . وقد تمسكت هذه الفرقة لإثبات نظريتها هذه ـ أي فكرة حصر علم الغيب في

---

(١) سورة الزمر : الآية ٤٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٣٣ .

(٣) سورة الجمعة : الآية ٨ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٧٣ .

(٥) توحيد الصدوق : ٧٣ . ط مكتبة الصدوق .

وجود الله تعالى ـ بسلسلة من آي الذكر الحكيم عدّ فيها الله علم الغيب من خصائصه وأنه مما يحتفظ به في رموزه المكتومة ، والتي نفى فيها الأنبياء السابقون عن أنفسهم علم الغيب بصورة قطعية . فبعض هذه الآيات تقول :

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾[1] .

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلاّ ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء ، إنْ أنا إلاّ بشير ونذير لقوم يؤمنون ﴾[2] .

﴿ ولا أقول لكم : عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إنّي ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ﴾[3] .

﴿ وقل : لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلاّ الله ، وما يشعرون أيّان يُبعثون ﴾[4] .

﴿ قل ما كنت بِدْعاً من الرسل ، ولا أدري ما يُفعل بي ولا بكم ﴾[5] .

﴿ ومن أهل المدينة مَردُوا على النفاق ، لا تعلمهم ﴾[6] .

وعلى هذا ؛ فليس بإمكان أيّ إنسان ـ حتى الأنبياء ـ أن يتوصل إلى علم الغيب إلاّ الله تعالى .

وهذا صحيح ؛ أن لا يطّلع على علم الغيب بصورة مطلقة أيّ إنسان ،

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٨٨ .

(٣) سورة هود : الآية ٣١ .

(٤) سورة النمل : الآية ٦٥ .

(٥) سورة الأحقاف : الآية ٩ .

(٦) سورة التوبة : الآية ١٠١ .

سوى الله ذي الوجود المطلق والمحيــط بجميع الوجود إحاطة تامّة كاملة ، وأنّ هـذه العلوم ـ علوم الغيب ـ هي تحت إرادة الله تعـالى فقط . وتفــوّق الأنبيـاء الآخرين ، وإن كـان محرزاً من سـائـر الجهـات إلا أنهم كســواهم ـ لمحدوديتهم ـ لا إحاطة لهم بذواتهم بعالم الغيب ، ولكن ليس هذا بمعنى أن تؤدّي محدوديتهم هذه إلى انسداد أبواب عالم الغيب عليهم دائماً ، وأنهم ـ حتى مع إرادة الله المالك للغيب والشهادة ـ لا يتوصّلون إليه . فإنّ التوصل إلى الغيب موهبة إلهية ، متى ما شـاء الله فتح أبـواباً منـه على رسله وعباده الطاهرين ، وأوصل ما بينهم وبين ذلك العالم الغـريب ، وإنما هـذه العلوم أشعة من العلم الإلهي ، غير خارجة عن إرادته ومشيئته .

أمّا الآيات المذكورة ؛ فنرى من خلالها أن الناس في عهود الجاهليـة كانوا يتصوّرون الرسُل سلطة تامّـة على العالم ومـا فيه ، وأن للرسـول قدرة يتمكن بها أن يستكثر لنفسه كلّ خير وأن يدفع عن نفسه كل ضر بكل يُسر . لهذا أمر الله رسوله (صلى الله عليه وآله) (أن يصرّح ـ لنفي هذه الأوهام ـ أنه لا يجد في نفسه هذه الإمكانات ، وأن « لا حول ولا قوة إلاّ بالله » ، وأنّ ماله إنما هو ما أفاضه عليه سبحانه ، وأن حظّه من العلم والمعرفة إنّما هو ما تعلّمه بواسطة الوحي وتعليم الله تعالى ، ولو كان غير هذا لتوصّل إلى كنوز الأرض وحصل بذلك على أموال وثروات طائلة ، ولم تكن تصيبه أية مصيبة ﴿ وما مسّني الســوء ﴾ .

فهنا ـ بقطع النظر عن التعليم من قبل الله بالوحي ـ ينفي النبيّ عن نفسه العلم بالأمور المذكورة ، ويسوق الناس إلى تصحيـح الاعتقاد بهـذه الفكرة عندهم وفروعها ، ولكن قد يطّلع هذا النبيّ بنبأ الوحي الإلهيّ على مؤامرات المتآمرين عليه ، وبعلمه هـذا ينجو من الخـطر المحتوم لـولا النجاة عنـه . فالآيات هذه لا دلالة لها على سلب العلم بالغيب عن غير الله بصورة مطلقة ، ولا يمكننـا أن نغضّ النـظر عن تلكم الآيـات التي تصـرّح بتعليم الله بعض الغيب لبعض الأنبياء .

بل حينما يقول في الآية الآنفة الذكر : ﴿ **ما كنت بدعاً من الرسّل** ﴾ قد يكون في مقام الإشارة إلى هذه النقطة المهمة : وهي أن ليس مقتضى النبوة أن تفيض منه العلوم والمعارف بدون الاستناد إلى المعين الذي لا ينضب من العلم الإلهي ، كما أنّ علم سائر الأنبياء أيضاً لم يكن نابعاً من أنفسهم ، ولذلك ينفي عن نفسه العلم بعاقبة أمره وغيره بدون تعليم الله له بذلك بالوحي .

وفي الآية التي ترتبط بالمنافقين : واضح أن النفاق قد لا يكتشف في الظاهر وبالطرق الطبيعية ، ولكنه قد يُكشف للنبيّ بغير الطرق الطبيعية والعادية . وما في الآية إنّما هو نفي معرفة الرسول لهم بالطرق العادية الطبيعية ، لا ما يمكن أن يحصّل الرسول عن طريق تعليم الغيب .

بل إنّ التاريخ يدلّ على أن الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يكن ليعرف المنافقين فقط ، بل كان أحياناً يعرّف أصحاب السرّ من أصحابه بهم أيضاً .

فقد روى ابن حجر في (أسد الغابة) : أن حذيفة كان من خواصّ الأصحاب ، بل كان من أصحاب السر لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فكان يعرّفه الرسول المنافقين . فسأله يوماً الخليفة الثاني : هل ترى في أصحابي وعمّالي أحداً من المنافقين ؟ قال : نعم ، قال : ومن هو ؟ فأبى حذيفة عن ذكره ، وعرفه الخليفة بالتالي فعزله . وكان عمر لا يصلي على ميّت حتى يحضر صلاته حذيفة[1] .

ولا يمكن التكليف بلا معرفة ؛ وقد أمر الله الرسول الكريم أن يجاهد الكفّار والمنافقين وأن لا يطيعهم في أهوائهم وآرائهم حيث يقول : ﴿ **يا أيها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾[2] .

---

(١) أسد الغابة ١ : ٣٩١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٧٣ .

وقال تعالى : ﴿ ولا تُطع الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم وتوكَّل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾(١) .

فهل من الممكن أن يأمر النبيّ بجهاد المنافقين ولا يعرفهم الرسول ؟ من ناحية يحذّره أن لا يطيعهم ومن ناحية أخرى لا يعرّفهم لرسوله إلى آخر عمره ؟ من هنا نستنبط أن عدم معرفته بهم كان مؤقتاً لا دائماً(٢) .

بل إن القرآن الكريم يثبت أنّ للأنبياء علماً بالغيب إذ يقول : ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسُله ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾(٤) .

﴿ عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً * إلاّ من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾(٥) .

تقول هذه الآية : إنّ الله تعالى يملك علم الغيب ، ولا يطلع أحداً على غيبه إلا من ارتضاهم ، ومن هؤلاء هم الأنبياء الذين يطلعهم الله على غيبه ويجعل لهم حفظة .

ويقول تعالى : ﴿ إنّه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مُطاع ثَمّ أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين ﴾(٦) .

أي كلّ ما رأى من الصلاح أن يطلعكم عليه من الغيب أخبركم به .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٨ .
(٢) العلم الثالث : ص ١٨٤ (بالفارسية) .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٧٩
(٤) سورة آل عمران : الآية ٤٤ .
(٥) سورة الجن : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .
(٦) سورة التكوير : الآيات ١٩ ـ ٢٤ .

فهنا نزّه النبيّ عن البخل بأخبار الغيب ، وبيّن اطّلاعه على الغيب إجمالاً .

وحينما نقارن بين هاتين الفئتين من الآيات الكريمة نرى فيهما قرائن تشهد بعدم المنافاة بينهما ؛ بل الآيات الأولى تنفي عنهم العلم الذاتي والاستقلالي بالغيب ، والآيات الأخرى تثبت للأنبياء علماً بالغيب بتعليم الله تعالى لهم ، إذن فهناك عباد صالحون يتمتعوّن بصلاحية الورود إلى دائرة علم الله بالغيب .

إنّ الوحي للأنبياء نوع من العلاقة غير المعروفة لهم بعالم الغيب ، وهو فيض إلّهي يفيضُه على قلب كل واحد من عباده المصطفين لذلك عنده .

ولا نغفل عن نقطة أخرى هي أن اطّلاع الأنبياء على الغيب يتناسب وظرفيّتهم الروحية والمعنوية ؛ وإنّ من يدّعي علم الغيب للأنبياء والأئمة لا يدّعيه لهم ذاتيّاً واستقلالياً بل كما تكرر ـ تعليميّاً ووحياً منه سبحانه إليهم .

وهكذا يتوضّح لنا مفهوم هاتين الفئتين من الآيات القرآنية ؛ أي الآيات التي تنفي علم الغيب عن غير الله بصورة مطلقة ، والآيات الأخرى التي تُثبت العلم بالغيب لعباد الله المصطفين في إطار الإرادة الربّانيّة وبصورة محدودة .

ونقول : إنّ دعوى النبوة والرسالة الإلهية يُصاحبها دعوى الارتباط بعالم الغيب والاطّلاع بالوحي على بعض الغيب ، ولا معنى لأن يدّعي النبيّ النبوة من ناحية ومن ناحية أخرى ينفي عن نفسه علمه بالغيب بصورة مطلقة . أما تركيز القرآن وتأكيده على نفي علم الغيب عن الأنبياء فإنما هو لتخطئة أسلوب التفكير الجاهلي بشأن خصائص الأنبياء وامتيازاتهم ؛ إذ أنهم كانوا يزعمون أن الأنبياء بريئون بعيدون عن الخصائص الإنسانية الطبيعية ، ومجهّزون باطّلاع علميّ خارق للعادة في هذه الحياة بحيث يمكنهم أن يفعلوا كلّ شيء بقدرتهم اللاّمحدودة ! .

ولا ريب في أن هذه الرؤية للأنبياء في عصر الجاهلية كانت تمهّد

الدرب لعبادة الأنبياء وكأنهم قدرة مطلقة تفوق البشر ؛ ولهذا فإن القرآن لكي ينفي هذه الأوهام ويهيّيء الأذهان لتقبّل الواقع والحقيقة يعلن : أن الأنبياء ـ كسائر الناس ـ يأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق ويحتاجون إلى الراحة والاستجمام ؛ ومع ذلك فإنّ أهم مميزاتهم هو أنهم يتلقّون الرسالة الإلهية عن طريق الوحي ليبلّغوها إلى الناس حسب استيعاب رسالتهم .

إن القرآن الكريم يهدف إلى أن يثبت حقّانيّة رسالة الأنبياء بين البشر والمرسلين إليهم من أنفسهم ، ومن ناحية أخرى يضرب الأفكار الباطلة فيهم عرض الحائط ، لكيلا تشوب رسالاتهم بالشرك بأن يعبدوهم وكأنهم قدرة قاهرة فوق البشر من دون الله ، ولهذا قال :

﴿ وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء ـ كما زعمت ـ علينا كِسَفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرأه ، قل سبحان ربّي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً ﴾[١] .

﴿ وقالوا : ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق ؟! لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يُلقي إليه كنزٌ ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون : إن تتبّعون إلاّ رجلاً مسحوراً ﴾[٢] .

أجل كان هكذا هو أسلوب التفكير الجاهليّ الذي كان يكافحه القرآن في آياته تلك .

---

(١) سورة الإسراء : الآيات ٩٠ ـ ٩٣ .

(٢) سورة الفرقان : الآيتان ٧ ـ ٨ .

هل بإمكان الإمام أن يتصّل بعالم الغيب؟

يوجد بين البشر أفراد تفتح لهم أبواب السماء بالإلهام والإشراق على أرواحهم ، فيطّلعون على بعض الحقائق الخفيّة ، بينما لا يتيسّر للإنسان الورود إلى تلك الحوزة الغيبيّة عن طريق الاستدلال وإعمال الفكر والعقل . وإن هذا الإدراك غير الحسّي الذي هو من تجلّي الإلهام ، لهو طريق صدق لمعرفة الواقع والحق ، وإن كان لا يجد له تفسيراً في الرؤية المادّية الضيّقة ، إلّا أنه بالنظر إلى الأصول العلمية مما لا يقبل الإنكار .

ومن مشاهير علماء العصر الحديث الذين يقرّون للإلهام بقيمة ومنـزلة خاصة ويرونه موهبة استثنائية ، هو (الدكتور الكسيس كارليل) إذ يقول :

« إن النوابغ من البشر إلى جانب قـواهم الطبيعيـة لإدراك المعلومات يتمتعون بخصائص أخرى كالإلهام أيضاً ، يجدون بها أشياء تخفى على غيرهم ، ويرون بين القضايا غير المرتبطة ظاهراً روابط مجهولة لغيرهم ، ويدركون بفراستهم كنوزاً مجهولة لمن سواهم . إن أصحاب هذه البصيرة الخاصّة يدركون أفكار الآخرين عن غير طريق الأعضاء الحاسّة ، وكذلك يرون قليلا أو كثيراً من حوادث بعيدة عنّا زماناً ومكاناً ، ويخبروننا عن بعض

الأشياء والقضايا بأخبار موثقة أكثر وثوقاً مما يدرك بالأعضاء الحاسّة .

إنّ قراءة أفكار الآخرين أيسر على أصحاب البصيرة من وصفهم لصورهم ، ولا يكفي تعبير الرؤية والحسّ لبيان ما يجري في شعورهم ، إذ لا يرون شيئاً ولا يفتّشون عن شيء ولكنهم يعرفونه ويعلمون به .

وكثير من الناس ليسوا من أصحاب هذه البصيرة ولكنّهم جرّبوا هذه الرابطة القلبية والروحية في طول أعمارهم مرة أو مرتّين ، وهذا يعني أن معرفة العالم الخارجي قد تتيسّر لنا من طرق أخرى غير الحسّ . ونحن لا نشكّ في قدرة أفكارنا على أن تربط بين فردين من البشر بصورة مستقيمة من دون أن يكون بينهما أيّ رابط في الواقع الخارجي . ويجب أن نقبل بهذه الأمور التي يبحث عنها في علم «الميتاسيبيشك» كما هي عليه ، ففيها حقائق بصدد التعرّف على جوانب من الوجود للإنساني لم تعرف حتى اليوم ، ولعلّها تتمكن من أن تبيّن لنا سبب البصيرة الخارقة في بعض البشر »[١] .

وعلى هذا فللرّوح الإنسانية غير الأعضاء طريق أو طرق أخرى للارتباط بالعالم الخارجي ، ما عدا الإدراك الحسّي والعقلانيّ . وإنّ المحقّقين يرون اطّلاع البشر على بعض الغيب أمراً ممكناً حسب تحقيقاتهم .

فكما يُثبت الحسّ وتُثبت التجربة إمكانية أن يرتبط الإنسان في منامه ورؤياه بالعالم الخارجي فيكتسب بعض الأخبار والمعلومات ؛ كذلك لا مانع من أن تصل قدرته الروّحية والباطنية إلى هذه النتيجة في عالم اليقظة أيضاً . وإنّ هذا نافذة أمل قد يفتحها الله لبعض عباده ليطّلعوا على طرف من الحقائق الخفيّة والأسرار المضمرة .

وإذا كان بالإمكان للإنسان هذه الموهبة من القدرة الروّحية ؛ فلم لا يتمكن أولئك الكُمَّل ، كالأنبياء والأولياء ، الذين يتمتّعون بصفات سامية

(١) الإنسان ذلك المجهول ـ بالفارسية : ١٣٥ .

وكرامات عالية ، من أن يرتبطوا بعالم الغيب في مُستوى أوسع وأفق أعلى ، بتعليم وإفاضة من الله ، وعلى أساس من عمق إخلاصهم وطهارة ضميرهم وباطنهم ، فيطّلعوا على بعض الحقائق مما وراء الستار ؟ .

إنّ عمدة الطرق لعلم الأئمة هو ما يفاض عليهم من الإلهام بأمر ربّهم ، فيتوصلون بارتباطهم بعالم الغيب إلى كشف كثير من الحقائق والوقائع . وقد وردتنا روايات كثيرة تؤكّد لنا أن بإمكان أناس من المصطفين المخلَصين أن يرتبطوا بعالم الغيب ، فينالوا بذلك إدراك سلسلة من الحقائق الخفية والأسرار والرموز المضمرة في ضمير هذا الوجود ، وإن كان ما يُلقى إلى الأئمة من عالم الغيب فيطّلعون من هذا الطريق على طرف من خفيّات الأمور ليس من نوع الوحي ، فإنهم لا يرون فيما يُلهمون ملك الوحي جبرئيل أو غيره ، إلا أن ما يطّلعون عليه من الحقائق يُوسّع عليهم دائرة إدراكاتهم ، ويُضيف في فهمهم وطاقاتهم العلمية .

وليس ارتباط الأئمة بعالم الغيب ارتباطاً مطلقاً بلا حدود وإطار ، إنه بإمداد من القدرة المطلقة والإلهية من دون أن يصل إلى الإحاطة الكاملة بكل العلوم والأسرار ؛ بل إن ارتباطهم مؤطّر بإطار خاص وفي حوزة معيّنة قد قدّر الله حدودها وعيّنها . فهم بعلمهم المحدود وحاجتهم إلى المدد من الله لا يصلون إلى العلم المطلق بالغيب . ولكنهم بكمالهم الإنسانيّ وحسب نورانيتّهم وكونهم مظاهر لأسماء الله وصفاته ، إذا توجّهوا ببواطنهم الطاهرة وجواهرهم النيّرة إلى عالم الغيب ، أفاض الله الخالق عالم الغيب والشهادة عليهم طرفاً من المسائل الغيبية وحقائق الوجود ، وفتح عليهم نوافذ من ذلك العالم لتعميق علومهم . وعلى هذا فإنّ ارتباطهم بعالم الغيب ليس داخلاً في اختيارهم بالاستقلال ، وهذا هو المفهوم من الروايات التي ينفي فيها الأئمة عن أنفسهم علمهم بالغيب وهو أن علمهم ليس مطلقاً غير محدود ، وأنهم لا يطّلعون على ما يطّلعون عليه بغير إذن الله وإرادته ومشيئته .

أحد أصحاب الإمام الباقر (عليه السلام) سأله عن قوله جلّ ذكره :

﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾[1] فأضاف الإمام الباقر (عليه السلام) : ﴿ إلاّ من ارتضى من رسول ﴾[2] ثم قال : « وكان والله محمد من ارتضاه . وأما قوله : ﴿ عالم الغيب ﴾ فإنّ الله عزّ وجلّ عالم بما غاب عن خلقه فيما يقدّر من شيء ويقضيه في علمه قبل أن يخلقه وقبل أن يفضيه إلى الملائكة ، فذلك ـ يا حمران ـ علم موقوف عنده ، إليه فيه المشيئة ، فيقضيه إذا أراد ، ويبدو له فيه فلا يمضيه . فأمّا العلم الذي يقدّره الله عزّ وجل فيقضيه ويمضيه فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله ثم إلينا »[3] .

فالقرآن الكريم يعلن بصراحة : أنّ الله تعالى يطلع على الغيب بعض المصطفين من عباده كالأنبياء في مختلف العصور ، فالأئمة الأطهار كذلك بالاستمداد من عناية الله بإمكانهم أن يتصلوا بعالم الغيب إذا اقتضى الأمر فيطّلعوا على ما يلزمهم من علوم . وليس هذا بمعنى أن الأئمة حتى في حياتهم العادية وفي كل أعمالهم يتصلون بعالم الغيب فيستفيدون مما يطّلعون عليه ، فإن الله اختار أن يكون النبيّ والإمام من البشر ومع البشر من دون اختلاف فيهم عن الاخرين في كيفية حياتهم ، بل عليهم بناءً على هذا أن يتّخذوا قراراتهم على ظواهر الأمور ، وأن يشاوروا في كثير من أمورهم مع أصحابهم . فالأعمال التي يقومون بها في مسيرة حياتهم كثيراً ما تبتني على اختيارهم وعلمهم العادي ، وهم كسائر الناس مكلّفون بجميع التكاليف والمقرّرات الدينية ؛ وعلى هذا فلا يصح أن نفصل حياتهم في المجتمع تعليماً وتربية وهدايةً للخلق عن سائر الناس ، فإنهم في أكثر أمورهم هذه كانوا عاديّين طبيعيّين ؛ حتى أن حياتهم الشخصية الطبيعية وأسلوب أعمالهم في مختلف الأصعدة الاجتماعية سبّب في أن يقرنهم بعض الناس بكثير من غيرهم في العلم .

---

(١) سورة الجن : الآية ٢٦ .

(٢) سورة الجن : الآية ٢٧ .

(٣) أصول الكافي ١ : ٢٥٦ .

ويجب أن نلتفت هنا إلى نقطة أخرى هي : أنّ اطّلاعهم على الغيب ، أي علمهم بوقوع بعض الحوادث لم يكن له أي أثر في مسيرة الحياة الطبيعيّة ، فهو لا يؤثر في أعمال الآخرين أصحاب تلك الحوادث الآتية ، ولا يكون منشأ للتكليف لهم . إنّ علم الإمام ـ بأنّ إنساناً ما سيقدم على عمل ما بإرادته واختياره ـ لا يؤثر في اختيار ذلك الإنسان أيّ أثر ، ولا يكون مانعاً ولا رادعاً له عن إعماله لإرادته ، ولا تسلب حرية العمل والحركة من ذلك الإنسان . أما التكاليف بالنسبة للأئمة فإنّما تتحقق بالطّرق الطّبيعية لا بالغيب ، أي إن المعلومات الغيبية والاطّلاع على قضاء الله المبرم والمشاهدة ـ الملكوتية ـ لعدد من الحقائق إنما هي أخبار عن حوادث ، ولا توجب أيّ تكليف ولا أيّ أمر أو نهي في مورد تلك الحوادث .

روى الشيخ الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن معمّر بن خلّاد قال : سأل أبا الحسن (الإمام الكاظم) (عليه السلام) رجل من أهل فارس فقال له : أتعلمون الغيب ؟ فقال : قال أبو جعفر (الباقر) (عليه السلام) : يُبسط لنا العلم فنعلم ، ويُقبَض عنّا فلا نعلم . وقال : سرّ الله عزّ وجلّ أسرّه إلى جبرئيل ، وأسرّه جبرئيل إلى محمد ، وأسرّه محمد إلى من شاء الله »[1] .

وروى الصفّار في (بصائر الدّرجات) بسنده عن عبد الرحيم قال : سألت أبا جعفر الباقر (عليه السلام) عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ **وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين** ﴾[2] قال : كشط له السموات والأرض حتى رآها وما فيها ، حتى رأى العرش ومن عليه ، وفعل ذلك برسول الله (صلى الله عليه وآله) »[3] .

وروى فيه عنه بسنده عن أبي بصير عن أحدهما قال : قلت له :

---

(١) أصول الكافي ١ : ٢٥٦ .

(٢) سورة الأنعام : ٧٥ .

(٣) البحار ٢٦ : ١١٦ عن بصائر الدرجات : ٣٠

﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ ؟ قال : « كشفت له السموات والأرض حتى رآها ورأى ما فيها والعرش ومن عليه . قال : قلت : فأوتي محمد (صلى الله عليه وآله) مثل ما أوتي إبراهيم (عليه السلام) ؟ قال : نعم ، وصاحبكم هذا »[1] .

وروى فيه عنه بسنده عن أبي بصير أيضاً قال : قلت لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام) : هل رأى محمد (صلى الله عليه وآله) ملكوت السموات والأرض كما رأى إبراهيم ؟ قال : نعم ، وصاحبكم »[2] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن عبد الرحمن بن كثير قال : سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول : نحن وُلاة أمر الله ، وخزنة علم الله ، وعيبة وحي الله »[3] .

وروى فيه بأسناده عن أبي الربيع الشامي وأبي عبيدة المدائني عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال : « إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك »[4] .

وروى فيه بسنده عن سيف التمّار قال : كنّا في جماعة من الشيعة مع أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) في الحِجر ، فقال : علينا عين ؟ فالتفتنا يمنةً ويسرة فلم نَرَ أحداً ، فقلنا : ليس علينا عين . فقال : وربِّ الكعبة ، وربِّ الكعبة ، وربِّ الكعبة ، لو كنت بين موسى والخضر (عليهما السلام) لأخبرتهما أني أعلم منهما ، ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما ؛ لأنَّ موسى والخضر أُعطيا علم ما كان ولم يُعطَيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة ، وقد ورثناه من رسول الله وراثة »[5] .

---

(١) البحار ٢٦ : ١١٥ عن بصائر الدرجات : ٣٠ .
(٢) البحار ٢٦ : ١١٥ عن بصائر الدرجات : ٣٠ .
(٣) أصول الكافي ١ : ١٩٢ ط آخوندي .
(٤) أصول الكافي ١ : ٢٥٨ . ط آخوندى .
(٥) أصول الكافي ١ : ٢٦٠ .

وروى ابن شهر آشوب في كتابه (مناقب آل أبي طالب) عن صفوان بن يحيى عن بعض رجاله عن الصادق (عليه السلام) قال : « والله لقد أعطينا علم الأولّين والآخرين » فقال له رجل من أصحابه : جعلت فداك أعندكم علم الغيب ؟ فقال له : ويحك إنّي لأعلم ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، ويحكم وسّعوا صدوركم ولْتبصر أعينكم ولْتعِ قلوبكم ، فنحن حجة الله تعالى في خلقه ، ولن يسع ذلك إلاّ صدر كلّ مؤمن قوي ، قوّته كقوة جبال تهامة ، إلاّ بإذن الله .

والله لو أردت أن أحصي لكم كل حصاة عليها لأخبرتكم . وما من يوم وليلة إلاّ والحصى تلد إيلاداً كما يلد هذا الخلق . والله لتتباغضون بعدي حتى يأكل بعضكم بعضاً »[1] .

وروى الصفّار في (بصائر الدّرجات) بأسناده عن صفوان بن يحيى عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : « إنّ الله أجل وأعظم من أن يحتجّ بعبد من عباده ثم يخفي عنه شيئاً من أخبار السماء والأرض »[2] .

وعن المفضّل بن عمر أنه قال : « الله أحكم وأكرم من أن يفرض طاعة عبده ويحجب عنه خبر السمّاء صباحاً ومساءً »[3] .

وروى فيه بسنده عن سعد بن الأصبغ الأزرق قال : دخلت مع الحصين ورجل آخر على أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فاستخلى برجل فناجاه ما شاء فسمعته يقول له : أفترى الله يمّن بعبد في بلاده ويحتجّ به على عباده ثم يخفي عنه شيئاً من أمره ؟ » .

وروى فيه بسنده عن أبي بصير عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال :

---

(١) البحار ٢٦ : ٢٧ عن المناقب ٣ : ٣٧٤ .

(٢) البحار : ٢٦ : ١١٠ عن بصائر الدرجات : ٣٥ .

(٣) البحار ٢٦ : ١١٠ عن بصائر الدرجات : ٣٥ والخبر في أصول الكافي ١ : ٢٦١ ط آخوندي .

سُئل علي (عليه السلام) عن علم النبيّ (صلى الله عليه وآله) فقال : علم النبيّ علم جميع النبيّين ، وعلم ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام الساعة . ثم قال : والذي نفسي بيده إنّي لأعلم علم النبيّ (صلى الله عليه وآله) وعلم ما كان وعلم ما هو كائن فيما بيني وبين قيام الساعة »[1] .

وروى ابن الشيخ في أماليه عن المفيد بسنده عن المفضل بن عمر عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : «أعطيت تسعاً لم يُعطَها أحد قبلي سوى النبيّ : لقد فُتحت لي السبل ، وعلمت المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب ، ولقد نظرت في الملكوت بإذن ربّي ، فما غاب عنّي ما كان قبلي ، ولا ما يأتي بعدي ، وإنّ بولايتي أكمل الله لهذه الأمة دينهم وأتمّ عليهم النّعم ، ورضي لهم إسلامهم إذ يقول يوم الولاية لمحمد (صلى الله عليه وآله) : يا محمد أخبرهم أني أكملت لهم اليوم دينهم وأتممت عليهم النعم ورضيت إسلامهم . كلّ ذلك منّاً منّ الله عليّ ، فله الحمد »[2] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن خريس الكُناسيّ قال : سمعت أبا جعفر الباقر (عليه السلام) وعنده أُناس من أصحابه يقول لهم : « عجبت من قوم يتولّونا ويجعلونا أئمة ويصفون أن طاعتنا مفترضة عليهم كطاعة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، ثم يكسرون حُجّتهم ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم ، فينتقصونا حقّنا ويعيبون ذلك على من أعطاه الله برهان حق معرفتنا والتسليم لأمرنا . أترون أنّ الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده ثم يخفي عنهم أخبار السماوات والأرض ويقطع عنهم موادّ العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم »؟ ![3] .

هذه خلاصة فصل طويل من الروايات التي وصلتنا من الأئمة الطاهرين

---

(١) البحار ٢٦ : ١١٠ عن بصائر الدرجات : ٣٥ .
(٢) البحار ٢٦ : ١٤١ عن أمالي ابن الشيخ : ١٢٨ ، والآية في سورة المائدة : ٣ .
(٣) أصول الكافي ١ : ٢٦١ ط آخوندي .

بهذا الصدد ، وكلما كانوا يرون من وظيفتهم بيان بعض الحقائق الغيبية كانوا يفتحون بها أفواههم فيبيّنون للناس ما بان لهم منه وخفي على غيرهم .

وقد كتب عالم السنّة ابن أبي الحديد يقول : « وقد أقسم في هذا الفصل بالله الذي نفسه بيده : أنهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلاّ أخبرهم به . . وهذه الدعوى ليست منه (عليه السلام) إدّعاء الرّبوبيّة ولا ادّعاء النبوّة ، ولكنّه كان يقول : إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخبره بذلك ، ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً ، واستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة »[1] .

إن وقوع أخباره الغيبية لدليل على صدق كلامه هذا ، ومبيّن كذلك لعلمه الذي يختصّ به بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « إنكم لا تسألوني عن أمر يحدث بينكم وبين يوم القيامة إلاّ أخبرتكم به » .

وإن قصّة ميثم التمّار لمن القصص المعروفة :

روى ابن أبي الحديد عن كتاب الغارات لأبي إسحق إبراهيم الثقفي عن أحمد بن الحسن الميثمي من أحفاد ميثم التمار قال : كان ميثم التمّار مولى علي بن أبي طالب (عليه السلام) عبداً لامرأة من بني أسد ، فاشتراه علي (عليه السلام) منها وأعتقه ، وقال له : ما اسمك ؟ قال : سالم ، فقال : إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخبرني أنّ اسمك الذي سمّاك به أبوك في العجم « ميثم » ! فقال : صدق الله ورسوله وصدقت يا أمير المؤمنين ، فهو والله اسمي ، فقال علي (عليه السلام) : فارجع إلى اسمك ودَعْ سالماً فنحن نكنّيك به . فكنّاه أبا سالم .

وكان قد أطلعه علي (عليه السلام) على علم كثير وأسرار خفية من أسرار الوصية ، فكان ميثم يحدث ببعض ذلك ، فيشك فيه قوم من أهل

---

(١) شرح نهج البلاغة ٧ : ٤٧ ثم سرد لذلك أمثلة من أخباره (عليه السلام) إلى ص ٥٠ فراجع .

الكوفة وينسبون علياً (عليه السلام) في ذلك إلى المخرقة (أي اختلاق الكذب) والإيهام والتدليس ! حتّى قال له يوماً بمحضر من خلق كثير من أصحابه وفيهم الشاك والمخلص : يا ميثم إنك تؤخذ بعدي وتُصلب ، فإذا كان اليوم الثاني ابتدر منخراك وفمك دماً حتى تُخضبَ لحيتك ، فإذا كان اليوم الثالث طُعِنت بحربة يقضى عليك . فانتظر ذلك ! والموضع الذي تصلب فيه على باب دار عمرو بن حريث ،وإنك لعاشر عشرة أقصرهم خشبة وأقربهم من المطُهَّرة ـ يعني الأرض ـ ولأرينّك النخلة التي تصلب على جذعها . ثم أراه إياها بعد ذلك بيومين .

وكان ميثم يأتيها فيصلّي عندها ويقول : بوركت من نخلة لكِ خُلِقتُ ولي نَبتِّ !

فلم يزل يتعاهدها بعد قتل علي (عليه السلام) حتى قُطعت ، فكان يرصد جذعها ويتعاهده ويتردّد إليه ويبصره . وكان يلقى عمراً بن حريث فيقول له : إنّي مجاورك فأحسن جواري ! فلا يعلم عمرو بن حريث ما يريد ميثم ، فيقول له : أتريد أن تشتري دار ابن مسعود أم دار ابن حكيم ؟!

وحجّ في السنَة التي قتل فيها فدخل على أم سلمة رضي الله عنها ، فقالت له : مَن أنت ؟ قال : عراقي ، فاستنسبته فذكر لها : أنه مولى علي بن أبي طالب . فقالت : أنت هيثم قال : بل أنا ميثم . فقالت : سبحان الله ! والله لربّما سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوصي بك علياً في جوف الليل . فسألها عن الحسين بن علي فقالت : هو في حائط له ، قال : أخبريه أني قد أحببت السلام عليه ونحن ملتقون عند ربّ العالمين إن شاء الله ، ولا أقدر اليوم على لقائه وأريد الرجوع . فدعَتْ بطيب فطيّبت لحيته ، فقال : أما إنّها ستخضب بدم ! فقالت : من أنبأك هذا ؟ قال : أنبأني سيّدي . فبكت أمّ سلمة وقالت له : إنّه ليس بسيّدك وحدك فهو سيّدي وسيد المسلمين . ثم ودّعته .

فقدم الكوفة ، فأخذ وأدخل على عبيد الله بن زياد وقيل له : هذا كان

من آثر الناس عند أبي تراب ! قال : ويحكم هذا الأعجمي ! قالوا : نعم ، فقال له عبيد الله : أين ربّك ؟ قال : بالمرصاد ! قال : قد بلغني اختصاصك بأبي تراب ؟ قال : قد كان بعض ذلك فما تريد ؟ قال : ما الذي أخبرك أني صانع بك ؟ قال : أخبرني أنك تصلبني عاشر عشرة وأنا أقصرهم خشبة وأقربهم من المطهّرة . قال : لأخالفنّه ! قال : ويحك ! كيف تخالفه ؟ إنّما أخبر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأخبر رسول الله عن جبرائيل وأخبر جبرائيل عن الله ، فكيف تخالف هؤلاء ! أما والله لقد عرفت الموضع الذي أصلب فيه أين هو من الكوفة ؛ وإنّي لأول خلق الله أُلجَم في الإسلام بلجام كما يُلجم الخيل .

فحبسه ابن زياد وحبس معه المختار بن أبي عبيدة الثقفي ، فقال ميثم للمختار : إنك تفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين (عليه السلام) ! فتَقْتُل هذا الجبّارَ الذي نحن في سجنه ، وتطأ بقدمك هذا على جبهته وخدّيه .

فلما دعا عبيد الله بن زياد بالمختار ليقتله طلع البريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد يأمره بتخلية سبيله . وذلك أن أخت المختار كانت تحت عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، فسألت بَعْلها أن يشفع فيه إلى يزيد ، فشفع ، فأمضى شفاعته وكتب بتخلية سبيله بالبريد ، فوافى البريد وقد أخرج ليضرب عنقه فأُطلق .

وأما ميثم ؛ فأخرج بعده ليصلب ، وقال عبيد الله : لأمضيَنّ حكم أبي تراب فيه : فقال رجل لميثم : ما كان أغناك عن هذا يا ميثم ! فتبسّم وقال : لها خُلِقتُ ولي غُذِيَتْ . فلما رُفع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث فقال عمرو ، لقد كان يقول لي : إنّي مجاورك . . وجعل ميثم يحدّث بفضائل بني هاشم ومخازي بني أُميّة ، وهو مصلوب على الخشبة ، فقيل لابن زياد : قد فضحكم هذا العبد ! فقال : ألجموه ! فألجم ، فكان أول خلق الله ألجم في الإسلام ، فلما كان في اليوم الثاني فاضت مُنْخَراه وفمه دماً ، فلما كان اليوم الثالث طُعن بحربة فمات . وكان

ذلك قبل قدوم الحسين العراق بعشرة أيام »[1] .

وبعد الانتهاء من حرب الجمل وفتح البصرة لعلي (عليه السلام) خطبهم فقال : « بلادكم أنتن بلاد الله تربة ، أقربها من الماء وأبعدها من السماء ، وبها تسعة أعشار الشرّ ، المحتبس فيها بذنبه ، والخارج بعفو الله . كأنّي أنظر إلى قريتكم هذه قد طبقها الماء ، حتى ما يُرى منها إلاّ شُرَفُ المسجد كأنه جؤجؤ طير في لُجّة بحر » .

وقال ابن أبي الحديد في شرحها : « فأما إخباره (عليه السلام) : أن البصرة تغرق عند المسجد الجامع بها » . فالصحيح أن المخبر به قد وقع ؛ فإن البصرة غرقت مرّتين : مرة في أيام القادر بالله ومرة في أيام القائم بأمر الله ، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلاّ مسجدها الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطير ، وهو عظم الصدر ، حسب ما أخبر به أمير المؤمنين (عليه السلام) ، جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة فارس ومن جهة الجبل المعروف بالسّنام »[2] .

وروى الشيخ الصدوق في المجلس الرابع والعشرين من أماليه بسنده عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن جده : أن الحسين بن علي (عليهما السلام) دخل يوماً إلى الحسن بن علي (عليهما السلام) ، فلما نظر إليه بكى ، فقال له : ما يبكيك يا أبا عبد الله ؟ قال : أبكي لما يصنع بك . فقال له الحسن : إن الذي يؤتى إليّ سمّ يدسّ لي فأقتل به ، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله ، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل يدّعون أنهم من أمة جدّنا محمد (صلى الله عليه وآله) وينتحلون دين الإسلام ، فيجتمعون على قتلك وسفك دمك وانتهاك حرمتك وسبي ذراريك

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٩١ ـ ٢٩٤ ط أبو الفضل إبراهيم ، والخبر غير موجود في النسخ المخطوطة والمطبوعة من كتاب الغارات لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي الأصفهاني المتوفى ٢٨٣ هـ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ٢٥١ و٢٥٣ ط أبو الفضل إبراهيم .

ونسائك وانتهاب ثقلك ، فعندها تحل ببني أمية اللعنة ، وتمطر السماء رماداً ودماً ، ويبكي عليك كل شيء حتى الوحوش في الفلوات والحيتان في البحار »[1] .

واجتمع بنو هاشم ليختاروا محمد بن عبد الله بن الحسن المجتبى (عليه السلام) للخلافة ، فخطبهم عبد الله بن الحسن ودعاهم إلى بيعة ابنه محمد ، فقال بعضهم : لم يجتمع أصحابنا فلسنا نرى أبا عبد الله جعفر بن محمد ؟! فقال عبد الله بن الحسن : لا ترسلوا إلى جعفر فإنه يفسد عليكم ! فأبوا إلاّ أن يأتيهم ، فأرسل إليه عبد الله بن الحسن فأتاهم ، فأوسع له عبد الله بن الحسن إلى جانبه وقال : قد علمت ما صنع بنا بنو أمية ، وقد رأينا أن نبايع لهذا الفتى ! فقال : لا تفعلوا فإنّ الأمر لم يأت بعد ، ولا يحملني على ما أقول الحسد ، ولكن هذا وإخوته وأبناؤه دونكم ، وضرب بيده على ظهر أبي العباس وقال : إنها والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك ، ولكنّها لهؤلاء ! وإنّ ابنيك لمقتولان ! أو قال : إنّ هذا الأمر والله ليس إليك ولا إلى ابنيك ، وإنما هو لهذا ـ وأشار إلى السفاح ـ ثم لهذا ـ وأشار إلى المنصور ـ ثم لولده من بعده ، لا يزال فيهم حتى يؤمّروا الصبّيان ويشاوروا النساء ! .

فقال عبد الله بن الحسن : والله يا جعفر ما أطلعك الله على غيبه ، وما قلت هذا إلاّ حسداً لابني ! فقال ، لا والله ما حسدت ابنك ، وإنّ هذا ـ وأشار إلى المنصور ـ يقتله على أحجار الزيت ، ثم يقتل أخاه بعده بالطفوف وقوائم فرسه في الماء . ثم قام مغضباً يجرّ رداءه »[2] .

وروى الكليني في (أصول الكافي) بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال لأخيه زيد :

---

(١) أمالي الصدوق : ١٠١ ط بيروت . ورواه الحرّ في إثبات الهداة : ١٤٧ ط طهران .

(٢) مقاتل الطالبيين : ١٧٢ ط الحيدرية . ورواه عنه المفيد في الإرشاد : ٢٧٦ ط الحيدرية .

« . . فلا يستخفّنّك الذين لا يوقنون » إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، فلا تعجل فإن الله لا يعجل لعجلة العباد ، ولا تسبقنّ الله فتعجزك البليّة فتصرعك . . . . أعيذك بالله يا أخي أن تكون غداً المصلوب بالكناسة . ثم أرفضّت عيناه وسالت دموعه ثم قال : الله بيننا وبين من هتك سترنا وجحدنا حقّنا وأفشى سترنا ونسبنا إلى غير جدّنا وقال فينا ما لم نقله في أنفسنا »[1] .

ورواه الحرّ في كتابه (إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات) ثم قال : « ما أخبر به الإمام الباقر (عليه السلام) في هذا الخبر وقع وبلغنا بالتواتر »[2] .

وروى أبوالفرج الأصبهاني في (مقاتل الطالبيّين) بسنده عن حسين بن بشّار عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنه أخبره بأن عبد الله المأمون سيقتل محمداً الأمين ابن زبيدة ، فكان كما أخبره (عليه السلام)[3] .

وروى الحرّ في (إثبات الهداة) بسنده عن حذيفة بن اليمان قال : سمعت الحسين بن علي يقول : « والله ليجتمعُن على قتلي بنو أمية ، ويقدمهم عمر بن سعد » وذلك في حياة النبيّ (صلى الله عليه وآله) ، فقلت له : أنبأك بهذا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ؟ قال : لا . فأتيت النبيّ فأخبرته فقال : علمي علمه وعلمه علمي »[4] .

وروى الكليني في (الكافي) بسنده عن أبي هاشم الجعفري قال : شكوت إلى أبي محمد ضيق الحبس وكتل القيد . فكتب إليّ : « أنت تصلّي اليوم الظهر في منزلك » فأخرجت في وقت الظهر فصلّيت في منزلي كما قال

---

(١) أصول الكافي ١ : ٣٥٦ ـ ٣٥٨ ط آخوندي .

(٢) إثبات الهداة ٥ : ٢٦٦ ط طهران .

(٣) مقاتل الطالبيين : ٢٩٨ .

(٤) إثبات الهداة ١ : ٥٨٩ ط قم .

(عليه السلام) وكنت مضيّقاً فأردت أن أطلب منه دنانير في الكتاب فاستحييت ، فلما صرت إلى منزلي وجّه إليّ بمائة دينار ، وكتب إليّ : « إذا كانت لك حاجة فلا تستحي ولا تحتشم واطلبها فإنك ترى ما تحبّ إن شاء الله »[1] .

وروى فيه بسنده عن خيران الأسباطي قال : قدمت على أبي الحسن (الإمام الهادي) (عليه السلام) المدينة فقال لي : ما خبر الواثق (بالله الخليفة العباسي) عندك ؟ قلت : جعلت فداك خَلَّفْتُه في عافية ، أنا من أقرب الناس عهداً به ، عهدي به منذ عشرة أيام . قال : فقال لي : إنّ أهل المدينة يقولون : إنه مات ! فلمّا أن قال لي : « الناس » علمت أنه هو . ثم قال لي : ما فعل جعفر (المتوكل) ؟ قلت : تركته أسوأ الناس حالاً في السجن . فقال : أما إنه صاحب الأمر ! ما فعل ابن الزيّات (الوزير) ؟ قلت : جُعلت فداك ، الناس معه والأمر أمره ، فقال : أما إنه شؤم عليه ! ثم قال : لا بدّ أن تجري مقادير الله تعالى وأحكامه ، يا خيران مات الواثق ، وقد قعد المتوكل جعفر [مقامه] وقد قُتل ابن الزيّات ! فقلت : متى جُعلت فداك ؟ قال : بعد خروجك بستّة أيام »[2] .

وروى ابن أبي الحديد عن الحسن بن محبوب ، عن أبي حمزة الثمالي ، عن سويد بن غفلة قال : إن علياً (عليه السلام) خطب ذات يوم (في مسجد الكوفة) فقام رجل من تحت منبره فقال : يا أمير المؤمنين إني مررت بوادي القرى فوجدت خالد بن عُرْفطة قد مات ، فاستغْفِر له !

فقال (عليه السلام) : والله ما مات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة ، صاحب لوائه حبيب بن حمار ، فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا حبيب بن حمار وإني لك شيعة ومحب ، فقال :

---

(١) أصول الكافي ١ : ٥٠٨ ط اخوندي . ورواه الحرّ في إثبات الهداة ٥ : ٢٨٦ .

(٢) أصول الكافي ١ : ٤٩٨ ط آخوندي . ورواه الحرّ في إثبات الهداة ٦ : ٢١٣ ط طهران .

أنت حبيب بن حمار ؟ قال : نعم ، فقال له ثانية : والله إنّك لحبيب بن حمار ؟ قال : إي والله ! قال : أما وإنك لحاملها ولتحملنّها ولتدخلُنّ بها من هذا الباب ، وأشار بيده إلى باب الفيل من مسجد الكوفة .

قال أبو حمزة الثمالي ثابت بن دينار: فوالله ما متّ حتى رأيت ابن زياد وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن علي (عليه السلام) ، وجعل خالد بن عُرْفطة على مقدمته ، وحبيب بن حمار صاحب رايته ، فدخل بها من باب الفيل »[1] .

ومن الحوادث العجيبة التي تنبّأ عنها أمير المؤمنين (عليه السلام) ما أصاب رشيد الهجري .

روى ابن أبي الحديد عن أبي إسحاق إبراهيم الثقفي بسنده عن زياد بن النضر الحارثي قال :

« كنت عند زياد وقد أتي برشيد الهجريّ ، وكان من خواصّ أصحاب علي (عليه السلام) ، فقال له زياد : ما قال خليلك لك إنّا فاعلون بك ؟ قال : قال : تقطّعون يدي ورجلي وتصلبونني ! فقال زياد : أما والله لأكذّبنّ حديثه ، خلّوا سبيله ، فلما أراد أن يخرج قال : ردّوه ، لا نجد شيئاً أصلح مما قال لك صاحبك ؛ إنّك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت ، اقطعوا يديه ورجليه ! فقطّعوا يديه ورجليه ، وهو يتكلّم ، فقال : اصلبوه خنقاً في عنقه ، فقال رشيد قد بقي لي عندكم شيء ما أراكم فعلتموه ! فقال زياد : اقطعوا لسانه . فلما أخرجوا لسانه ليُقطع قال : نفّسوا عنّي أتكلم كلمة واحدة ، فنفّسوا عنه ، فقال : هنا والله تصديق خبر أمير المؤمنين ، أخبرني بقطع لساني . فقطعوا لسانه وصلبوه »[2] .

هذه نماذج معدودة من القضايا والقصص الكثيرة المنقولة في كتب

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٨٦ ، ٢٨٧ط أبو الفضل إبراهيم .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٩٤ ط أبو الفضل إبراهيم .

التاريخ والحديث من رواة مختلفين لم يجتمعوا على الكذب في مكان وزمان واحد ، تضطّر كل محقق منصف إلى الاعتراف بارتباط الأئمة الطاهرين بعالم الغيب ، وأنهم كان بإمكانهم متى ما شاؤوا وشاء الله أن يـطّلعوا على بعض الحقائق الخفية .

أسلوب انتخاب الإمام والقائد

من المسائل التي لا زالت محل كلام ومقال بين المسلمين منذ صدر الإسلام ، هي مسألة انتخاب الإمام والقائد ، هذه المسألة التي قسمت الأمة الإسلامية إلى مدرستي السنّة والشيعة .

فتعتقد الشيعة بأن حق تعيين الإمام والقائد إنما هو من حق الله تعالى الخاصّ به ، وعليه فلا يتمكن الناس أن يؤدّوا أيّ دور في اختيار الإمام ، بل إنما هو خالق العالمين يختار رجلاً ليتعهّد بالقيادة بواسطة رسوله الأمين فيعرفه للناس .

إن تبعيّة الشيعة لأصل الإمامة والدّقة المتناهية لهم في هذا الأمر ، واعتقادهم بتعيين حجة وقائد دينّي من قبل الله ورسوله لكل عصر ، يلازم الدلالة على تعظيم حقوق الإنسان .

إنهم يقولون : إنه لا يصّح أن نلغي بالنسبة للإمامة ما كنّا نشترط في مقام النبوّة . فالالتزام باشتراط هذه الصفات في الإمام القائد يعني أنهم لا يرون إماماً يليق بالإمامة للبشر دون الإمام العادل المعصوم العالم . إذ أن المعرفة التامّة القطعية بمعارف الدين ، وإبلاغ الأحكام والقوانين الإلهية ، وتنفيذها الصحيح في المجتمع وحراستها وصيانتها ، لا تتحقق بدون أن تتحقق كل تلك الخصائص (التي كانت في النبوّة) في قيادة الأمة . والله

المطّلع على الضمائر والسرائر ، العالم بمدى القوى الباطنية والثقافة الدينية ومستوى التقوى عند الإمام ، هو الذي يعلم لمن يودع مصير المعارف الإلهية ، من يمكنه أن يتعهد بذلك ، ولا يغفل ولا لحظة واحدة عن الدعوة إلى الحق وأصول العدالة ، ولا عن حراسة حدود دين الله .

وهذه العقيدة في الشيعة بالإضافة إلى جانبها الربّاني هي أسمى الآمال الإنسانية . أما ما نقول به من عدم مداخلة الناس في أمر الإمام القائد ؛ فذلك بسبب أن الناس لا علم لهم بطهارة الضمائر ومستوى التقوى في الأفراد ومدى القيم الإسلامية والقرآنية عندهم ، ولا يمكنهم أن يدركوا ملكة العصمة عند الأئمة . وعلى هذا الأساس فإنّ تعيين الخليفة من قبل الرسول أو التعريف به من قبل الإمام السابق للاحق، وذلك هو المقياس الأصيل لمعرفة الحقيقة والواقع .

وكذلك يمكن معرفة الإمام والقائد الديني العامّ وإحراز مقام إمامته فيما إذا كان بإمكان مدّعي الإمامة أن يثبت للناس ارتباطه بالغيب وعصمته وإمامته بالإعجاز .

هذان طريقان سلكهما مذهب التشيع للتوّصل إلى معرفة الإمام والهوية الحقيقية للخلافة الإسلامة . وبهذين الطريقين لا يبقى الإمام الحق وراعي الأمة غير معروف في عصره .

ويوجد في المسلمين في مقابل الفكر الشيعي فكر آخر : قالوا إنهم يتّبعون نظام الشورى ؛ ولكن حيث إن نظام الشورى لم يكن له ذلك الوضوح الكافي لتعيين إمام المسلمين منذ البدء ، لذلك تمسّك أهل السنّة أصحاب هذه الفكرة لتعيين الخليفة بأساليب مختلفة ، واستقر منطقهم في أمر القيادة على المباني التالية .

١ ـ الإجماع : قالوا : إن مسألة الخلافة الإسلامية تدور مدار اختيار الأمة الإسلامية ، والمقبول من كل ما يقال في الأمر هو اختيار الناس

وانتخابهم ، فإذا اختارت الأمة فرداً خاصّاً لمقام الإمامة والزعامة ثبتت قيادته ولزمت طاعته .

وأقاموا دليلاً لدعواهم هذه سيرة أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) بعد وفاته ؛ أي بما أن أصحاب رسول الله بعد وفاته، حيث عقدوا مجلساً لتعيين الخليفة توصلوا إلى الاتفاق فيه ، فأيد أكثر الحاضرين في سقيفة بني ساعدة صلاحية أبي بكر لإحراز هذه السمة الإسلامية ، وبايعوه على ذلك ، إذن ثبتت خلافة أبي بكر . وعلى هذا فقد تحقق إجماع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) على اختيار أبي بكر ، ولم يواجه أبو بكر اعتراضاً عليه من الصحابة . فهذا أحد طرق إثبات الخلافة .

٢ ـ الطريق الثاني لانتخاب الخليفة : بأسلوب الشورى وتبادل الآراء ؛ فإذا اختار كبار الشخصيات الإسلامية في اجتماعهم لذلك وبمشورة فيما بينهم رجلاً لزعامة المسلمين ونصبوه للإمامة وللقيادة ، كان على الأمة الإسلامية أن تقبل بخلافته وتخضع لطاعته .

وهذا أسلوب اتّخذه في صدر الإسلام الخليفة الثاني ؛ بأن رشّح عمر عند وفاته ستة أشخاص لمقام الخلافة على أن يختاروا من بينهم أحدهم لذلك ، وأكدّ على أصحابه أنّ على هؤلاء أن يتبادلوا آراءهم في ثلاثة أيام فيفوّضوا أمر الخلافة إلى أحدهم ، فإن توافق أربعة أو خمسة منهم على أحدهم وقام الباقون بمخالفته فاقتلوا المخالفين منهم .

وقام هؤلاء بعقد مجلسهم حسب وصية الخليفة ، وبعد البحث وتبادل الآراء فوّضوا زمام أمور المسلمين إلى يد عثمان بن عفّان . وهكذا تحقق تعيين القائد من قبل مجلس الشورى لهؤلاء الستة ، وهكذا أثبتت شرعية تعيين الخليفة بهذه الطريقة أيضاً .

٣ ـ أما الطريق الثالث لتعيين خليفة الرسول (صلى الله عليه وآله) : فهو تصميم الخليفة السابق على اختيار الخليفة اللاحق ، بأن ينصب من

أحرز صلاحه لذلك بمقامه . وهذا ما وقع في صدر الإسلام أيضاً، وبه نـال الخليفة الثاني مقام زعامة المسلمين بناءً على تشخيص صلاحيته لـذلك من قبل أبي بكر ، ولم يعترض المسلمون على إقـدام الخليفة الأول وتصميمـه على ذلك بشيء .

هذه هي رؤية أهل السنة في مسألة خلافة الرسول وإمامة الأمة .

ولنا هنا أن نعرض لبعض ما يرد على هذه المستندات من إشكال :

أما بالنسبة إلى المستند الأول ، فنقول :

إنّ القول بضرورة عصمة الإمام وإدراكه العميق ورؤيته وبصيرته النافذة وإحاطته بجميع المسـائل الكلية والجزئية في دين الله ، هذا القول مبتنىً على آيات من كتاب الله وأحاديث من سنة رسول الله والتجربة التاريخية . وكل ما حـدث في تاريخ الإسلام من التعـدي والـظلم والفسـاد والخـطأ والخـطل والغلط ، إنما نشأ من عدم ملاحظة خصائص الإمامة في قيـادة الأمة . ولهذا نقول : لا يصلح لتعيين الإمام أحد سوى الله تعالى ، وحتى لو صمّم جميع أفراد الأمة الإسلامية على انتخاب فرد للإمامة وخلافـة الرسـول (صلى الله عليه وآله) فسوف لا يمنح الإجماع هذا اعتباراً وحجيّة لعملهم هذا .

وفي خلافة أبي بكـر ، لم يبايعـه كل المسلمين كي يتحقق الإجمـاع التام ، وليس بالإمكان أن نغضّ النظر عن هذه الواقعة فنعبرها بسلام ، فإنّه لم يتحقق الانتخاب الحقيقي بشأنه ، فإنّ المسلمين لم يكونوا مجتمعين إذ ذاك في المـدينة ، ولم يشتـرك كـل أهـل المـدينـة في مجلس سقيفـة بني ساعدة ، أضف إلى ذلك أنّ جمعاً من أهل بيت النبيّ (صلى الله عليه وآله) وكثير من الصحابة ، وحتى بعض حضّار ذلك المجلس من أصحاب السوابق الصادقة في الإسلام ، لم يعلنوا ولاءهم للخليفة المنتخب بل أبوا بيعته .

بل إنّ علي بن أبي طالب ، والمقداد ، وسلمان ، والزبير ، وعمّار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعود ، وسعد بن عبادة ، والعباس بن عبد المطلب ،

وأسامة بن زيد ، وأبيّ بن كعب ، وعثمان بن حُنيف ، وجمعاً آخرين من كبار الصحابة أبدوا ردود فعل مختلفة على هذا الاختيار والانتخاب واعترضوا على خلافة الخليفة أبي بكر ولم يخفوا خلافهم في ذلك ، فمع كل هذا كيف تحقق إجماع المسلمين حسب منطق العامة المعتقدين بمدرسة الخلفاء ؟

أمّا ما تقولون من عدم لزوم اشتراك كل الناس في اختيار الخليفة ، بل لو صمم جمع من الشخصيات الشهيرة والمعروفة من أهل العلم والفضل والعقد والحلّ كنواة أصلية في تشكيل مجلس شورى ، كان على سائر المسلمين تصويب عملهم وقبوله .

فما هو الدليل على حجية تصميم هؤلاء على سائر المسلمين ؟ ولماذا يكون سائر مشاهير الأمة من أصحاب الفكر والمقبولين لدى الأمة في إطار القيم المعنوية ومن حيث العلم والمعرفة والديّانة والنزاهة والقداسة ، غائبين عن اتّخاذ التصميم الذي له دور كبير في مصير الأمة الإسلامية ، ومع ذلك يكون عليهم أن يخضعوا لإرادة جماعة منهم من دون أيّ قيدٍ أو شرط ؟! .

أما ما تُصرّون عليه من أن خلافة أبي بكر تحققت بهذه الطريقة ؛ فإن وقوع عمل ما حتى في الصدر الأول من الصحّابة لا يكون دليلاً على مشروعيته مطلقاً ، ونحن نقول : ما الدليل على حجيّة هذه الطريقة في الإسلام ؟ أفهل يصبح عمل جماعة من الصحابة في الصدر الأول كظاهرة تاريخية واجتماعية من دون أن يكون مستنداً إلى دليل ـ حجة على الآخرين ؟ .

نعم يُقبل هذا الدليل فيما لو كان مصرّحاً بمشروعيّته إلى جانب الكتاب والسنّة ، كما بيّن الله ذلك في كتابه بالنسبة إلى رسوله بكل صراحة إذ يقول القرآن الكريم : ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[1] .

---

(١) سورة الحشر : الآية ٧ .

وليس بأيدينا بالنسبة إلى الأصحاب حجة على صحة أعمالهم بصورة عامة ومطلقة ؛ ولا سيما مع النظر إلى اختلافهم في آرائهم ونظرياتهم وتصاميمهم ؛ ومع هذا فبأيّ دليل نرجّح نظرية جماعة على نظرية جماعة آخرين منهم ؟ .

ولا تحلّ المشكلة بالاستناد إلى هذا الحديث المرويّ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال : « إنّ أمتي لا تجتمع على خطأ » فإنه إنما يمكن الاستناد إلى هذه الرواية فيما لو لم يرد أي نصّ بهذا الصدد عن الرسول ، وإلاّ لزم التناقض بين إجماع الأمة ومقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإن الإجماع في مقابل نصّ الرسول يسبّب إعراض الناس عن العمل بأوامر الرسول (صلى الله عليه وآله) وانصرافهم عنها ، وتقديمهم لتصميمهم على أحكامه .

إذن فيجب حصر حجيّة الإجماع على ما لا نصّ فيه (حتى على القول بحجيّة الإجماع) .

أضف إلى ذلك : أن الرسول (صلى الله عليه وآله) إنما قصد بهذه الجملة ـ على فرض صحتها ـ نفي الخطأ والاشتباه عن الأمة فيما لو كان مسموحاً لها أن تعمل برأيها ومشورتها وتبادلت الآراء في جوّ بعيد عن الضغط ، واختارت رأياً باتفاق آرائها . أما لو مال جماعة من الأمة إلى جهة خاصة وأرادت أن تحمل آراءها على الآخرين في جوّ مليء بالدّعاية والإعلان ، فلا دليل على صحة تصميم هؤلاء .

أما في مورد البيعة التي وقعت في سقيفة بني ساعدة ، فلو افترضنا أن الله ورسوله كانا قد سمحا للناس بالعمل بنتيجة مشورتهم في الأمر ، فالقضيّة لم تتم بالمشاورة ، بل قام بها أفراد معدودون ؛ وقد نشطوا لذلك أشد نشاط حتى جرّوا إلى جانبهم جمعاً كثيراً بغير سابق إرادة . وهذه حقيقة كان الخليفة الثاني يعبّر عنها فيما بعدُ فيقول :

« إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمّت ، وإنّها قد كانت كذلك ، إلاّ أن

الله قد وقى شرّها »[1] .

إن رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) في حياته المليئة بالحوادث كان مهتمّاً بأمر المسلمين ومصالح الأمة اهتماماً بالغاً ، بل كان كلّ اهتمامه منصبّاً على بقاء الشريعة وانتظام أمور الدين والمسلمين غاية الاهتمام ، وكان أحياناً يبدي مخاوفه من حدوث التفرقة في أمته ومن مغبّة عواقب حدوث الاختلاف بينهم . كلما تقدم المسلمون وتصرّفوا ببلدٍ أو مدينة كان أوّل ما يهتمّ به تعيين الأمير الحاكم والقاضي ، وفي الحروب التي كانوا يواجهونها كان يعيّن أمير العسكر من قبل ، بل كان يعيّن الأمير بعد الأمير بدلاً عنه . .

وحينما كان يُريد سفراً كان ينصب حاكماً لإدارة أمور المدينة ، فمع هذا كيف يمكن أن لا يفكّر الرسول في أية أطروحة لانتظام أمور المسلمين بعد حياته ، وأن يترك المجتمع الإسلامي الجديد بلا زعيم ؟ ويهمل أمراً مهماً كهذا الأمر الذي ترتهن به السعادة في الدنيا والآخرة ؟ أفهل من المعقول أن يرسل الله رسولاً لهداية الناس وإرشادهم وتبليغ رسالة الله ، ويقوم ذلك الرسول بتحمّل الآلام والمصائب في سبيل تبليغ القوانين والأحكام ، ثم يترك كل هذا ويمضي إلى ربّه ؟ بأية حكمة وأيّ منطق ؟ من منّا يقبل أن يهمل هكذا نتائج أتعابه ومساعيه بيد حوادث الحياة ؟! .

إذا كانت مدرسة الدّين مدرسة لتربية البشرية ، وإذا كانت قوانينه وأحكامه وسيلة لتسامي الإنسان ، فعليه يجب أن يكون لهذه المدرسة مدير يتمتع بشروط خاصة ، يتمكن بها من أن يؤمّن الحاجات الفردية والاجتماعية المادية والمعنوية لقافلة الإنسانية جمعاء ، فيمكّنها من التسامي والارتقاء . ولا شك في لزوم الحكومة والقدرة لتطبيق الأحكام الإلهية وصيانة أوامر الله ونواهيه ، وكذلك لا شك في ضرورة الإمام والقائد اللائق والواجد لجميع الشروط والمواصفات الخاصّة ، كي يرشد البشرية في طيّها لطرق السعادة

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ : ٣٠٨ ط الحلبي . وتاريخ الطبري ٣ : ٢٠٥ ط دار المعارف .

في الـذارين وسلوك سبيل السمَـاء ، والتي تقل معـرفة الإنسـان بهـا وتكثـر وساوسه النفسانية والشيطانية فيها . . وبدون ذلك فسوف يتلوّث وجـه الدين والمعين الزلال للثقافة الدينية بما تبثّه النظريات والآراء والأهواء الشخصية من خرافات وتحريفات وبـدع ، وبذلـك تسقط هذه الأمـانة الإلهيـة من الوحي السماويّ عن درجة الاعتبار ، وسوف لا تصل مدرسة الدين إلى أي شيء من أهدافها في الحياة .

ولو كان الرسول (صلى الله عليه وآله) قد جعل تعيين الخليفـة على عهدة المسلمين أنفسهم ، كان عليه أن يصرّح بهذا الأمر المصيريّ المهم ، ثم يبلغهم كيفية تعيينه من بعده هداية وإرشاداً . . اللهم إلاّ أن لا ترتبط أمور الأمة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) بالله والرسول ! أو أن يكون الناس أكثـر تدبـراً في ذلك من الله والـرسول ! أو أن يكـونـوا أقـوى في تشخيص صلاحيّات القائد ؟! .

فإن كان الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يعيّن خليفة من بعده فلماذا لم يتابعه خليفته الأول أبو بكر؟! وإذا كان قد عيّن فلماذا تركوه ؟! .

لا شك في أنّ الإمام يجب أن يتّصف بالإيمان الكامل والديانة التامـة والعلم الواسع والمعرفة التامة بقوانين دين الله ، وإلاّ فماذا يفعل المسلمون وإلى من يراجعون فيمـا يواجهـون من مسائـل اختلافيّـة وما يُبهم عليهم من معضلات معاني القرآن الكريم ؟ ومقال من يلتزمون ويجعلونه لهم سنداً إليه يستندون ؟ . وهنا نلتفت إلى مسألة الخلافة العلمية عن الرسـول ونتنبّه إلى ضرورتها الحتمية .

وقد شرحنـا قبل هـذا الدور الأسـاسيّ للعصمة وضـرورتها في وجـود الإمـام والرسـول الذي يختـار الإمام ويعينـه . . وهنـا نقـول : كيف يمكن للأصحاب ـ وهم بعيدون عن مقام العصمة ـ أن يعرفوا المعصوم كي يختاروه للخلافة ؟! .

أضف إلى ذلك أنّ اختيار الخليفة إن كان من حق المسلمين ، فكيف فُوّض هذا الحق من قبل عمر إلى ستة أشخاص وحُرم الآخرون من ممارسة حقهم هذا ؟! وكيف تمكن هؤلاء الستة أن يتدخلّوا في مصير سائر الناس وبالاستناد إلى أيّ دليل ؟ وكيف اختصّ حق تعيين الخليفة بهذه العدة اليسيرة من بين سائر المسلمين ؟ وكيف أصبح تصميم هؤلاء ملزماً لسائر الناس ؟!

إن الآية التي تقول : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ لا تثبت شيئاً سوى أنّ من أوصاف المؤمنين أنهم في أمورهم يشاور بعضهم بعضاً ، ولا تشير من قريب ولا بعيد إلى ابتناء إمامة المسلمين على أساس أكثرية الآراء ، وإنّما ترغّب المسلمين في أن يشاوروا في أمورهم بعضهم بعضاً ، أمّا لو انتخب أحد المسلمين للخلافة بمشورتهم وبآراء أكثريتهم فلا توجب الآية الالتزام بما اتّخذ من تصميم من قبل جمع من المسلمين على سائرهم ، والآية ساكتة عن المشورة العامة بين جميع المسلمين . ، فلو كانت الشورى حجة ، وكان المسلمون ملزمين باتّباع آراء المتشاورين منهم ، كان المفروض أن يكون اتّخاذ التصميم في أمر الخلافة بمشورة عامة المسلمين لا خاصّتهم ؛ فضلاً عن ستة منهم .

وعمر نفسه لم يشاور الصحابة في اختيار هؤلاء الستة للترشيح للخلافة ، ولم يتبادل معهم الفكر فيما اتّخذ من قرار بهذا الصدد . ومن قراراته الطريفة أنه جعل حق « الفيتو » للرأسمالي المعروف «عبد الرحمن بن عوف» وهذا مما لا يمكن توجيهه بأيّ ميزان من موازين الحقوق الاجتماعية في الإسلام . أضف إلى ذلك أن الجوّ الحاكم على مجلس الشورى كان جوّاً مليئاً بالتهديد والإرعاب ، فعلى أيّ دليل شرعي صدر الأمر بقتل جميع الأعضاء أو بعضهم فيما إذا لم يتوافقوا على اختيار خليفة من بينهم ؟! .

وكذلك أبو بكر من قبل ؛ فإنه في اختيار عمر لم يشاور الآخرين ، ولم يفوّض أمر الخلافة من بعده إلى الأمة الإسلامية ، بل إنه في اختياره لعمر أقدم بنفسه رأساً ودون أية مشورة .

والمشاورة في أصلها إنما هي في مرحلة ما بعد تعيين الخليفة أو الإمام القائد ، أو صدور أمر منه بتشكيل مجلس للشورى يتبادلون فيه آراءهم في مختلف المسائل الاجتماعية المتغيِّرة واليومية ، التي ترتبط بكيفية العلاقات الإنسانية والسياسة التي ينبغي للإمام القائد أن يتّخذها تجاه تلك المسائل والحاجات الاجتماعية ، وعلى أعضاء مجلس الشورى أن يتشاوروا في كل أمر مع أصحاب الاختصاص فيه ، وبعد استقراء الآراء وتجميع النظريات وبالنظر إليها يأتي دور الإمام القائد ليتّخذ القرار الأخير ، بصفته أعلم الناس بالرسالة والشريعة ، ولأنه يتمتّع بين الطبقات العامة بنفوذ الكلمة . وعلى أي حال . . ففي مقام تنفيذ ما يصوت عليه مجلس الشورى يجب الحفاظ على ضرورة التبعية من الإمام القائد ، ويجب الحفاظ على وحدة القيادة ، فإنّ من البديهي أنّ اختلاف الآراء وعدم اتّخاذ القرار الأخير من قبل القيادة يجرّ إلى انفراط سلك الحكومة وضعف الحكومة المركزية . . كما أشار إلى هذا الأمر القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾[1] .

ومما يدل على أن الشورى في سورة الشورى ليست لتعيين الإمام الأمين هو أنّ سورة الشورى نزلت في مكة المكرمة ، ولم يكن قد تشكّل إلى ذلك اليوم نظام حكومة للإسلام في مكة ، وفي المدينة أيضاً لم يبتن أمر الحكومة على عهد الرسول (صلى الله عليه وآله) على أساس الشورى .

وعلى هذا فإن «الشورى» في الآية الكريمة التي رغّبت المسلمين فيها ليست في أمر الحكومة والقيادة،بل ترتبط بأعمال الناس وما تواجهه مختلف المجتمعات الإسلامية من مختلف المسائل اليومية . وإن الاستدلال بالآية لصحة اختيار الخليفة عن طريق الشورى ليس في محله جدّاً ؛ فإن أمر الحكومة والولاية في عهد نزول القرآن الكريم كان بيد الرسول (صلى الله عليه وآله) لا على أساس الشورى ، بل لا محل لها إذ ذاك .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٦ .

وأخرى : أن ما ذكر بعد هذه الجملة من الآية الكريمة : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ هو ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ مما يدلّ على رجحان الفعل بالمعنى الأعم من الإلزام لا وجوب المشاورة والاتفاق .

والآية الثانية جاءت بين سلسلة من الآيات التي تتعلق بغزوات الرسول (صلى الله عليه وآله) ففي بعض الآيات يوجّه الخطاب إلى المسلمين ولا سيما المجاهدين منهم ، وفي بعضها الآخر يوجّه الخطاب إلى شخص الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وفي ضمن هذه الآيات آية الشورى وواضح من لحن الآية بل صريحها أن الأمر بمشاورة الرسول مع أصحابه بلحاظ حصول الرحمة والرأفة منه بالنسبة إليهم ؛ والاعتناء والاعتداد بهم وبآرائهم ونظرياتهم ، وإلاّ فلم يكن الرسول (صلى الله عليه وآله) مأموراً مكلّفاً موظّفاً ملزماً بالعمل بآراء المشاورين ، بل يصرّح القرآن الكريم فيقول : ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾[1] .

أضف إلى ذلك أن المشورة هنا تتعلق بالحرب، وبالخصوص حرب بدر والأمور الدفاعية والعسكرية . وقد شاور الرسول أصحابه في أن يعرض لقافلة قريش التجارية التي كانت ترجع من الشام برعاية أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، وإذا أفلتت فهل يرجع بهم إلى المدينة أو يواجه نفير قريش لإنقاذ تلك القافلة بقيادة أبي جهل هشام بن المغيرة المخزومي، وهم الطائفة ذات الشوكة والعدة والعدد ، وهم الفئة الكثيرة والمسلمون الفئة القليلة ذات العُدّة الضئيلة؟ فابتدأ أبو بكر بإبداء رأيه الذي لم يرتضه الرسول (صلى الله عليه وآله) ثم ثنّاه الخليفة الثاني عمر فلم يقبل به الرسول أيضاً ، فقام المقداد وقال برأيه الذي قبله الرسول[2] .

وواضح هنا أن الغاية من مشاورة الرسول لم تكن تعلّم الرأي الأقوم من

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة بدر ٣ : ١٤٠٣ .

الآخرين ليعمل على أساسه ، بل المنظور تربية نفوس المسلمين ، فرسول الله يريد أن يعلمهم أسلوب المشاورة واستقراء آراء الآخرين واستخراج الصحيح والعمل به منها ، وأن يقّرر بذلك سنة المشاورة بينهم . وعلى خلاف الأمراء وزعماء العالم آنذاك ـ وحتى اليوم ـ الذين لم يكونوا يشاورون الناس من كبرهم ونخوتهم وغرورهم ، أمر أن ينشر على رؤوس أصحابه رأفته ورحمته فيقاول أصحابه في الأمور الجارية فيقيّمهم بذلك ، ويطّلع على آرائهم ونظرياتهم ، في حين أن له القرار الأخير . كما أن الله تعالى كان قد أخبر رسوله في غزوة بدر عاقبة الأمر من قبل ، وكان الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) قد أبلغ بعض أصحابه بذلك بعد أن شاورهم .

وإن الأمر بالشورى وتبادل الآراء يعني أن نداول العقل والفكر في المشاورة للتعرّف على الطريقة المثلى والأكثر فائدة للعمل بالتكليف ، لا تعيين التكليف (انتبه) ! فإذا كان تكليف الناس معيناً مبيّناً بالنصّ الصريح ، فلا وجه حينئذٍ للمشاورة أساساً ، فلا يحق للمجتمع أن يجعل الأحكام الصادرة من الوحي موضع المشورة ، إذ يلزم من ذلك إلغاء بعض الأحكام الثابتة في الشريعة ، كما أن التكليف القانوني لو كان معيناً لم يكن معنىً لتجديد المشورة فيه . وإن خلافة علي (عليه السلام) كانت قد تعيّنت بأمر الله تعالى منذ بدء رسالة الرسول (صلى الله عليه وآله) وفي غدير خم ، وحتى حينما كان الرسول في فراش الموت ؛ فماذا تعني المشاورة في هذه المسألة مع هذا الوصف ؟!

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُه أمراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مبيناً ﴾(1) . ﴿ وربّك يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾(2) وعلى هذا فلو كان اختيار الإمام القائد لله تعالى ، وقد اختاره وعيّنه وعرّفه لنا على

(1) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

(2) سورة القصص : الآية ٦٨ .

لسان رسوله (صلى الله عليه وآله) ، فلا معنى لأن نذهب هنا وهناك ، ومع وجود إمكان الخطأ والغلط في اختيار الناس فلا قيمة لهذا الاختيار في مقابل اختيار الله ورسوله . .

وحيث إن دور الإمام هو إرشاد الناس وتنميتهم وهدايتهم إلى سعادة الدارين ، فالطريقة الحقّة لتعيينه هي الطريق الذي يذكره القرآن الكريم بشأن النبوّات ؛ فإن دليل الحاجة إلى الإمام هو نفس الدليل على الحاجة إلى النبيّ والرسول ، والقرآن يقول : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾(١) .

فهداية الخلق على الله تعالى ، وهو الخبير البصير بالإنسان وبما يحتاج إليه في جميع مراحل الوجود وبحسب نظام الخلقة والفطرة ، ومن حاجاته الفطرية الأساسية الهداية التي هي على الله تعالى ، وإنما ينتصب بهذا المنصب من نصبه الله تعالى لذلك ، والآيات القرآنية تشهد بأن الله تعالى فوّض هذه الوظيفة إلى أنبيائه ورسله ولذلك جعلهم أئمة على عباده .

وتعيين الإمام والخليفة لرسول الله ـ كإرسال الرسل ـ إنما هو ليكون هادي الأمة ومقتداها ، ولتكون طاعته كطاعة الرسول لازمة واجبة مفترضة على الجميع ، فلا يحق لأحد أن يدّعي القيادة على عباد الله بدون دليل من الله والرسول ، فيدعوهم إلى اتباعه وطاعته . ولو ادّعاها إنسان من دون دليل شرعي كافٍ لإثبات دعواه أفلا يُعدّ غاصباً لحق من حقوق الله والناس ؟! .

وما يتمسك به أهل السنة من عمل الخليفة الأول أبي بكر لإثبات حق الخليفة السابق في تعيين الخليفةاللاحق ، ففيه إشكال ؛ إذ لو كان يتم تعيين الخليفة من قبل الإمام المعصوم لكان حجة معتبرة ، فالمعصوم يعرف المعصوم وله أن يكل إليه أمر الأمة ويعرّفه إلى الناس ، أما غير المعصوم فلا يحقّ له أن يعيّن الخليفة ويلزم الناس له بالطاعة ، أما الاستناد إلى عمل

---

(١) سورة الليل : ١٢ ، ١٣ .

الخليفة الأول، أبي بكر بهذا الصدد، وأنه أقدم على تعيين الخليفة لنفسه ولم تعترض عليه الأمة المسلمة آنذاك . . فيقال في الإجابة عليه : إن التاريخ ها هو يشهد بما اعتُرض عليه ، ولكنه لم ينفع .

هذه هي أدلة علماء أهل السنة على شرعية هذه الطرق الثلاثة لاختيار خلفاء الرسول (صلى الله عليه وآله) وقد أجبنا عليها بما أجبنا .

* * *

ومن المسائل التي تكلّم فيها علماء العقيدة من السنة والشيعة هو بحث أفضيلة الإمام . فحسب نظرية علماء العقيدة من العامة : حتى لو كان بين الأمة الإسلامية شخصية ممتازة لا يرقى إليها أحد من حيث الفضائل الإنسانية والعلم والتقوى بل العصمة ، مع ذلك يحقّ لآخر ليس له حظّ من هذه المزايا والصفات أن يستند إلى مسند القيادة ويستقل بمقام الإمامة والخلافة عن الرسول (صلى الله عليه وآله) .

ولإثبات صحة هذه النظرية تمسكّوا بقصة خلافة الخليفة الأول والثاني أبي بكر وعمر ، وقالوا : مع أنّ علي بن أبي طالب (عليه السلام) كان بعد رحلة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين المسلمين ، وكان كماله وفضائله وجدارته للخلافة متجلّية للجميع ،مع ذلك اختار الصحابة أبا بكر لمقام الخلافة .

ويعتقد الشيعة بأن الإمامة امتداد لخط الرسالة واستمرار لنفس الفيض المعنويّ للنبوّة ؛ فالذي يكون بعد رحلة رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرجع المسلمين في الأحكام ومعرفة مباني الإسلام ، ويكون على الأمة أن ترجع إليه فيما يستحدث من مسائل لا نصّ فيها من القرآن والحديث ، وأن يجعلوا كلامه ملاكاً ومستنداً ودليلاً وحجة للعمل ، يجب أن لا يكون أي شك في تفوّقه على الآخرين من حيث الكمالات والفضائل ، وأن لا يصل أحد من هذه الجهات إلى مرتبته السامية . وإذا كان لله أن يحكم ويختار إمام

الأمة ومربّي الإنسانية الذي يتكفّل بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) ببيان الأحكام الإلهية وتفسير معضلات معاني القرآن الكريم ، ويكون مرجعاً للأحكام وحارساً للحق وصائناً لكيان الأمة ومعلماً لها بعلوم القرآن الكريم ، فهو يفوّض هذا المقام إلى شخصية تمتاز بالعصمة وتكون في المراتب المعنوية والجدارات الروحية والعلمية منفردة في عصرها ، ومرتبطة بعالم الغيب ؛ وذلك ليحفظ لدين الله كيانه الحق ، ويثمر الثمار الصادقة ، وتصل الأمة في ظل تعليماته إلى الكرامة الخالدة والسعادة الأبدية . . وهذا الإنسان السامي ،حيث يشاهد ملكوت السموات والأرض ببصيرته،وحيث هو متوجه إلى ربّه الحق في كل حالاته و آناته ، فلا مجال للخطل في فكره وعقيدته ولا فعله وعمله .

وعلى هذا يكون الإمام أجدر العناصر البشرية في عصره ، وأسمى إنسان في حياته ، وبالنسبة لمعاصريه .

يقول الإمام الرضا (عليه السلام) وهو يعدّد خصائص الإمام في حديث له :

« الإمام : المطهّر من الذنوب ، والمبرّأ عن العيوب ، المخصوص بالعلم ، الموسوم بالحلم ، نظام الدين ، وعزّ المسلمين ، وغيظ المنافقين ، وبوار الكافرين . الإمام واحد دهره لا يدانيه أحد ، ولا يعادله عالم ، ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير ، مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه ولا اكتساب ، بل اختصاص من المفضّل الوهاب »[1] .

وتم الكتاب بعون الملك الوهّاب .

---

(1) أصول الكافي ١ : ٢٠٠ ، ٢٠١ ط آخوندي .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**